كلية الدراسات العليا

برنامج ماجستير الدراسات الإسرائيلية

خطاب الأصلانية في الفكر الصهيوني: من هيرتسل إلى نتنياهو

The Discourse of Indignity in Zionism Thought: From Herzel to Netanyaho

إعداد: أنس أبو عريش

إشراف: د. مجيد شحادة

2018

خطاب الأصلانية في الفكر الصهيوني: من هيرتسل إلى نتنياهو

The Discourse of Indignity in Zionism Thought: From Herzel to Netanyaho

أنس أبو عريش

كانون ثاني 2018

لجنة الإشراف والمناقشة

د. مجيد شحادة (رئيسًا)

د. عبد الرحيم الشيخ (عضوًا)

د. رنا بركات (عضوًا)

قدمت هذه الرسالة استكمالًا لمتطلبات درجة الماجستير في الدراسات الإسرائيلية، من كلية الدراسات العليا في جامعة بيرزيت، فلسطين.

خطاب الأصلانية في الفكر الصهيوني: من هيرتسل إلى نتنياهو

The Discourse of Indignity in Zionism Thought: From Herzel to Netanyaho

أنس أبو عريش

تاريخ المناقشة

13 كانون ثاني (يناير) 2018

لجنة الإشراف والمناقشة:

د, مجيد شحادة (رئيسًا) .....

د. عبد الرحيم الشيخ (عضوًا) .....

د. رنا بركات (عضوًا) .....

شكر وتقدير

أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من كان له دورٌ في إنجاز هذه الرسالة، وأخص بالذكر عائلتي، والدي ووالدتي، إخوتي وأخواتي، كما أخص بالذكر مشرف هذه الرسالة د. مجيد شحادة وأعضاء لجنة النقاش د. عبد الرحيم الشيخ ود. رنا بركات الذين لم يألوا جهدًا في تزويدي بالملاحظات وإثراء النقاشات التي تدعم سير هذه الرسالة.

خطاب الأصلانية في الفكر الصهيوني: من هيرتسل إلى نتنياهو

المحتويات

مقدمة ..... ز

منطلقات نظرية .....بب

الاستعمار والاستعمار الاستيطاني.....بب

الخطاب الاستعماري .....جج

السكان الأصلانيون .....حح

خطاب الأصلانية.....دد

الإنكار والتملص والتهرب .....ذذ

أهمية استعمال إطار الاستعمار الاستيطاني لدراسة الحالة الصهيونية في فلسطين ..... رر

الخطاب وعلاقته بالسلطة .....طط

الخطاب الصهيوني.....عع

الفصل الأول: بنيامين ثيودور هيرتسل..... 1

في صورة المكان / الحيز 2

في صورة الأصلاني المتخيَلة عند المستعمِر 6

في إنسانية المستعمِر..... 8

في تأصيل الغريب وتغريب الأصلاني..... 10

احتلال الأرض أم استعمارها؟ 14

نتائج الفصل الأول 15

الفصل الثاني: دافيد بن غوريون 17

في تأصيل جذور العرب اليهودية..... 18

في عروبية الفلسطينيين وإسقاط فلسطينيتهم..... 19

في أصلانية اليهود 22

في أهمية الفصل مع العرب..... 24

في تحولات الأصلانيين 25
"العودة" إلى الأرض القديمة 26
في فراغ الأرض من السكان، وعدم حاجة العرب لها 29
في نفي التناقض بين المستعمِر والمستعمَر 31
في التوسعية الاستعمارية 33
نتائج الفصل الثاني 35
الفصل الثالث: غولدا مائير 37
في "العودة" باعتبارها حلًا للمسألة اليهودية 38
في الربط بين الماضي والحاضر 39
في إنسانية الاستعمار 42
الاستعمار كعمل انساني لإنقاذ اليهود من المذابح العالمية 43
في مساهمة الاستعمار الإنسانية 45
في إنكار السرقة والعنف مع الفلسطينيين 47
في فلسطينية اليهود 49
في غزو العرب للأرض 50
في أن العرب لا يريدون الأرض 50
في التهرب من المسؤولية 51
في قذارة الشرق الأوسط 53
في أهمية "الوطن القومي" 54
في الإرهاب العربي 55
في تأصيل الهجرة العربية إلى فلسطين 58
كيف يجب أن يرى الأصلاني مستعمِره؟ 61
في التحلّل من الاستعمار 61
نتائج الفصل الثالث 63
الفصل الرابع: مناحيم بيغن 63
في "العودة وليس السفر" 64
"أرض آبائنا، إرثنا وتراثنا" 66
في ربط القديم بالجديد 67
في الصراع مع الأجنبي البريطاني 71

في استعمارية بريطانيا 74
في التحالف العربي البريطاني والمؤامرة 76
في تغييب الفلسطيني 77
في العلاقة مع العرب 80
في الغزو العربي 82
"الاستعمار الصهيوني حركة مقاومة" 84
في "فلسطينية" اليهود 88
في توظيف الديني لصالح الاستعماري 89
في تعبيرات السيطرة على الأرض 94
في فراغ الأرض 96
في التهرب من المسؤولية 97
في أن الصهيونية أسقطت الاستعمار "الأجنبي" 102
نتائج الفصل الرابع 103
الفصل الخامس: اسحق شامير 104
في دعوات الاضطهاد 105
في العودة 105
في استعمارية بريطانيا 108
في التهرب من المسؤولية 111
في ربط الماضي بالحاضر 120
في توظيف الديني 121
"أرض إسرائيل الكاملة" 123
في "إسرائيلية" اليهود 128
"العرب إرهابيون" 129
في إرهاب منظمة التحرير 130
"الصهيونية حركة تحرر" 132

نتائج الفصل الخامس 134
الفصل السادس: بنيامين نتانياهو 134
في استقلالية الشعب اليهودي، وعروبة الفلسطينيين 135
في "أردنية" الفلسطينيين..... 141
في فلسطينية اليهود..... 143
في إهمال الأصلاني للأرض 144
في خلق رابطة بين الماضي والحاضر..... 146
إسرائيل الغربية في الشرق 148
في استخدام الدين اليهودي خدمة للاستعمار 150
في كتابة التاريخ استعماريًا 154
في مصادر الحقوق الاستعمارية 156
في التهرّب والتملّص 158
في إرهاب الأصلانيين 161
في أخلاقية الاستعمار 166
في مصير الأصلانيين..... 167
نتائج الفصل السادس 168
نتائج الدراسة: 169
المراجع والمصادر 178

ملخص الرسالة:

تتعرّض الرسالة للخطاب الأصلاني الصهيوني بالنقد والتحليل، باعتباره أداةً من أدوات الاستعمار الاستيطاني الصهيوني لفلسطين، كما تحاول الدراسة الكشف عن تناقضات هذا الخطاب وتعريته من خلال كشف ميزاته الاستعمارية التي تحاول الصهيونية التنصّل منها. ومن أجل ذلك، سيقوم الباحث باختبار مجموعة من نصوص القادة الصهاينة بدءًا من هيرتسل وانتهاء بنتنياهو لفحص مدى اشتمالها على خطاب الأصلانية وعلى طبيعة هذا الخطاب وتطوره عبر الزمن. كما سيحاول الباحث معرفة فيما إذا كان هذا الخطاب يشهد تماثلًا أم تنافرًا بين القوى اليمينية في الصهيونية والقوى اليسارية فيها.

كما سيعمل الباحث على إيجاد علاقة بين الخطاب الأصلاني ومفاهيم الإنكار والتملص التي يجريها المستعمِر تجاه الأرض المستعمَرة وتجاه سكانها.

Thesis Abstract

This research tries to criticize and analyze the discourse of indigenity in the Zionism thought, as a tool used by the Zionist settler colonialism in Palestine. It also tries to explore the contradictions contained in this discourse and shows off the nature of settler colonialism which has been evaded by the Zionist leaders.

This research will test many of the Zionist leaders texts starting with Herzel, ending with Netanyahu, to explore this discourse and its nature and the way was developed during the years. In the same time, it tries to see if the Israeli right and left wings have the same representations relating to this discourse.

While doing so, the research will discover the relationship between this discourse and the concepts of Evasion and Denial.

مقدمة

انطلاقًا من أن المشاريع الاستعمارية الاستيطانية هي مشاريع تعمل على إحلال سكان جدد مكان السكان الأصلانيين، وادعاء أصلانية هؤلاء المستعمرين، سنحاول في هذا البحث أن نتتبع خطاب الأصلنة لدى حالة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين، كما تتجلى في مجالات الخطاب السياسي الإسرائيلي عبر الزمان، باعتبار أن هذا الخطاب –أي الأصلاني– هو أداة من أدوات هذا الاستعمار. ولأن الاستعمار الاستيطاني لا يتوقف عن إعادة إنتاج نفسه بأساليب مختلفة ومتوازية، ولا ينكفئ عن محاولات برهنة أصلانيته في الحيز، فمن الضروري أن يسعى الفلسطيني إلى تعرية هذا الخطاب، من خلال موضعته إلى جانب حالات الاستعمار الاستيطاني الأخرى في العالم، التي تحاول الصهيونية التنصّل منها.

إن عملية الأصلنة عملية تقوم على بنى متغيرة، وتتفاعل مع عناصر الزمان والمكان، لكنها تتشارك في أهدافها التي تتركز على عمليتي الإنكار والتملص، أي إنكار كل ما كان قائمًا قبل قدوم المستعمِر، وكل ما قام بسبب المستعمِر، وإنكار المسؤولية عن ما فعله المستعمِر من قتل أو تدمير أو تشريد أو تهجير، تمهيدًا للتنصّل من أية تبعات أخلاقية أو سياسية أو حتى مادية. ومن هنا يعمل كل من الإنكار والتملص على الاستعداد للمستقبل من خلال رفض الاعتراف أو تصحيح الظلم الذي لحق بالأصلانيين، سواء في المخيلة الصهيونية أو حتى في أية مفاوضات قادمة، كضرورة إعادة اللاجئين إلى أراضيهم أو دفع التعويضات عن الأرواح أو الأملاك التي نهبها الاحتلال لصالح مشروعه الاستعماري.

من ناحية ثانية، يهدف هذا الخطاب إلى إنشاء بروبوغاندا إعلامية تستهدف اليهود داخل فلسطين وخارجها، تحاول اقناع اليهود بالأساطير التي اختلقتها الصهيونية. كما تستهدف هذه البروبوغاندا العالم الغربي بهدف جلب الدعم العالمي لها، وتهميش الجرائم التي تحصل بحق الفلسطينيين.

كما تهدف عملية الأصلنة التي يقوم بها المستعمِر الصهيوني إلى تشكيك الأصلاني بعدالة قضيته، وتشكيكه بهويته من خلال التشكيك بصحة العلاقة بين المستعمَر وأرضه، ما ينتج حالة من الوعي الزائف بالهوية والثقافة التي تتجلى في العلاقة بين الأصلاني وأرضه، الأمر الذي يعني قبولًا برواية المستعمِر، وتبنيها من قبل المستعمَر. إن من شأن ذلك، أن يدفع الأصلاني إلى التنازل عن حقوقه، بما فيها حقه في التصدي للمشروع الاستعماري، لأن احد أهداف هذا الخطاب هو إقناع الفلسطيني بخرافات وأساطير صنعتها الحركة الصهيونية عبر ربط الديانة اليهودية بتطلعات استعمارية، وتقديمها على أنها حقائق علمية.

إن ظهور خطاب الأصلانية في الفكر الصهيوني لم يكن وليد لحظة تاريخية معينة، بل نشأ مع بدايات الحركة الصهيونية نهاية القرن التاسع عشر. وعلى مدار أكثر من مئة عام، ظل هذا الخطاب ملازمًا لأفكار الحركة الصهيونية وممارساتها، ويتطور بالتزامن مع تطور الصهيونية ذاتها. كما لم يكن هذا الخطاب محصورًا على جماعة سياسية معينة، أو اتجاه فكري دون غيره، بل على العكس، كان عنصرًا أساسيًا من عناصر كافة الاتجاهات والأحزاب السياسية الصهيونية اليسارية واليمينية على حد سواء، بما فيهم منظري اتفاقية أوسلو من بيريس وباراك ورابين الذين يجري تقديمهم عادة على أنهم دعاة سلام.

إن التفسير الذي نقدمه هنا لتبني الحركة الصهيونية لخطاب الأصلانية هو أنها تحاول من خلال ذلك أن تحوّل الفلسطيني إلى غريب، وأن تقطع العلاقة بين الفلسطيني وأرضه عبر تحويله إلى عابر رحالة فيها لا يملك أي علاقة ثابتة بالمكان، ما يعني أنه يتحوّل إلى "غير أصلاني" في المكان، في الوقت الذي يجري فيه تأصيل المستعمِر الغريب. في الواقع إن عملية تغريب الأصلاني عن علاقته بالأرض هي في أساسها تمهيد لتبني هذه العلاقة مع الأرض، ونسبها لليهود.

إن الهدف الأساسي من هذه الدراسة هو محاربة محاولات تشويه الذاكرة الفلسطينية عبر هذا الخطاب، وتوجيه الوعي الفلسطيني نحو التصدي لمحاولات الصهيونية النأي بنفسها عن الكيانات الاستعمارية الاستيطانية، وتقديم نفسها باعتبارها حركة قومية تحررية.

في الواقع، إن خطاب الأصلنة هو جزء أساسي ومفصلي من خطاب الاستعمار الاستيطاني الذي يحمله المستعمِر إلى الأرض المستعمَرة بهدف احلال سكان جدد بدل السكان الأصليين واستبدالهم. ولكن ذلك على أية حال لا يعني قطيعة كاملة لخطاب الأصلنة عن خطاب الاستعمار الكلاسيكي الذي لا يهدف بالضرورة لإحلال مستعمِر مكان الأصلاني، إذ توجد بعض التشابهات بين كل من خطابي الأصلنة في حالات الاستعمار وفي حالات الاستعمار الاستيطاني على حد سواء. إن أبرز هذه التشابهات تتعلق بالادعاءات بأن الأرض المستعمَرة هي أرض فارغة قبل وصول المستعمِر، وأنها أرض بكر لم تمسها يد الأصلانيين أو أنهم لا يجيدون العمل فيها. ويقوم التشابه الثاني على ادعاء بأن المستعمِر بطبيعته محب للسلام، لكنه يعيش بين أناس –هم الأصلانيين– يعشقون الدم، وهو مبرر يقدمه المستعمِر عادة للتخلص من عقدة الاستعمار لديه.

إن من شأن فهم طبيعة هذا الخطاب أن يقدم للفلسطيني أداة جديدة في التعامل مع هذا الاستعمار، تقوم بشكل أساسي على نشوء حالة من الوعي الثقافي المرتبط بالعلاقة مع الأرض الفلسطينية، والمرتبط بفهم طبيعة العلاقة اليهودية بالأرض التي اختلقتها الصهيونية. كما تقوم هذه الأداة على رفض إجراء مفاوضات مع المستعمِر بهدف الحصول على حقوق منه، لأن حالات الاستعمار الاستيطاني لم تشهد من قبل قبول المستعمِر، سواء بمفاوضات أو غيره، إنشاء أية كيانات سياسية ذات سيادة كاملة تمثل السكان الأصلانيين، وبالتالي، فإنه لا جدوى من استعطاف المستعمِر بأي شكل كان، لأن المستعمِر مهما كانت آراؤه السياسية،

فإنه لن يقبل بإعطاء أية حقوق للأصلاني، لأن جوهر الإنكار والتملص يؤكد عدم قبول إسرائيل بالسلام أو الرغبة في تحقيقه.

ولهذا الهدف، عملت الدراسة على التعرض بالنقد والتحليل لخطابات الأصلنة لدى مجموعة من قيادات صهيونية، ومحاولة تفكيك التناقضات التي تعتريه. وقد وقع الاختيار على هذه المجموعة لتوضيح عنصرين أساسيين، الأول تتابع هذا الخطاب زمانيًا منذ بدايات الحركة الصهيونية حتى اليوم، والثاني أنه لا فرق جوهريًا بين يميني ويساري.

وقد غطى كل فصل من فصول هذه الرسالة الخطاب الأصلاني لأحد قادة الصهيونية. وقد بدأ الفصل الأول بالتعرض لخطاب الأصلانية لدى ثيودور هيرتسل باعتباره الأب الروحي للحركة الصهيونية، الذي عايش مرحلة ما قبل الدولة. وقد غطى هذا الفصل خطابه الأصلاني كما ظهر في روايته أرض قديمة جديدة، وفي كتابه دولة اليهود. وتعرض الفصل الثاني لرئيس الوزراء الأول في إسرائيل دافيد بن غوريون، والذي يعد أحد ورثة هيرتسل فكريًا. وقد تركز البحث في سيرته الذاتية التي كتبها شبتاي تيبت، ومجموعة كبيرة من رسائله. أما الفصل الثالث فقد ناقش خطاب غولدا مائير الأصلاني، والتي كانت رئيسة وزراء إسرائيل في الوقت الذي بدأت فيه عمليات استعمار الأراضي التي احتلتها إسرائيل عام 1967، ما يعني أنها كانت صاحبة الممارسات الاستعمارية المستقاة من أفكار بن غوريون وهيرتسل داخل أراضي الضفة الغربية وقطاع غزة. كما كانت مائير مؤسسة لأفكار من تبعها من قيادات اليسار الصهيوني كاسحق رابين وشمعون بيريز الذين وقعوا اتفاقية أوسلو مع الفلسطينيين. وقد تركز البحث على كتابها "اعترافات جولدا مائير" الذي كان بمثابة سيرة ذاتيةامذكرات لها. أما الفصل الرابع فقد ناقش خطاب ميناحيم بيغن الأصلاني. وبيغن هو أحد ورثة اليميني المتطرف فلاديمير جابوتنسكي. وقد تركز البحث خلال هذا الفصل على كتاب "التمرد: قصة

الأرغون" الذي يعد بمثابة تأريخ لحالة الصراع الصهيوني مع البريطانيين قبل إقامة الدولة، وتأريخًا لحياة بيغن ذاته. وناقش الفصل الخامس خطاب اسحق شامير الأصلاني –الوريث الآخر لجابوتنسكي– كما ظهر في مذكراته. أما الفصل السادس والأخير فقد ناقش خطاب بنيامين نتنياهو الأصلاني. وقد جاء اختيار نتنياهو باعتباره ممثلًا لمرحلة سيطرة اليمين المتطرف على السلطة في إسرائيل.

بهذه الطريقة جرى اختيار ستة قادة صهاينة، اثنين من اليسار، وثلاثة من اليمين، مثلوا مراحل زمنية واتجاهات فكرية مختلفة. وقد كان الهدف الأساسي من ذلك توضيح أن الخطاب الأصلاني الصهيوني رافق الخطاب الاستعماري الصهيوني منذ بدايات تكون الحركة الصهيونية، ومر عبر كافة مراحل الصهيونية حتى يومنا هذا، إلى جانب توضيح أنه لا فرق بين القادة الصهاينة سواء كانوا من اليمين أم من اليسار فيما يتعلق بخطابهم الأصلاني، وبأنه لا فرق بين من وقع اتفاقية أوسلو –التي تبدو كاتفاقية سلام– وبين من يدعو إلى استيطان كافة مناطق فلسطين بالقوة أو من ساهم في خلق الدولة الإسرائيلية.

أما خاتمة الدراسة فتشمل تلخيصًا لعدد من الأفكار الرئيسية التي ورد ذكرها خلال فصول الدراسة الستة، ومحاولة لتبيان التناقضات التي تعتري خطابهم، والمغالطات التاريخية التي يحتويها، إضافة إلى توصيات الباحث فيما يتعلق بموضوع الدراسة.

وقد توصلت الدراسة إلى نتيجة أساسية، وهي أن خطاب الأصلانية الصهيوني يحوي –من بين ما يحويه من تناقضات– تناقضًا أساسيًا يتعلق بالارتكاز على ادعاء فحواه أن الصهيونية تدّعي أصلانية لها في منطقة الشرق، فيما تصرّ الحركة الصهيونية على أنها دولة غربية، أو أنها تشكل حاجزًا منيعًا للغرب ضد الشرق. ومن هنا، فقد ظلت الحركة الصهيونية تتبنى ادعاءً بالانتماء للبيئة الغربية، لكن في عالم الشرق. وإضافة إلى البعد الاستشراقي بمفهوم إدوارد سعيد، يقوم هذا التصور على تناقض كبير تستند عليه الحركة

الصهيونية في محاولتها السيطرة على أرض فلسطين. لقد تبنى القادة الصهاينة منذ هيرتسل وحتى نتنياهو مبدأ يقوم على افتراض أنهم كيان ينتمي إلى حضارة الغرب وجزء منه، لكنهم وقعوا في فخ وجودهم الاستعماري في منطقة الشرق، إن هذا التناقض يكشف عن طعن كبير يصيب قلب الخطاب الأصلاني الصهيوني.

فرضيات الدراسة

تفترض هذه الدراسة أن حالة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين تتبنى خطاب الأصلانية بهدف الإنكار والتملص، فيجري إنكار تاريخ المكان، والسكان، والوجود الفعلي لهم، والسطو على هذا التاريخ وتشذيبه بما يلاءم الحاجة، استباقًا للهروب من مواجهة المسؤولية الأخلاقية التي تترتب على عملية الاستيطان وإلغاء الأصلانيين مستقبلًا. هذه العملية تبنى على مبدأ أساسي يرى مستقبل الأرض بيد المستعمِرين الذي يضمن استمرارية المشروع الاستيطاني مستقبلًا، وضمان عدم مساءلته أخلاقيًا لما ارتكبه بحق السكان الأصليين. وتستند الأفكار الأساسية للإنكار والتملص على أن كل ما حدث في فلسطين على يد الحركة الصهيونية منذ بدء الهجرات اليهودية إليها نهاية القرن التاسع عشر ليس مسؤولية الحركة الصهيونية، لأن اليهود "عادوا إلى بلادهم" التي كان يحتلها شعب غريب غير أصلاني. واستتباعًا لذلك، يمكن القول إن ادعاء الصهيونية الأصلانية يتضمن بالضرورة تحويل الفلسطيني إلى غريب، وإلى خارجي exogenous.

كما تفترض الدراسة أن خطاب الأصلانية الصهيوني يهدف إلى خلق أسطورة صهيونية تستغل لأغراض الدعاية المحلية والعالمية بين اليهود، وبين غيرهم، لتبرير ممارسات الحركة الصهيونية واجتذاب مزيد من الدعم والتأييد لها، ولتهميش ما حصل بحق الفلسطينيين. من ناحية أخرى، تفترض الدراسة أن هذا الخطاب يستخدم في سبيل تشويه الذاكرة والمعرفة الفلسطينية بالمستعمِر، بهدف دفع الفلسطينيين إلى القبول بشرعية وجود دولة إسرائيل، وتشكيكهم بأحقيتهم في التواجد في المكان، ما يعني تنازلًا عن حقوقهم بشكل كامل.

منهجية الدراسة

استقراءً لذلك، ستسير هذه الدراسة في عدة مسارات تسعى إلى الكشف عن تجليات هذه الظاهرة في الأيديولوجيا الصهيونية. ومن خلال ذلك سنحاول التعرف على أشكال التعبير عن الأصلانية، ورصد الأدوات التي يستخدمها المستعمِر في محاولته ادعاء الأصلانية، عبر تحليل مضامين خطابات قيادات صهيونية سياسية من ثيودور هيرتسل حتى بنيامين نتنياهو. ويحاول هذا البحث تتبع تورط القادة الصهاينة في تبني الخطاب الأصلاني، عبر استجواب هذا الخطاب وتفكيكه.

ويسعى تحليل هذا الخطاب إلى إدراك الفوارق الفردية بين الزعماء الصهاينة، وتأمل مميزات هذا الخطاب الذي يرتبط بالذاكرة الجمعية للمجتمع الإسرائيلي، ما يتيح إمكانية لبلورة مواقف تجاه هذه الخطابات.

عينة الدراسة

كعينة للبحث، اختار الباحث مجموعة من رؤساء الوزراء الإسرائيليين إلى جانب أحد مؤسسي الحركة الصهيونية. وقد اختار الباحث، إضافة إلى مؤسس الحركة الصهيونية ثيودور هيرتسل، ديفيد بن غوريون أول رئيس للوزراء في إسرائيل، وغولدا مائير، ومناحيم بيغن أول رئيس وزراء يميني في إسرائيل، واسحق شامير، وبنيامين نتنياهو رئيس الوزراء الحالي.

وقد كان السبب وراء اختيار هذه الأسماء هو أن تشمل الدراسة كافة المراحل التاريخية الأساسية في تاريخ الحركة الصهيونية على أرض فلسطين – مرحلة ما قبل الدولة، ومرحلة سيطرة اليسار على السلطة، ومرحلة سيطرة اليمين على السلطة، وانتهاء بسيطرة اليمين المتطرف على السلطة في إسرائيل. كما راعى اختيار العينة أن تشمل كافة التوجهات السياسية من يمين ويسار. يمكن لذلك، أن يتيح لنا معرفة فيما إذا كان هذا الخطاب قد شهد استمرارية زمنية تاريخية من نوع ما، أو حتى تشاركًا حزبيًا على يد اليمين واليسار في إسرائيل.

وقد تركز البحث على أعمال القادة الصهاينة، ككتب السيرة الذاتية المتعلقة بهم، ورواياتهم، ومذكراتهم ويومياتهم التي كتبوها بأقلامهم. وقد غطت هذه الكتب والسير المترجمة إلى العربية فترات طويلة من حيواتهم، بما فيها من أحداث مفصلية كثيرة ذات علاقة بالقضية الفلسطينية. لقد كان المعيار الأساس في اختيار هذه الأعمال أن تكون مصادر أولية تتضمن إجمالًا لآرائهم الفكرية وخلاصةً لتعليقاتهم الفكرية حول مجموعة كبيرة من الأحداث السياسية التي شكّلت مفاصل مهمة في القضية الفلسطينية. كما روعي أن تمثّل هذه العينة مجموعة كبيرة من رؤساء الوزراء الإسرائيليين من ذوي التوجهات اليمينية واليسارية على حد سواء، وبما يشمل المدارس الفكرية التي غذت معظم القادة السياسيين.

مشكلة الدراسة

الخطاب الاستعماري الأصلاني الصهيوني هو خطاب يراد منه خداع وتضليل الأصلانيين الفلسطينيين واليهود والرأي العام العالمي، واقناعهم بأن اليهود الصهاينة هم أصحاب الأرض الفلسطينية الشرعيين. ولذلك، كان لا بد من متابعة هذا الخطاب بالنقد والتحليل وتبيان التناقضات التي تعتريه، من أجل توضيح مراميه، والمعاني التي يحاول ترسيخها في الوعي العربي، واليهودي، والعالمي. والخطاب الصهيوني بطبيعته خطابٌ إلغائيٌ للخطابات المعارضة، يقوم على إسكاتها عبر الدخول في سجالات من شأنها تثبيت الذات، وترسيخ الفكرة في الذاكرة المعادية. ومن هنا كان لا بدّ من وجود بحث أكاديمي يقوم على إدراك وتحليل هذه الأبعاد.

إن الهدف من دراسة الخطاب الأصلاني الصهيوني هو تفكيك هذا الخطاب، وتوضيح أن أسلوب القضاء الاستعماري يظهر بشكل واضح في حالة الاستعمار الاستيطاني في فلسطين، بشكل يقوم بتوضيح الأبعاد الاستعمارية في المشروع الصهيوني، دون السقوط في فخ الخطاب الاستعماري.

أهمية الدراسة

تأتي أهمية الدراسة من قدرتها على توضيح إحدى سمات الاستعمار الاستيطاني بشكل عام، وإحدى سمات الاستعمار الاستيطاني الصهيوني بشكل خاص، المتعلقة بإنشاء الأساطير المتعلقة بخلق رابطة أصلانية مع الأرض المستعمَرة، ويأتي ذلك في إطار إنشاء حالة من الوعي السياسي لدى الفلسطينيين والعرب الذي يسعى للتصدي لهذه الحالة من تشويه الذاكرة والمعرفة، إضافة إلى فهم حقيقة هذا الكيان الذي ما زال مستمرًا بهذا الخطاب حتى يومنا هذا بكل تجلياته المختلفة بما يوصلنا إلى نتيجة مفادها استحالة تحقق "السلام" مع

هذا الكيان، وبالتالي ضرورة توجيه طاقاتنا إلى التوعية والتعبئة السياسية بعيدًا عن المفاوضات التي تعرّض الذاكرة للضياع والقبول بالنقيض، أي تحول الأصلاني الفلسطيني إلى جسد بدون هوية.

كما تأتي أهمية هذه الدراسة من الخصوصية التي يتمتّع بها الخطاب الأصلاني الصهيوني عن باقي الحالات الاستعمارية الاستيطانية الأخرى، فالخطاب الصهيوني، ورغم العوامل المشتركة مع باقي الحالات، إلا أن له مجموعة من المميزات الخاصة، فمثلًا، يلعب الخطاب الديني دورًا كبيرًا في ادعاء الأصلانية الصهيونية في فلسطين. ورغم أن الحالات الأخرى، كما في أمريكا الشمالية، استخدمت الدين والمعتقدات في سياق تبرير الاستعمار في حالات كثيرة، إلا أن الاستعمار الصهيوني شهد تكثيفًا لهذا الاستخدام، وحوّله إلى عنصر أساسي من عناصر هذا الخطاب. ومن هنا، تهتم الدراسة بتوضيح الخصوصيات التي يتمتّع بها الخطاب الأصلاني الصهيوني الذي ينعكس في الوعي الإسرائيلي، مع الإشارة إلى العوامل المشتركة مع حالات استيطانية أخرى حول العالم.

وستساهم نتائج هذا البحث في تفكيك النموذج الخطابي الإسرائيلي الذي يجري تقديمه للعالم، باعتباره مبررًا لعملية الاستعمار، ومهربًا من المسؤولية التي قد تترتب على عملية الاستعمار. إن تعرية هذا الخطاب هي جزء من محاولات تفكيك الأسس التي يقوم عليها الاستعمار الاستيطاني الصهيوني لفلسطين تمهيدًا لتفكيكه بالكامل، وتحرّر الأصلانيين الفلسطينيين من هذا الاستعمار.

وليس المقصود من ذلك الوقوع في أحبال الخطاب الاستعماري من خلال الدخول في مجموعة من النقاشات حول أصول الفلسطينيين أو تاريخهم على الأرض كالقول إننا كنعانيون مثلًا، بل على العكس، إن الهدف هو الخروج من الفلك الذي يدور فيه الخطاب الصهيوني عبر توضيح أن القضية تكمن أساسًا في قدوم مستعمِر خارجي قضى على علاقة الفلسطيني الموجود مسبقًا بالأرض وحاول استبدالها بعلاقة مستعمِر بالأرض.

والمغزى من ذلك أنه لا فائدة من الدلائل التي تقدمها الصهيونية على أن أصول الفلسطينيين تعود إلى أراضٍ غير فلسطين، لأن المهم هو طبيعة هذه العلاقة مع الأرض، التي هاجمها مستعمِر خارجي وطرح نفسه بديلًا عنها. والرد على هذه النقاشات هو وقوع في فخ الاستعمار، خاصة أن الفلسطينيين لم يدخلوا إلى فلسطين كمستعمرين في أي وقت من الأوقات.

وبالتالي يمكن أن تساهم نتائج هذا البحث في دفع الفلسطينيين إلى عدم الاكتفاء بمواجهة الخطاب الإسرائيلي ومحاولة التعبير عن الرفض وتقديم النقيض الذي يثبت صحة الادعاء الفلسطيني، بل عبر بناء منظومة فلسطينية خطابية وقومية، تسعى إلى تكريس أصلانية الفلسطينيين، بالتزامن مع تعرية الخطاب الأصلاني الصهيوني. إن الهدف من ذلك هو بناء سردية أخرى، ونموذجًا آخر محل النموذج الإسرائيلي الذي يجري تصوره، لأن تفكيك الاستعمار يبدأ من اللحظة التي يعمل بها الفلسطينيون على تفكيك الخطاب الإسرائيلي الموّجه للعالم، بما فيه الخطاب المتعلق بالتاريخ الصهيوني في أرض فلسطين.

من الممكن أيضًا أن تسهم نتائج هذه الدراسة بفهم الطريقة التي تجري من خلالها الممارسات ضد الفلسطينيين على أرض الواقع، بمعنى أنها ستساهم في الإجابة على أسئلة مثل: لماذا يتصرفون بهذه الطريقة ضد الفلسطينيين؟ لماذا يحدث قتل وطرد جماعي للفلسطينيين؟ كيف استخدم هذا الخطاب في تبرير الاستعمار من خلال اقناع اليهود في العالم الذين كانوا في البداية وبالذات قبل الهولوكوست غير مقتنعين بالكامل بالصهيونية؟

مراجعة أدبيات

في كتابه الاستعمار الصهيوني لفلسطين، يرى فايز صايغ[1] أن وجود الحركة الصهيونية ووريثتها دولة إسرائيل في أرض فلسطين يعد وجودًا غريبًا ودخيلًا على المنطقة العربية، بسبب المنهج الذي اختارته لنفسها، وهو منهج استعماري قائم على العنصرية المطلقة والتفرقة العنصرية الذاتية. ويرى صايغ أن إسرائيل ليست جزءًا من الشرق الأوسط، إلا من الناحية الجغرافية والذي يعد عنصرًا ستاتيكيًا، وجامدًا.[2] ورغم ارتباطها الحيوي مع الامبريالية الغربية ووضعها الحتمي كدخيل على المنطقة،[3] إلا أن الصهيونية قدمت نفسها على أنها تشكل بناء قوميًا يسعى لحل مشكلة العداء الأوروبي للسامية عبر إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. هذا الخطاب هو الذي حول عملية الاستعمار إلى شيء مرغوب فيه من قبل يهود العالم، وهو الذي حول أنظار اليهود عن أن الاستعمار كان الأداة التي استخدمتها الصهيونية في سبيل تشييد الأمة.[4] إن الأفكار الواردة في كتاب صايغ تمثّل مجموعة من الأسس التي ينبغي على أي دارس للحركة الصهيونية فهمها واستيعابها، تمهيدًا للبناء عليها.

ومن هنا، انطلق مجيد شحادة[5] في تحليله لحالة الاستعمار الصهيوني في فلسطين، مبينًا في مقالته "إسرائيل في آسيا" أن القادة الصهاينة قاموا بتسويق مشروعهم الاستعماري الاستيطاني أمام العالم الغربي باعتباره "جبهة الغرب ضد الشرق الهمجي"، وباعتباره جبهة الحضارة والديمقراطية ضد آسيا الرجعية، في حين ظل القادة الغربيون ينظرون إلى هذا المشروع وفق هذه النظرة. وقد وجد شحادة أن الاستعمار الاستيطاني في فلسطين قد اعتمد على مفاهيم مرتبطة بالمركزية الأوروبية والتي ترى في السكان الأصلانيين رحالة يعيشون

---

[1] صايغ، فايز. 1965. الاستعمار الصهيوني في فلسطين. بيروت: مركز البحوث بمنظمة التحرير الفلسطينية. ص26.

[2] المصدر السابق، ص27.

[3] المصدر السابق، ص28.

[4] المصدر السابق، ص7-8.

[5] Shihade, Magid. 2015. The place of Israel in Asia: settler colonialism, mobility, memory, and identity among Palestinians in Israel, Settler Colonial Studies, DOI: 10.1080/2201473X.2015.1024379, p1.

في حالة البداوة، بما يعني عدم وجود علاقة ثابتة بين الفلسطيني وأرضه، الأمر الذي استخدم في محو علاقة السكان الأصلانيين بالأرض ومسح تاريخهم وخبراتهم فيما يتعلق بعلاقتهم بالأرض، على غرار النظرية الآسيوية التي استخدمت في حالة الاستعمار الاستيطاني لشمال أمريكا.[6] وقد توصل شحادة في بحثه إلى أنه في سياق الاستعمار الاستيطاني، فإن ممارسات البنية الاستعمارية بحق السكان الأصلانيين في كل من حالتي الحرب والسلام تبقى ثابتة من خلال ممارسة المزيد من القمع والحبس ومنع التنقل وإنشاء حالة من الاغتراب عن الجغرافيا المحيطة.[7] كما يتوصل إلى نتيجة مفادها أن أحداث العام 1948 باعتبارها حدثًا ممزقًا للزمان والمكان الأصلانيين لا تزال بناها مستمرة على الفلسطينيين وعلى العرب وعلى الشعوب في آسيا وأفريقيا على حد سواء.[8]

عند هذه النقطة يتوقف نور مصالحة[9] ليجادل بأن ما تقوم به الصهيونية هو في حقيقة الأمر مجموعة من ممارسات قتل الذاكرة الجمعية التاريخية للأصلانيين الفلسطينيين، في محاولة للقضاء على هويتهم وتكوينهم الثقافي. ويؤكد مصالحة على أن مواجهة هذا المشروع الاستعماري الاستيطاني تتطلب هدم بناه الاستعمارية من خلال إعادة كتابة التاريخ عبر سرد تجارب السكان الأصلانيين الفلسطينيين، وسرد قصة النكبة باعتبارها العنصر الأساسي في الدمار الاجتماعي والثقافي الذي حل بالفلسطينيين.[10] ويشدد مصالحة على أهمية كتابة ذلك في سبيل الحفاظ على الذاكرة الجمعية والهوية الفلسطينية من الضياع، في الوقت الذي تستمر فيه

---

[6] Ibid., p4.

[7] Ibid., p7.

[8] Ibid., p7.

[9] Masalha, Nur. 2012. The Palestine Nakba: Decolonizing History, Narrating the Subaltern, Reclaiming Memory. London: Zed Books.

[10] Ibid., 44.

ممارسات هذه البنية الاستيطانية حتى يومنا هذا.[11] في الواقع، لقد كانت أفكار مصالحة تطبيقًا لنظريات فرانس فانون الذي قال إن العنف الذي يمارسه المستعمِر بحق المستعمَر ليس بالضرورة عنفًا جسديًا، بل قد يشمل الحرب النفسية التي يشنها على هوية وثقافة المجتمع الأصلي، بما قد يؤدي إلى فناء هذه الثقافة، وتجمد الحياة في الأفراد.[12] ومن هنا، يشن المستعمِر حربه على الوجود الثقافي للأصلاني[13] تمهيدًا للقضاء على الوعي القومي للأصلاني،[14] خاصة عبر التضليل الذي تمارسه بحقهم.[15]

وهكذا يصبح تخيّل الأصلاني مرآة للصورة التي يرسمها الغربي للشرقي بمفهوم إدوارد سعيد،[16] بمعنى أن إنتاج صورة الأصلاني يرتبط أساسًا بالطريقة التي يريدها المستعمِر، ومن خلال وضع نفسه في مقام النقيض مع هذا الأصلاني. إن من شأن فهم ذلك أن يوصلنا إلى فهم أفضل للحالة الصهيونية التي تستخدم هذا الخطاب الاستشراقي من أجل ادعاء الأصلانية في أرض فلسطين.

على أية حال، يرى إميل توما[17] في كتابه جذور القضية الفلسطينية أن فكرة "العودة إلى صهيون" التي كانت تشيع بين اليهود في أوقات وظروف معينة كانت فكرة دينية فحسب. وهكذا وجد توما أن الفرق كبير جدًا بين فكرة "الشوق إلى صهيون" وبين الصهيونية بوصفها أيديولوجية سياسية معاصرة نشأت ضمن ظروف تاريخية معينة، خاصة بعد أن اقتبست الصهيونية هذا الشوق وأقامت بناءها الأيديولوجي على الدين اليهودي وجعلته جوهر القومية التي أرادت خلقها.

---

[11] Ibid., 251–257.

[12] فانون، فرانز. 2014. معذبو الأرض ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي. القاهرة: مركز مدارات للأبحاث والنشر. 82.

[13] المصدر السابق، 191.

[14] المصدر السابق، 67.

[15] المصدر السابق، 42، 43–44، 191، 200.

[16] سعيد، إدوارد. 1995. الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء ترجمة كمال أبو ديب. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.

[17] توما، إميل. 1976. جذور القضية الفلسطينية. ط3. القدس: [د.ن.]. ص20–21.

تعقيبًا على ذلك، يرى غابرييل بيتربيرغ في كتابه المفاهيم الصهيونية للعودة[18] أن علاقة الصهيونية بالموروث اليهودي هي علاقة انتقائية هدفت إلى شرعنة الفكر الاستعماري الصهيوني عبر إعطائه طابعًا مسيانيًا مشوهًا. ولأجل ذلك يقوم بيتربيرغ بعد مراجعة أدبيات الصهيونية بنقد الأساطير التأسيسية للفكرة الصهيونية التي تقوم بالأساس على ثلاثة أفكار مترابطة ومتشابكة ولا انفكاك بينها هي نفي المنفى، والعودة إلى أرض إسرائيل، والعودة إلى التاريخ. وتقوم فكرة نفي المنفى على وصف الاستمرارية بين ماض قديم وجدت فيها سيادة يهودية على أرض إسرائيل، وحاضر يتجدد في إعادة استيطان فلسطين، أما الفترة بينهما فيحتقرها اليهود مستندين إلى فكرة أن اليهود كانوا أمة واحدة ذات إقليم ترابي منذ الأزل، أما وجود الأمة بدون إقليم ترابي فهو وضع شاذ، في انتظار وقت الخلاص "الصعود" إلى أرض إسرائيل. تكمل الفكرة الثانية وهي العودة لأرض إسرائيل الفكرة الأولى، إذ أن استرجاع الشعب لبيته هو وعد لتطبيع الشعب اليهودي. وسيعود هذا الشعب إلى أرض إسرائيل الفارغة. و"فارغة" هنا لا تعني خلوًا كاملًا من السكان، بل تعني أنه حكم على الأرض بالنفي طالما لم يكن بها سيادة يهودية، أما السكان الذين يتواجدون فيها فهم جزء من المحيط الطبيعي. وتترابط تلك الفكرتين مع الفكرة الثالثة وهي العودة إلى التاريخ، فالأمة هي الفاعل المستقل ذاتيًا وتاريخيًا، وطالما بقي اليهود منفيين فهم يظلون خارج التاريخ، إلى أن "يعودوا" إلى أرض إسرائيل وإلى التاريخ عبر تشكيلهم أمة واحدة من جديد.[19]

[18] بيتربيرغ، غابرييل. 2009. المفاهيم الصهيونية للعودة: أساطير ودراسات إسرائيلية. رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية مدار.

[19] المصدر السابق، ص120-121.

من ناحية ثانية تقترح عبدو ويوفال–ديفيس[20] بأن المشاريع الاستعمارية تنظر عادة إلى الأرض على أنها عالم جديد، يراد من خلالها بناء مجتمع جديد للمهاجرين/المستعمرين، وبالنسبة لهما فإن ما يميز حالة الاستعمار الصهيوني في فلسطين محاولة الربط الدائمة بين الماضي التوراتي، والحاضر الاستعماري. لذلك فقد كانت الصهيونية ترى في السكان الفلسطينيين الأصلانيين جزءًا من البيئة المحلية الغريبة ذات الوجود الهامشي. وقد لعب هذا التصور القائم على الربط بين الماضي والحاضر دورًا كبيرًا في خلق أساطير يهودية حول الوجود اليهودي وشرعية وجوده على الأرض باعتباره الشعب الأصلاني لهذه الأرض. في الواقع لقد لعبت معظم حالات الاستعمار الاستيطاني على هذا الوتر، وادعت وجود علاقة اشتباك استعمارية مع الماضي البعيد، لضمان إعادة تصور المستعمِر باعتباره أصلانيًا. في هذا السياق يوضّح منير العكش[21] أن عمليات الربط بين الماضي والحاضر، عادة ما كانت تتم عبر استخدام المصطلحات التوراتية وإلصاقها على الأشخاص وعلى الأماكن. كما يوضح ستيفن سلايطة في كتابه Holy land in Transit[22] أن مثل هذه المصطلحات كانت تنتقل بين مشروع استعماري وآخر، فالمصطلحات التي جرى استخدامها في شمال أمريكا، جرى استخدامها في فلسطين، وهكذا.

علاوة على ذلك، تعتبر الأرض الفارغة، أو الأرض البكر عنصرًا أساسيًا من عناصر في الخطابات الاستعمارية حسب ما يرى جوزيف مسعد.[23] ويزداد هذا العنصر أهمية في حالات الاستعمار الاستيطاني التي ترى ضرورة للقضاء على كل ما هو كائن، بما فيه القوة الفاعلة على الأرض. إن استهداف الأصلانيين

---

[20] Abdo, N., & Yuval–Davis, N. 1995. Palestine, Israel, and the Zionist settler project. In D. Stasiulus & N. Yuval–Davis (Eds.), Unsettling settler societies: Articulations of gender, race, ethnicity, and class (pp. 291–322). London, England: SAGE.

[21] العكش، منير. 2015. دولة فلسطينية للهنود الحمر. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر.

[22] مذكور لدى Salaita, Steven. 2014. "Inter/Nationalism from the Holy Land to the New World: Encountering Palestine in American Indian Studies." Native American and Indigenous Studies Vol. 1, No. 2.

[23] مسعد، جوزيف. 2009. ديمومة المسألة الفلسطينية: حول الصهيونية والحركة الوطنية الفلسطينية. بيروت: دار الآداب. 79–80.

يتضمن –من بين ما يتضمنه– استهدافًا لعلاقتهم بالأرض المستعمَرة. وقد اعتبر الخطاب الصهيوني فلسطين وطنًا أمًا "يعود" إليه اليهود الأوروبيون، باعتبارها أرضًا بكرًا –في عقلهم اللاواعي على الأقل– سوف يفتضها اليهودي ما بعد الشتاتي، ويعيد إخصابها ببذور يهودية ما بعد شتاتية. إن العدائية التي يحملها المستعمِر معه إلى الأرض الجديدة تهدف إلى تطويع البيئة والتغلب عليها، وعلى الصعاب التي تواجه عملية الاستيطان. وقد تظهر هذه العدائية بشكل "مفضوح" كما حصل في ممارسات القسوة الوحشية ضد السكان الأصلانيين في معظم حالات الاستعمار. وهكذا يصبح المستعمِر مفتضًا ومخصبًا للأرض العذراء.

وحول الأساطير اليهودية التي اختلقتها الصهيونية ألّف أستاذ التاريخ في جامعة تل أبيب شلومو ساند كتابين بعنوان "اختراع الشعب اليهودي"،[24] و"اختراع أرض إسرائيل".[25] يطلق ساند في هذين الكتابين النار على كثير من الأساطير الصهيونية التي يجري التشديد على أنها مسلمات في الفكر الصهيوني "القومي"، ويوضح عبر صفحات الكتابين كيف اخترعت الصهيونية شعبًا يهوديًا وأرضًا إسرائيلية من العدم، ورسختهما في الفكر اليهودي بشكل يجعل منهما غير قابلين للتكذيب. ويبين ساند التناقضات التاريخية التي تابعت نشوء هذين المصطلحين في الوعي الصهيوني. رغم ذلك، لا يبدو أن ساند يرغب في تقديم أية تنازلات لصالح الأصلاني من شأنها أن تعيد الحق إلى أصحابه، بل يكتفي بالإشارة إلى بعض الحقائق المتعلقة بتاريخ المكان.

كما كتب كيث وايتلام[26] كتابًا مشابهًا يقوم فيه بفضح الفكرة الصهيونية التي حاولت اختلاق ما يسمى اليوم "أرض إسرائيل" عبر قمع التاريخ الفلسطيني والقضاء عليه. ويوضح وايتلام أن الصهيونية تجنبت عن قصد

---

[24] ساند، شلومو. 2010. اختراع الشعب اليهودي ترجمة سعيد عياش. رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية مدار.

[25] ساند، شلومو. 2013. اختراع أرض إسرائيل ترجمة أنطون شلحت وأسعد زعبي. رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية مدار.

[26] وايتلام، كيث. 1999. اختلاق إسرائيل القديمة: إسكات للتاريخ الفلسطيني سلسلة عالم المعرفة ترجمة سحر الهنيدي مراجعة فؤاد زكريا. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

المكتشفات الأثرية التي تثبت خطأ أبحاثهم المستندة على نصوص الكتب التوراتية، في سبيل إقناع اليهود بأن "أرض إسرائيل" اليوم هي أرض "الآباء اليهود".

وأوضح وايتلام أن الولع الصهيوني الكبير بمملكة إسرائيل القديمة التي قامت في فلسطين قبل آلاف الأعوام كان يهدف إلى إسكات التاريخ الفلسطيني والتركيز على التاريخ اليهودي رغم أنهذه الدولة لم تكن إلا جزءًا بسيطًا من تاريخ فلسطين الغني بالحضارات، لكن الصهيونية، ومن بعدها الدارسين التوراتيين[27]، حاولوا التركيز في دراساتهم على هذه الحقبة الزمنية القصيرة بهدف تجريد الفلسطيني من أرضه، و"إسكات تاريخه" تمهيدًا لإنشاء شعور جمعي يقوم على ربط الماضي بالهويات السياسية والاجتماعية لليهود في العصر الحالي، متجاهلين حقيقة أن علم الآثار لم يستطع حتى الآن أن يثبت صحة ادعاءاتهم.

أما ناديا أبو الحاج فقد نشرت كتابًا بعنوان حقائق على الأرض[28]، تحلل فيه دور علم الآثار في خلق "أسطورة الأصل" بالمعنى الحديث. وتعد القومية بالنسبة لها مصطلحًا حديثًا صناعيًا مختلقًا مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالمشروع الصهيوني الاستعماري. وبالنسبة لها، يشكل علم الآثار الإسرائيلي أداة لتشكيل الخيال الاستعماري التاريخي الذي ينبني عليه مجموعة من المطالبات الإقليمية. كما ترى أن دور علم الآثار الإسرائيلي هو إضفاء بعد استعماري على الحركة الصهيونية عن طريق الافتراض بأن الأدلة الأثرية تحافظ على الأمم والمجموعات العرقية.

وتوضح أبو الحاج في عملها كيف يتحول علم الآثار إلى عنصر أساسي من عناصر الممارسة الاستعمارية من خلال إنتاج حقائق على الأرض يجري من خلالها تقديم مطالبات تاريخية ووطنية، مبنية فعليًا على

---

[27] بالنسبة للدارسين التوراتيين فإن التوراة شيء مقدس، وبالتالي تجري الدراسات التوراتية بناء على ما ورد فيها من قصص تاريخية لا بناء على علم الآثار أو غيره من العلوم التي يمكن أن تثبت صحة أو عدم صحة هذه القصص التاريخية. وبالتالي، تتوصل الدراسات التوراتية إلى نتائج معدة سلفًا لتتلاءم مع القصص التوراتية، لأن نقيضها يعني عدم قبول تبريرات الصهيونية.

[28] Abu El-Haj, Nadia. 2001. Facts on the Ground: Archaeological Practice and Territorial Self-Fashioning in Israeli Society. Chicago: University of Chicago Press.

أساطير لا أساس علميًا لها. وقد أوضحت أبو الحاج كيف يساهم علم الآثار الإسرائيلي بتشكيل الهوية الوطنية، بما يكشف عن العلاقة بين الأيديولوجيا الوطنية الناشئة عن الاستعمار الاستيطاني وإنتاج المعرفة التاريخية، كاشفة الطريقة التي يجري فيها تبادل العلم والسياسة في إسرائيل.

يعد كتاب "الاستعمار الاستيطاني: مراجعة نظرية عامة" للورينزو فيرتشيني[29] أحد أوائل الكتب التي حاولت الدفع نحو استقلال حقل الدراسات الاستعمارية عن الدراسات الاستعمارية. ويحاول فيرتشيني في هذا الكتاب أن يستكشف الطرق التي جرى من خلالها بناء مجتمعات أوروبية جديدة خارج أوروبا، عن طريق استكشاف الطرق التي حاول من خلالها الاستعمار الاستيطاني إنشاء سلطات سياسية ذات سيادة كاملة خارج أوروبا.

وخلال صفحات الكتاب يوضح فيرتشيني مجموعة من الطرق التي يجري من خلالها طرد السكان الأصلانيين واستبدالهم بسكان جدد. ومن بين هذه الطرق ما أسماه "الطرد السردي" الذي يقوم فيه الخطاب الاستعماري فيه على تصوير الأصلانيين على أنهم متخلفين لا أمل في تمدينهم أو تحضيرهم، وأنهم أحفاد الأشكال البدائية للجنس البشري الذين علقوا في الزمن الماضي. ويجري هنا وضع الأصلانيين في حيز المقارنة مع الجماعات المستعمِرة بما يؤسس لوضع يتم فيه ازاحة السكان الأصليين الى زمن آخر، وإخراجهم من الزمن الذي يعيشون فيه.[30] لكن وبما أن الأصلانيين قد وصلوا أو سيطروا على المكان قبل المستعمِر، فإنه بالنسبة للمستعمر، لدى الطرفين، المستعمِر والأصلاني، أصلانية متماثلة. النتيجة المباشرة لمثل هذا الخطاب، هي أن الأصلاني أيضًا هو مستعمِر بالنسبة لعلاقتهم بالمكان (الأصلانيين وصلوا قبل المستعمِر إلى المكان، لكن للطرفين الحق فيه)، ما يؤثر على الطريقة التي يتم ربط الأصلاني فيها بالأرض.[31]

---

[29] Veracini, Lorenzo. 2010. Settler Colonialism: A Theoretical Overview. London: Palgrave Macmillan.

[30] Ibid., 41.

[31] Ibid., 42-43.

الطريقة الأكثر علانية والتي يجري من خلالها استبدال الأصلانيين تكون عندما تدعي المجموعات المستعمِرة أنها أصلانية، وفي هذه الحالة تتعرض أصلانية الأصلانيين إلى المسح بالكامل، بما يتضمن محاولة السيطرة على السمات الثقافية للأصلانيين.[32] وفقًا لتلك الطريقتين، تتعرض أصلانية الأصلانيين إلى القمع، فيما تجري محاولة حثيثة من المستعمِر لإثبات أصلانيته.

ومع أن هذا العمل ناقش الطرق التي يجري من خلالها أصلنة المستعمِر، إلا أنه لم يوضّح، لا هو ولا أي من الأدبيات السابقة، طبيعة العلاقة بين عملية أصلنة المستعمِر وعمليتي الإنكار والتملص التي تجري بحق السكان الأصلانيين، وهذا ما ستقوم به هذه الدراسة. إضافة إلى ذلك، ستقوم هذه الدراسة بتطبيق مفاهيم الخطاب الأصلاني على الحالة الفلسطينية لتوضيح الأبعاد الاستعمارية الاستيطانية للصهيونية، ورغبتها في القضاء على السكان الأصلانيين الفلسطينيين.

منطلقات نظرية

الاستعمار والاستعمار الاستيطاني

يعتبر الاستعمار بالنسبة لأوسترهامل[33] نظام سيطرة يقوم على عملية كسب مكاني وعلى فكرة توسع مجتمع إلى أبعد من مكان سكنه الأصلي. وفق هذا المفهوم، يجادل أوسترهامبل بأن عملية الاستعمار هي علاقة تقوم على سرقة مجتمع ما من مسار تنميته التاريخية، واستغلاله من طرف خارجي دون إبداء أي رغبة للحكام الجدد في تقديم أية تنازلات ثقافية للمجتمعات التي يجري الهيمنة عليها، وبدون إبداء أية رغبة في

[32] Ibid., 46.

[33] أوسترهامل، يورغن. 1998. الاستعمار: مراجعة نظرية عامة ترجمة أبو بكر أحمد باقادر. الرياض: مؤسسة اليمامة الصحفية.

الاندماج من طرف الحكام الاستعماريين. وبالتالي وفقًا لأوسترهامبل لا يمكن النظر لعملية الاستعمار على أنها علاقة سيد بخدمه، إنما بوصفها علاقة بين أغلبية من السكان الأصليين، وأقلية من الغزاة الأجانب الذي يتخذون القرارات الأساسية من أجل تحقيق مصالحهم، بالتزامن مع ادعاءاتهم بالتفوق العرقي والرغبة في نقل الحضارة والتقدم إلى المجتمعات المتخلفة، كرسالة إنسانية للتحرر من العبودية والتخلف.

وتقسم أنواع المستعمرات بحسب فيلدهاوس[34] إلى 4 أقسام: مستعمرات عسكرية يحكم فيها المستعمِر عسكريًا فقط، ومستعمرات مختلطة لا يجري فيها فصل عرقي بين المستعمِر والمستعمَر ما يؤدي إلى انمحاء الحدود العرقية بين الطرفين، ومستعمرة مزارع يتم فيها استيراد عمال من الخارج من قبل المستعمِر، ومستعمرات الاستيطان الطاهر التي ينتمي فيها المشغّل والعامل إلى نفس الجماعة الإثنية. أما غيرشون شافير[35] فيضيف نموذجًا آخر سماه مستعمرة المزارع الإثنية والتي يسيطر فيها المستعمِر على الأرض، ويشغل عمالًا محليين، لكنه يحافظ على الحواجز الإثنية بين الطرفين.

ومهما يكن نوع المستعمرة، فإن الاستعمار يهدف من وجهة نظر فرانز فانون[36] إلى محو ثقافة وهوية السكان الأصليين عن طريق هدم وجودهم الثقافي، وإنكار واقعهم القومي، كما يسعى المستعمر إلى خلق علاقات جديدة بين المستعمَر وبين المستعمِر، عبر استعبادهم استعبادًا منظمًا.

ويميز فيرتشيني[37] بين الاستعمار والاستعمار الاستيطاني إذ يوضح أن الاستعمار يحافظ على العلاقة التي تربطه بالدولة الأم (الميتروبليتان)، لكن الاستعمار الاستيطاني يحاول محو هذه العلاقة، والقضاء عليها. من

---

[34] Fieldhouse, D. K. 1967. The colonial empires from eighteenth century. New York: Delacorte Press.

[35] شافير، غيرشون. 2009. الأرض، العمل والسكان في الاستيطان الصهيوني (جوانب عامة وخصوصية)، في كتاب: شلحت، أنطون (إعداد وترجمة). ذاكرة دولة وهوية، دراسات انتقادية حول الصهيونية وإسرائيل. رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية. ص150.

[36] فانون 2014، ص191.

[37] Veracini, Lorenzo. 2011. “Introducing.” Settler Colonial Studies 1:1, 1–12: p3.

ناحية ثانية فإن الاستعمار يحاول إعادة إنتاج نفسه داخل المستعمرة الجديدة بما يهدف إلى إنشاء دولة جديدة مستقلة مرتبطة بالدولة الأم، على عكس الاستعمار الاستيطاني الذي يحاول أن يمحو هذه العلاقة مع الدولة الأم، ورغم هذا الاختلاف فإن فيرتشيني يعترف بأن ممارسات كليهما تتشابك في كثير من الحالات، في الوقت الذي تعمل فيه أنظمة الاستعمار الاستيطاني بشكل متتال أو متزامن، مرة كاستعمار، ومرة كاستعمار استيطاني.

النقطة الأخرى المتعلقة بالفرق بين الاستعمار التقليدي والاستعمار الاستيطاني تتعلّق بالأرض، ففي الحالة الأولى، يعتمد المستعمِر على عمل السكان الأصلانيين و"استغلالهم" بغرض استخراج الموارد الطبيعية لصالح الدولة الأم، أما في حالات الاستعمار الاستيطاني يحاول المستعمِر الاعتماد على نفسه بعيدًا عن الأصلانيين بهدف التحوّل إلى أصلاني.[38]

وبالنسبة لباتريك وولف[39] فإن الاستعمار الاستيطاني هو بنية مستمرة تعيد إنتاج نفسها باختلاف الظروف، وبالتالي فهي ليست بالضرورة فعلًا عنيفًا أو إبادة جماعية، لكن الميزة الأساسية التي ترتبط به هي أنها بنية قائمة بطبيعتها على منطق الإلغاء والمحو (Elimination) بحق الأصلانيين. استهداف الأصليين وإلغائهم هنا يأتي بسبب المكان الذي يتواجدون فيه والعلاقة التي تربطهم به، لا بسبب طبيعة السكان البنيوية أو عرقهم أو دينهم، لأنه وبحسب وولف فإن إحدى اللوازم الاستعمارية الاستيطانية هو الحصول على الأرض والتوسع فيها[40] فالمشروع الاستعماري الاستيطاني هو مشروع يتمحور حول الأرض بشكل حصري، تحت

[38] Todorova, Teodora. 2015. Reframing Bi-nationalism in Palestine-Israel as a Process of Settler Decolonisation. Antipode Vol. 47 No. 5 doi: 10.1111/anti.12153, p1371.

[39] Wolfe, Patrick. 2006. "Settler Colonialism and the Elimination of the Native." Journal of Genocide Research 8,4: 386-409.

[40] Ibid., 388.

رؤية تقوم على استئصال السكان الأصليين،[41] وبينما تكون الأرض هي العنصر الأهم في الاستعمار الاستيطاني فإن الاستغلال (علاقة السيد بالعبد) هو الأهم في حالات الاستعمار الكلاسيكية.

وتلتقي تعريفات الاستعمار الاستيطاني التي يقدمها هؤلاء الباحثون مع التعريف الذي قدمه فايز صايغ[42] في محاولته لإعادة تعريف المشروع الاستيطاني الصهيوني. يجادل صايغ –الذي يعد عمله أحد أهم الأعمال التي تؤسس لتعريف حالة إسرائيل باعتبارها حالة استعمار استيطاني– بأن إقامة دولة إسرائيل جاء نتيجة مساهمة القوى الاستعمارية في زرع دولة أجنبية بين قارتي آسيا وأفريقيا، دون الحصول على موافقة أي من الدول المحيطة، بما يتضمن فرض سيادة أجنبية واستغلال مواردها ونزع الملكية. ويشير صايغ إلى أن المشروع الصهيوني يختلف عن المشاريع الاستعمارية الغربية في كونه لا ينتمي إلى دولة أم، ولا يقبل بوجود السكان الأصليين، ويهدف إلى إنشاء دولة مستقلة على عكس المشاريع الاستعمارية التي تهدف إلى الحفاظ على صلة مع الدولة الأم،[43] ما يعني أن صايغ قد وضع أسس "علم" الاستعمار الاستيطاني قبل وولف وفيرتشيني بسنوات طويلة.

الخطاب الاستعماري

يعرف تشارلز[44] الخطاب الاستعماري بأنه كل ما يصدر عن المستعمر من كلام وصور تهدف إلى تأكيد تفوق المجموعة المسيطرة، أو في تبرير ضرورة إبقاء وتخليد الهيمنة على المجموعات المسيطر عليها.

---

[41] Ibid., 393.

[42] صايغ، فايز. 1965. الاستعمار الصهيوني في فلسطين. بيروت: مركز البحوث بمنظمة التحرير الفلسطينية.

[43] المصدر السابق، ص10–12.

[44] Charles, Asselin. 1995. “Colonial Discourse Since Christopher Columbus.” Journal of Black Studies 26, 2: 134–152: p135.

صحيح أن فعاليته ليست بفعالية السلاح، لكن لا يمكن إنكار فعاليته العالية التي تأتي من أنه يسعى إلى تمكين المستعمِر من المستعمَرين، ولتجعل للغازي قدرة أكبر على السيطرة على الأصلانيين واحتلال عقولهم، حتى يتسنى للمستعمَر التماهي مع نظرة المستعمر وتبني وجهات نظره، أي لجعلهم يقبلون بوضعية التبعية وتبني قضية السيد وحقه في السيطرة عليه.[45]

والسكان الأصلانيين يصورون عادة في الخطاب الاستعماري على أنهم مجتمعات متنقلة وغير مستقرة ولا تملك جذورًا في المكان،[46] وأن المدن التي يعيشون فيها مدنًا سيئة يسكنها أناس سيئو السمعة.[47]

السكان الأصلانيون

قدّم المقرّر الخاص للأمم المتحدة للجنة الفرعية لمنع التمييز وحماية الأقليات خوسيه مارتينيز كوبو تعريفًا للجماعات الأصلانية قائلًا إن الجماعات أو الشعوب أو الأمم الأصلانية هي أولئك الناس الذين يرتبطون بروابط تاريخية مع مجتمعات ما قبل الغزو أو ما قبل الاستعمار، والذين تطوّروا بشكل منفصل ومستقل ومتمايز عن القطاعات الأخرى التي تعيش في المجتمعات الحالية على تلك الأراضي أو على أجزاء منها، والتي تشكّل اليوم قطاعات غير مهيمنة في المجتمع لكنها مصممّة على الحفاظ على هوياتها الخاصة وتطويرها وترغب في نقلها إلى أجيالها المستقبلية، وفي الحفاظ على هويتها الإثنية كأساس لاستمرار وجودها كشعوب وفقًا لأنماطها الثقافية والاجتماعية والقانونية. ويمكن أن تتألف هذه الاستمرارية التاريخية التي تصل إلى الحاضر من خلال واحدة أو أكثر من العوامل التالية:

---

[45] Ibid., 139.

[46] Wolfe 2006, 396.

[47] فانون 2014، ص 42.

1) إشغال/احتلال أراضي الأجداد أو مساحة منها.
2) الأصول المشتركة مع شاغلي هذه الأراضي الأصليين.
3) الثقافة بشكل عام أو أحد تجلياتها (مثل الدين، أو العيش في ظل نظام قبلي، العضوية في أحد المجتمعات الأصلانية، الملابس، وسائل العيش.. الخ).
4) اللغة (سواء كانت اللغة الوحيدة، أو اللغة الأم، أو طريقة الاتصال الاعتيادية في المنزل، أو اللغة المفضلة أو اللغة الطبيعية).
5) الإقامة في مناطق معينة من البلاد، أو في مناطق أخرى حول العالم.
6) عوامل أخرى مرتبطة.[48]

وعلى المستوى الفردي فإن الإنسان الأصلاني هو الإنسان الذي ينتمي إلى المجموعات الأصلانية من خلال تعريفه لنفسه كأصلاني (الوعي الجماعي) ويتم الاعتراف به وقبوله من هؤلاء السكان كأحد أعضائها (القبول من المجموعة).

بعد سحب التعريف السابق من اعتمادات الأمم المتحدة أصدرت الأمم المتحدة إعلانًا بشأن حقوق الشعوب الأصلية في العالم 2007،[49] دون أن تستخدم تعريفًا واضحًا لهذه الجماعات، وقد كان السبب وراء ذلك هو

[48] Davis, Megan. 2016. Data and the United Nations Declaration on the Rights of Indigenous Peoples in KUKUTAI, TAHU & JOHN TAYLOR. "Indigenous Data Sovereignty". Canberra: ANU Press. pp.27–28. Cited from Cobo, Jose R. Martinez. 1987. Study of the Problem of Discrimination Against Indigenous Populations, UN Doc. E/CN.4/Sub.2/1987/7/Add.4.

[49] الأمم المتحدة. 2007. إعلان الأمم المتحدة بشأن حقوق الشعوب الأصلية. (295/61)، نيويورك: الأمم المتحدة.

أن التعريفات التي وضعتها الأمم المتحدة تسببت بخلافات كثيرة، وقامت برفضه مجموعات كبيرة من مجموعات السكان الأصليين في عدد من دول العالم.[50]

على أية حال، تسقط هذه التعريفات في فخ الخطاب الاستعماري لأنها تتعامل مع الجماعات الأصلانية باعتبارها جماعات ارتكبت بحقها أخطاء تاريخية لا يمكن إصلاحها، وبالتالي تقدم الحالة الأصلانية على أنها حالة غير قابلة للتفكيك على عكس الحالة الثورية الدائمة التي يعيشها أفراد الجماعات الأصلانية.

خطاب الأصلانية

الخطاب الأصلاني هو جزء من الخطاب الاستعماري الاستيطاني –وليس الاستعماري– الذي يقوم على خلق رابطة أصلانية للمستعمِر مع الأرض، بمعنى أنه الخطاب الذي يهدف إلى تحويل المستعمِر إلى صاحب حق في الأرض المستعمَرة بأية طريقة كانت منكرًا صفة الاستعمار عن نفسه، وبهدف القضاء على العلاقة بين السكان الأصلانيين والأرض بهدف الإنكار والتملص.[51]

ويأخذ الخطاب الأصلاني أشكالًا كثيرة:

1) بطرق مباشرة: كأن يزعم المستعمِر بشكل واضح بأنه صاحب الأرض الأصلي، أو أن يقدّم الحجج التي يعتقد أنها تبرهن على أصلانيته.

[50] Kauanui, j. Kehaulani. 2014. “Indigenous” in Burgett, Bruce & Glenn Hendler (eds.), Keywords for American Cultural Studies. 2nd edition. pp133–137. New York and London: NYU Press.

[51] هذا التعريف من صياغة الباحث بالاعتماد على مفهوم "الطرد المفاهيمي" الذي يقدمه فيرتشيني، انظر Veracini 2010, 35.

2) بطرق غير مباشرة: كأن يجري التهجّم على شخصية الأصلاني[52] [53] أو على شرعية أصلانيته[54] [55] تمهيدًا لاقتلاعه من أرض وإحلال مستوطنين مكانه، ما يعني أن أي هجوم على الأصلانيين هو – بالضرورة– محاولة لأصلنة المستعمِر.

الإنكار والتملص والتهرب

إلى جانب "العنف"، يعد الإنكار أحد العناصر الأساسية المكوّنة لأي عملية استعمار استيطاني،[56] لكن ذلك، لا يعني أنه ليس عنصرًا من عناصر الاستعمار الكلاسيكي. النقطة الأساسية هنا، هو أن الإنكار يكون أكثر حدة وعنفًا في حالات الاستعمار الاستيطاني، لأن الأخير يقوم على الإنكار الكلي للتاريخ، عبر مسارين؛ الأول: إنكار تاريخ المستعمِر في بلاده الأصلية، واعتباره تاريخ اضطهاد، والثاني: إنكار تاريخ المستعمَر، باعتبار أرضه أرضًا غير مأهولة بالبشر.[57]

أما التملّص (evasion or disavowal)، كما تعرّفه تودروفا، فهو أحد الخصائص الرئيسية لعلم النفس الاستيطاني، وهو يشمل التنصل من أية مسؤوليات متعلقة بالاستعمار أو متواطئة معه، كما يشمل هذا المفهوم إنكار القيام بأي نوع من أنواع العنف ضد السكان الأصلانيين، والتركيز على براءة المستوطنين والمعاناة الدائمة لهم إضافة إلى مساهمتهم البارزة في الأرض والعمل عليها.[58] فمثلًا تقوم إسرائيل بربط

---

[52] من الأمثلة على ذلك، اتهامه بالتخلف والرجعية مثلًا، أو فقدان الأمل بإمكانية نقل الحضارة إليه.

[53] Veracini 2010, 41.

[54] من الأمثلة على ذلك، محاولات تحويل الأصلاني إلى مستعمِر، أو إلى لا–أصلانيين exogenous أو خارجيين.

[55] Veracini 2010, 42–43.

[56] Veracini, Lorenzo. 2008. Settler Collective, Founding Violence and Disavowal: The Settler Colonial Situation, Journal of Intercultural Studies, 29:4, 363–379, DOI: 10.1080/07256860802372246

[57] المسيري، عبد الوهاب. 2000. الصهيونية: نحو تعريف أكثر تفسيرية 2– استعمار استيطاني إحلالي. مجلة شؤون عربية، 103: ص109–110.

[58] Todorova 2015, p1370.

مفهوم الاستعمار بالامبراطورية البريطانية، وليس المستوطنين الصهاينة، كما تنكر مسؤوليتها عن تهجير اللاجئين الفلسطينيين خلال أعوام 1947-1949.

ومن هنا، يمكن اعتبار أن الإنكار والتملص هما وسيلتان دفاعيتان ينتهجهما المستعمِر لإخفاء القمع الذي يمارسه بحق الأصلانيين، والتهرّب من المسؤولية الواقعة عليه نتيجة ذلك.

أهمية استعمال إطار الاستعمار الاستيطاني لدراسة الحالة الصهيونية في فلسطين

يقوم بعض الباحثين بدراسة ما يسمى "الصراع الفلسطيني الإسرائيلي" من خلال مجموعة من الأطر الفكرية والمفاهيمية. ويبدو أن أبرز هذه الأطر هي: الصراع الطبقي وفقًا لمفاهيم ماركس،[59] والإثنية القومية، التي ترى في الصراع صراعًا بين إثنيتين/قوميتين مختلفتين تعيش في مكان واحد،[60] أو حتى من خلال بعض الأطر التي ترى فيه صراعًا سياسيًا فحسب، أو أمنيًا فحسب. ويظهر في كثير من المواضع ضعف هذه الأطر النظرية، خاصة أن مصطلح "الصراع" يساوي بين مستعمِر ومستعمَر، بين مغتِصب ومغتصَب، لذا كان البديل هو نموذج الاستعمار الاستيطاني الذي يضمن عدم تفتيت شخصية الأصلانية أو تدمير هويته وثقافته. في هذا الشأن، كتبت آني دي يونغ أن الصهاينة الأوائل قد تعمدوا التركيز على استخدام مصطلح "الصراع الثنائي" رغبة في مواجهة الاتهامات المعاكسة بالغزو والاستعمار الاستيطاني،[61] ورغبة في حشد

---

[59] انظر مثلًا: Samara, Adel and Masad Arbid. 2003. The Israeli—Arab Conflict: Towards a Socialist Solution A conference paper: "Karl Marx in the 21 Century" – Havana, Cuba http://www.nodo50.org/cubasigloXXI/congreso/samara_10abr03.pdf (last accessed 29/7/2017)

[60] انظر مثلًا: يفتحائيل، أورن. 2012. الإثنوقراطية: سياسات الأرض و الهوية في إسرائيل/فلسطين. رام الله: مدار، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية.

[61] Jong, Anne de. 2017. Zionist hegemony, the settler colonial conquest of Palestine and the problem with conflict: a critical genealogy of the notion of binary conflict, Settler Colonial Studies, DOI: 10.1080/2201473X.2017.1321171 p5

دعم حلفاء أقوياء، وتهذيب سردية وهوية الفلسطينيين وتحويلهم إلى عدو مجهول الهوية،[62] أي في المحصلة، بهدف الإلهاء الأيدولوجي[63] عبر إخفاء ثنائية المستعمِر والأصلاني،[64] وتحويله إلى صراع ثنائي بين طرفين متكافئين.[65]

على أية حال، لم يكن استخدام "الاستعمار الاستيطاني" كإطار لدراسة النظام الاستعماري الصهيوني في فلسطين جديدًا لدى أعمال الباحثين العرب،[66] لكنه ومنذ زمن بعيد، افتقر إلى الأسس العلمية والمفاهيمية لتشريح مفهوم الاستعمار الاستيطاني وتحديد تعريفاته. وعلى إثر استقلال حقل الدراسات الاستعمارية الاستيطانية عن حقل الدراسات الاستعمارية، برزت الدعوات[67] –من جديد– إلى إعادة موضعة الاستعمار الاستيطاني كإطار تحليلي ونقدي للحالة الاستيطانية الاستعمارية الصهيونية لفلسطين لأنه يطوّر فهمًا أفضل وأوسع للحالة الصهيونية.

إن مبادئ هذا النموذج التي وضعها عدد من الباحثين على رأسهم باتريك وولف[68] تتضمن أن الاستعمار الاستيطاني بنية وليس حدثًا،[69] ويقوم على مبدأ إلغاء (eliminate) السكان الأصلانيين[70] الذي قد يأخذ

---

[62] Ibid., p9.

[63] Ibid., p3.

[64] Ibid., p3.

[65] Ibid., p10.

[66] انظر مثلًا: المسيري، عبد الوهاب. 2000. الصهيونية: نحو تعريف أكثر تفسيرية 2– استعمار استيطاني إحلالي. مجلة شؤون عربية، 103. صايغ، فايز. 1965. الاستعمار الصهيوني في فلسطين. بيروت: مركز البحوث بمنظمة التحرير الفلسطينية. مسعد، جوزيف. 2009. ديمومة المسألة الفلسطينية: حول الصهيونية والحركة الوطنية الفلسطينية. بيروت: دار الآداب.

[67] انظر مثلًا غطاس، باسل. 2017. قراءة في واقع فلسطينيي الداخل وضرورة تجديد المشروع الوطني، موقع عرب48 https://goo.gl/jUd2kX، و Salamanca, Omar Jabary, Mezna Qato, Kareem Rabie & Sobhi Samour. 2012. Past is Present: Settler Colonialism in Palestine, Settler Colonial Studies, 2:1, 1–8, DOI: 10.1080/2201473X.2012.10648823

[68] Wolfe, Patrick. 1999. "Settler colonialism and the transformation of anthropology: the politics and poetics of an ethnographic event". London: Cassell; Wolfe 2006.

[69] Wolfe 1999, 163.

[70] Wolfe 2006.

أشكالًا كثيرة، إضافة إلى أن محور العملية الاستعمارية هو الأرض وليس استغلال الأصلانيين،[71] في الوقت الذي جاء المستعمِر ليبقى وليتوسّع، لا ليرحل،[72] وجاء "يدمّر" لـ"يحل مكان".[73] إضافة إلى ذلك، تقوم مبادئ الاستعمار الاستيطاني على إنكار أصلانية الأصلاني ونسبها للمستعمِر.

إن تصنيف المشروع الصهيوني خارج إطار هذه المنظومة من شأنه أن يقدم فهمًا مغلوطًا لممارسات المشروع الصهيوني تجاه الأصلانيين الفلسطينيين، لأنه يقدّمها على أنها مجموعة من الأحداث المستقلة، دون إدراك البنية الحقيقية التي تحكم سير هذه الأحداث. وفقًا لذلك، تصبح النكبة مجرد حدث تاريخي، كما تصبح مصادرات إسرائيل الأراضي من الفلسطينيين عام 2017 حدثًا عاديًا، دون أن ترى رابطًا بينهما. كما يصبح تحليل هذه الممارسات كما لو أنه نشأ ضمن سياقات معينة وليس ضمن منظومة بنيوية كاملة، كما يظهر في عدد كبير من الأدبيات التي حاولت معالجة نتائج الاستعمار وليس بنيته. إن الحل يكمن في التفسير الذي يقدّمه النموذج الاستعماري الاستيطاني والذي يرى أن نظريات الاستعمار الكلاسيكية عاجزة عن تفسير بعض الظواهر الاستعمارية، خاصة تلك التي لا تبتغي "استغلال" السكان الأصلانيين، وإنما "استبدالهم/إلغاؤهم". ويرى هذا النموذج أن النقص الذي يعتري نظريات الاستعمار الكلاسيكية يُظهر عجزها عن تحليل وفهم بعض حالات الاستعمار في بعض الدول مثل أستراليا، وبالتالي فهو يقدّم نفسه كإطار يُسهم في تقديم أجوبة مقنعة فيما يتعلّق بمثل هذه الحالات.

في الواقع، إن أهم ميزة لتوصيف المشروع الصهيوني في فلسطين على أنه مشروع استيطاني استعماري هي أنه قد يُقدّم مجموعة من الأطر لفهم المشروع الصهيوني، وفهم ممارساته على الأرض، الأمر الذي يهيئ

---

[71] Wolfe 1999, 163.

[72] Wolfe 2006, 388.

[73] Wolfe 2006, 388.

مناخًا ملائمًا للتصدي له من خلال التصدّي للبنية ككل، وليس للممارسات وحدها. ومن هنا، يمكن لنا أن نفهم دولة إسرائيل كما هي فعلًا: دولة استعمار استيطاني قائمة على مزاعم الأصلانية.

وإضافة إلى فهم المشروع الصهيوني وممارساته، يقدّم لنا هذا الإطار النظري نموذجًا ينتزع مصداقية "فرادة" المشروع الصهيوني من خلال وضعه إلى جانب المشاريع الاستعمارية حول العالم، وإجراء مقارنات مع حالات استعمارية أخرى مثل جنوب أفريقيا، والولايات المتحدة، في محاولة لمواجهة الخطاب الصهيوني الذي يحاول وضع الدولة الاستعمارية إسرائيل في مصاف الديمقراطيات الأوروبية المعاصرة.[74] ومن هنا، يصبح من المهم النظر إلى الخطاب الصهيوني باعتباره بنية مشابهة لبنى الخطابات الاستعمارية الأخرى، والذي يقوم بالأساس على إنكار وجود علاقة بين الأصلانيين وأرضهم، ونسبها للمستعمِر.

ورغم أن هذا النموذج كان موجّهًا بالأساس لحالات الاستعمار الاستيطاني في أستراليا والولايات المتحدة وكندا، إلا أن استخدامه فلسطينيًا يُسهم في تسليط الضوء على القضية الفلسطينية باعتبارها حالة موازية للسكان الأصلانيين في الحالات الاستعمارية الأخرى، لكن خطورة هذه الأقوال تكمن في بعض المزاعم بأن بنية الاستيطان الاستعماري بنية غير قابلة للتفكك، وبالتالي، فكما انتهت –تقريبًا– قضية السكان الأصلانيين في أمريكا باعتبارها خطأ تاريخيًا قديمًا بحقهم، يمكن القول بأن الأصلانيين الفلسطينيين لا يمكن أن يحققوا استقلالهم أو أن يفككوا المشروع الصهيوني، وهذا مكمن الخطر الحقيقي.

ووفق هذه المعادلة، ووفق أسس الاستعمار الاستيطاني كما يعرّفها النموذج، يُسهم استخدام النموذج في تبيان أن الحالة الوحيدة التي يمكن من خلالها للأصلانيين الفلسطينيين تفكيك الاستعمار هي تفكيك بنية النظام

[74] Salamanca et all. 2012, p4

الاستعماري ككل، لأن المستعمِر ببساطة، لا يمكن أن يقبل بوجود الأصلاني على الأرض، وهو ما يعني أن استخدام هذا النموذج يقدّم حلولًا عملية لإنهاء حالة الاستعمار الصهيونية.

إن أحد التطبيقات على الحلول العملية التي يقدمها هذا النموذج هي أنه يقدم لنا فضاءات وأزمنة مختلفة فيما يتعلق بقضية تسلسل الفكرة الكولونيالية (الكولونيالية يتبعها ما بعد الكولونيالية)، فمثلًا يأتي إعلان "استقلال" إسرائيل عام 1948 في محاولة من الصهيونية للزعم بأن مرحلة الكولونيالية انتهت، وأن مرحلة ما بعد الكولونيالية قد بدأت، رغم أن الفلسطينيين لا زالوا يعيشون في حقبة كولونيالية، بفعل ممارسات الصهيونية.[75] في نموذج الاستعمار الاستيطاني لا يوجد ما هو "ما بعد استعماري" ما لم تنتهي بنية هذا الاستعمار، الأمر الذي يقدم أداة لعدم الوقوع في فخ خطاب الصهيونية الذي يفترض بأنها تخلصت من الكولونيالية. بذلك، لن ينخدع الفلسطيني أو حتى غير الفلسطيني قائلًا إن الاستعمار قد انتهى مع إعلان "الاستقلال" أو أن هناك استعمارًا داخليًا فقط، بل يوضح لنا هذا النموذج أن الاستعمار نفسه لا زال قائمًا ما دامت البنية قائمة.

من ناحية ثانية، إن هذا التوصيف يساهم في تكرار القول إن الفلسطينيين هم سكان أصلانيون، وأن الدراسات المتعلقة بهم يجب أن تكون ضمن مصافّ دراسات الجماعات الأصلانية حول العالم،[76] وناطقة باسمهم لا باسم مستعمِرهم.

إن من شأن مثل هذا النموذج أن يقدّم أداة سياسية قوية من أجل إنشاء تحالفات تضامنية مع الجماعات الأصلانية حول العالم، والاستفادة من خبراتها في النضال ضد الاستعمار ومحاولاتها تفكيكه، الأمر الذي

[75] مسعد، جوزيف. 2009. ديمومة المسألة الفلسطينية: حول الصهيونية والحركة الوطنية الفلسطينية. بيروت: دار الآداب. 38.

[76] Salamanca et all. 2012, p4.

يوسّع من مجال الأدوات التي يمكن للفلسطينيين، والمتضامنين معها، أن يستخدموها في نضالهم ضد الاستعمار، إلى جانب إعادة ربط هذا النضال بتاريخه المعادي للكولونيالية العالمية والامبريالية.[77]

وبما أن تفكيك الاستعمار بالأساس فعل عنيف،[78] فإن هذا النموذج يقدّم أداة حيوية للأصلاني من حيث قدرته على توضيح أن الاستعمار الاستيطاني لا يقبل القسمة على اثنين، وبالتالي فإن الحل الوحيد لتفكيكه هو بالضرورة فعل عنيف (ثقافيًا، اجتماعيًا، سياسيًا)، الأمر الذي يقطع الشك باليقين بالنسبة للأصلاني الذي يبحث عن تحرّره، فإما أن يستسلم للمستعمِر، وينتهي إلى الأبد، أو أن يقاوم العنف بالعنف، وينتصر. وبالتالي يلعب هذا النموذج، دورًا في تسليط الضوء على فكرة استحالة "العيش المشترك" بين الفلسطينيين والإسرائيليين، بغض النظر عن الانتماءات الفكرية للقادة الصهاينة الذين يطلقون مثل هذه التصريحات. إن هذا من شأنه أن يقول أنه لا إمكانية للعمل مع قادة إسرائيليين "يساريين" مثلًا، بدلًا من اليمينيين. نقطة إضافية متعلقة، هي أن التعامل مع الصهيونية على أنها مشروع غربي –كما فعل فايز صايغ– أو غرب أوروبي يعني أنه لا فائدة من الجهود التي تبذل بهدف جلب الدعم المادي والمعنوي من العالم الغربي (الأمريكي تحديدًا) لأن الصهيونية مشروع غربي بالأساس.

ولكن بدون إجراء تغييرات على أرض الواقع وفقًا لهذا النموذج، يحذّر سلامنكا وآخرون[79] من أن مثل هذا النموذج قد يتحول إلى مجرد نموذج وصفي عاجز عن التحوّل بعيدًا عن العاطفة، إلى الاستراتيجية.

---

[77] Ibid., p5.

[78] فانون 2014.

[79] Salamanca et all. 2012, p4.

إن هذا النموذج بشكل أو بآخر يقدّم لنا دليلًا على أن تفكيك الخطاب الأصلاني الصهيوني يتضمّن بالضرورة كشفًا للمبادئ الصهيونية التي تقوم على إنكار المسؤولية عن مسؤولية الأحداث التي يرتكبها، وبالتالي مواجهتها عبر فضح خلفيات خطابها الأصلاني، وتعريته.

ومن هنا، ورغم أن الكثير من الأدبيات ناقشت قضايا الاستعمار الاستيطاني، إلا أن عددًا منها أحجم عن تصنيف إسرائيل داخل هذه المنظومة خاصة مع بدايات ظهور شبكة دراسات الاستعمار الاستيطاني ومجلة دراسات الاستعمار الاستيطاني. إن وضع إسرائيل والصهيونية ضمن مصافّ دراسات الاستعمار الاستيطاني ودراسات السكان الأصلانيين من شأنه أن يوضّح بأن إسرائيل حالة مشابهة لحالات الولايات المتحدة وكندا وأستراليا وغيرها من حالات الاستعمار الاستيطاني.

الخطاب وعلاقته بالسلطة

يذكر عبد الوهاب المسيري[80] أن الخطاب بمعناه المعجمي هو "كل كلام تجاوز الجملة الواحدة سواء كان مكتوبًا أو ملفوظًا." ولكن وبما أن للكلام دلالات غير ملفوظة فقد عرّف الخطاب بأنه "نظام من القول له قواعده وخواصه التي تحدّد شكل الجمل وتتابعها، والصور المجازية، والخواص اللفظية، ونوع الأسئلة التي تسأل، والموضوعات الأساسية الكامنة، وما يقال، وما يسكت عنه، أي أنها تحدّد الاستدلالات والتوقّعات الدلالية."

[80] المسيري، عبد الوهاب. 2003. في الخطاب والمصطلح الصهيوني دراسة نظرية وتطبيقية. القاهرة: دار الشروق، ص39

والخطاب بتعريف ستيوارت هول[81] مجموعة من التصريحات أو المعتقدات التي تنتج المعرفة التي تخدم مصالح فئة أو مجموعة معينة، وبالتالي فهو ليس بريئًا من التحيزات المعرفية، فالمعرفة التي ينقلها الخطاب ليست محايدة كما يبدو من ظاهرها.[82]

إن إنتاج الخطاب بالنسبة لميشيل فوكو[83] في أي مجتمع هو إنتاج مراقب، ومنتقى، ومنظم، وهو مرتبط بعنصرين أساسين: هما الرغبة، والسلطة: الرغبة في قول شيء ما، والخوف من السلطة. ويتوصل فوكو من خلال ذلك إلى نتيجة مفادها أن الخطاب هو ممارسة أيديولوجية ترتبط بالصراعات وهي شكل من أشكال الهيمنة.[84] إذًا الخطاب هو سلطة.[85] وبالنسبة لفوكو فإن الخطاب هو حامل السلطة ومنتجها،[86] لأنه يحتوي آليات سلطوية تمكنه من الهيمنة، ومن إنتاج ممارسات خاصة به.[87]

ما يهمنا هنا، هو أن الخطاب الاستعماري هو أحد تمثّلات هذه الهيمنة التي يجري توظيفها من قبل السلطة، ومن أجل بناء المعرفة بما يتوافق مع آراء السلطة.

لذلك، ليس للخطاب عادة علاقة بمسألة الصواب والخطأ، أو الحقيقة والباطل، لأن الخطاب هو قوة وليس حقائق على أرض الواقع، الأمر الذي يجعل الأشياء "حقيقية"، وهذا يعني أن السلطة تنتج المعرفة.[88]

---

[81] Hall, Stuart. 1992. The West and the Rest: Discourse and Power in Hall, Stuart and Bram Gieben (eds.) The Formations of Modernity: Understanding Modern Societies an Introduction Book 1 (pp185-225). Oxford: Polity in association with Open University: 202.

[82] المسيري، 2003، ص 39.

[83] فوكو، ميشيل. 1984. نظام الخطاب. ترجمة محمد سبيلا. بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر: ص8-9.

[84] الحميري، عبد الواسع. 2008. الخطاب والنص: المفهوم، العلاقة، السلطة. بيروت: مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. ص105.

[85] المصدر السابق، ص185.

[86] المصدر السابق، ص186.

[87] المصدر السابق، ص187.

[88] Hall 1992, 203.

ولذلك يرى غرامشي[89] أن القوة الأساسية التي تسهم في تسيير المجتمعات هي قوة الثقافة التي لها القدرة على الهيمنة على المجتمع. والهيمنة ليست بالضرورة قوة مادية، وإنما قد تكون هيمنة على الوعي وعلى الإدراك، من خلال محاولة رسم صورة معينة للآخر بهدف إخضاعه للهيمنة.[90]

الخطاب الصهيوني

إن فهم وتحليل الخطاب الصهيوني من شأنه أن يوصل إلى فهم أفضل للعدو الصهيوني ومصطلحاته التي بنى عليه خطابه الاستعماري، ما يعطينا قدرة أكبر على تفسير الظواهر والممارسات الصهيونية، وقدرة أكبر على تجهيز أنفسنا للتصدي لها.[91]

[89] Gramsci, Antonio. 1971. Selections from the prison notebooks of Antonio Gramsci. edited and translated by Quintin Hoare and Geoffrey Nowell Smith. London: Lawrence & Wishart, pp57-58

[90] Ibid., 53.

[91] المسيري 2003، 7.

الفصل الأول: بنيامين ثيودور هيرتسل

يعد ثيودور هيرتسل الأب الروحي والمؤسس الأول للصهيونية العالمية باعتبارها حركة استعمارية عارضت فكرة اندماج اليهود في أوطانهم الأصلية، ودعتهم للهجرة إلى فلسطين زاعمة أن لليهود فيها حقوق تاريخية ودينية.[92]

في هذا القسم من البحث، سأقوم بتحليل نصيين أصليين كتبهما هيرتسل بنفسه، محاولًا بذلك أن أستكشف طبيعة الخطاب الذي رسمه هيرتسل حول أصلانية اليهود في أرض فلسطين. العملان هما أرض قديمة جديدة،[93] ودولة اليهود.[94] هذان النصان هما من ضمن النصوص التأسيسية للفكرة الصهيونية، ولذلك فمن المهم تتبع خطاب الأصلانية فيهما، لما يمكن أن ينتج عن ذلك من فهم لطبيعة الخطاب الذي تبنته الصهيونية بشكل عام، ودولة إسرائيل بشكل خاص، فيما يتعلق بالتصور الذي يربط هذه الأرض باليهود.

رواية أرض قديمة جديدة كما ورد في مقدمة الرواية التي كتبها ميخائيل آساف هي رواية كتبها هيرتسل قبل وفاته بعامين، أي في العام 1902، وهي رواية تقوم على تصور فلسطين كما ستبدو عليه بعد 25 سنة من النشاط الصهيوني. وقد ورد أيضًا بأن نشر الرواية بالعربية يأتي ليظهر للعرب النوايا الحقيقية التي كان يضمرها زعماء الصهيونية تجاه سكان فلسطين العرب.[95]

أما كتاب دولة اليهود فهو الكتاب الذي وضعه هيرتسل عام 1895 ليصف طبيعة الدولة التي يتخيلها كحل لـ"مسألة اليهودية" لأنها تقوم بالأساس على رفض فكرة الذوبان في المجتمعات الأوروبية، وهذا الكتاب أيضًا

---

[92] كامل، مجدي. 2008. زعماء صهيون وثائق صور واعترافات. دمشق – القاهرة: دار الكتاب العربي. ص11.

[93] هيرصل، بنيامين زئيب ثيودور. 1968. أرض قديمة جديدة ألطنويلاند. ترجمة مئير حداد. تل أبيب: دار النشر العربي.

[94] هيرتزل، تيودور. 1997. دولة اليهود: محاولة لإيجاد حل حديث للمسألة اليهودية ترجمة مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.

[95] آساف، ميخائيل (مقدمة). 1968. هيرصل، بنيامين زئيب ثيودور. رواية أرض قديمة جديدة ألطنويلاند. ترجمة مئير حداد. تل أبيب: دار النشر العربي. ص6.

يقوم على تصورات مستقبلية لما يمكن أن تتضمنه دولة اليهود المتخيلة بما يبلور الفكرة الصهيونية السياسية المعاصرة بشكل كامل.[96]

في صورة المكان / الحيز

إن صورة المكان / الحيز الفلسطيني أي أرض إسرائيل كما يتصورها هيرتسل في رواية أرض قديمة جديدة قبل وبعد النشاط الصهيوني تكشف عن النظرة التي يحملها هيرتسل تجاه السكان الفلسطينيين الذين يدعوهم هيرتسل عربًا، والصفات التي يحملونها:

> لقد أبقت يافا في نفسيهما انطباعًا غير مستحب، إن موقعها على ساحل البحر اللازوردي يخطف الأبصار حقًا، إلا أن كل ما فيها كان مهملًا إلى درجة تبعث على الرحمة. كان الصعود في الميناء الحقير صعبًا مضنيًا، الأزقة مليئة بالروائح الكريهة، قذرة، مهملة – وحيثما كنت تتجه ببصرك– لا ترى غير الفقر الذي عرفه الشرق. أتراك فقراء، عرب جياع ويهود فزعون قاعدون عن العمل، كلهم كسالى فقراء فاقدو الأمل، ورائحة العفونة، كرائحة القبور، تكتم الأنفاس.[97]

بهذه الكلمات المشبعة بالخطاب الاستعماري، تبدو صورة فلسطين وسكانها في مخيلة هيرتسل قبل بدء النشاط الصهيوني فيها مليئة بالقذارة والإهمال ومنفرةً للزائر أو للمقيم. ومن خلال تلك الصورة يبدو المكان / الحيز غير قابل للحياة، لأنها مليئة بالروائح العفنة والفقر والصفات التي يراها مرتبطة بالشرق. ويبدو سكان المدينة الفلسطينية يافا كأنهم أتراك فقراء، وعرب جياع، لا فلسطينيون يحاولون أن يقيموا حضارة، وهم كسالى فاقدون للأمل، لا نشيطين ولا يملؤهم الحماس.

---

[96] كامل 2008، ص 12–13.

[97] هيرصل 1968، ص43.

في الواقع، لم يعترف هيرتسل بأن سكان فلسطين كانوا فلسطينيين، وكان مصرًّا على أنهم عرب، وأتراك بما تحمله هذه اللغة من استشراق –بمفهوم إدوارد سعيد[98]– واضح، فهذا الشرق بالنسبة لهيرتسل قذر ومهمل وسكانه من الكسالى، أما الغرب الذي ينحدر منه المستعمرون فهو متحضر ويحمل في طياته الحداثة والتقدم، ولذلك فقد كان يرى هيرتسل بأن دولته المتخيلة ستشكل الحاجز الذي يفصل الشرق عن الغرب:

> وإذا فرضنا أن جلالة السلطان سيعطينا فلسطين، فسنستطيع في المقابل أن نتولى إدارة المالية التركية بأسرها. وعلينا أن نشكل هناك جزءًا من السور الأوروبي ضد آسيا، ومحفزًا أماميًا للحضارة بوجه البربرية. وعلينا كدولة محايدة أن نظل على اتصال بأوروبا برمتها والتي سيكون عليها أن تضمن وجودنا.[99]

يتابع هيرتسل:

> وغادرا المدينة [يافا] بقطار متداع إلى أورشليم. وفي هذه الطريق كذلك لم يريا غير مناظر اضمحلال رهيب، فأراضي السهل كلها تقريبًا رمال ومستنقعات والحقول البائسة بدت وكأن النار قد التهمتها.. قرى عربية بدائية بسكانها من الفقراء.. أطفال يلعبون بتراب الشوارع وهم عراة، وفي الأفق تبدو جبال يهودا الجرداء... باستثناء آثار قليلة لحضارة الماضي أو الحاضر.[100]

إن النظرة التي يحملها هيرتسل للمدن والقرى الفلسطينية تقوم على ربط مستمر بين العرب (غير الفلسطينيين) مع الفقر والجهل والتخلف، بعيدًا عن الحضارة، تمهيدًا للتغيير الذي سيطرأ على المكان بمجرد استعماره من الحركة الصهيونية.

---

[98] سعيد 1995.

[99] هيرصل 1968، ص49.

[100] هيرصل 1968، ص43.

وتبدو صورة مدينة يافا وكافة المناطق المحيطة بها في قمة الانحطاط القاسي، الذي يجعل منها مدينة لا تصلح للعيش، أما أراضي فلسطين فتبدو شاحبة ومقفرة وجرداء، ومليئة بالمستنقعات والحقول البائسة التي تشي بضعف خصوبة الأرض نتيجة الإهمال الذي لاقته من سكانها الأصليين.

نفس الصورة تتكرر عندما يبدأ هيرتسل بالحديث عن مدينة القدس التي يسميها أورشليم:

> وكان منظر أورشليم في ضوء النهار أقل من ذلك سحرًا. ففي أزقتها الضيقة التي تعلوها طبقة الطحلب ترتفع الصرخات والروائح الكريهة. وهناك الكثير من مختلف الألوان وخليط من البائسين: شحاذون مرضى، أولاد جياع، نساء يرفعن عقيرتهن بالصياح، وباعة متجولون تتعالى أصوات صياحهم. إن أورشليم ذات الماضي المجيد لم يكن في الإمكان أن تنحدر إلى أحط من هذا.[101]

المدينة الفلسطينية في عيني هيرتسل، لا تبدو إلا وكأنها مدينة مقفرة، تجتمع فيها كل الصفات التي من شأنها أن ترسم لها صورة بائسة، وفي الوقت نفسه، يحاول هيرتسل أن يربط باستمرار بين حاضر هذا المكان، وماضيه الذي يظهر بأبهى صوره قبل خروج اليهود منه قبل حوالي 2000 عام. وهذا إن دل على شيء في نظر هيرتسل، فإنه يدل على إهمال السكان الأصليين (الفلسطينيين) للمكان.

على امتداد فقرات رواية هيرتسل، يبدو السكان الأصليون في المكان على أنهم عقبة في وجه تقدم المشهد العام للمدينة الفلسطينية والمكان فيها، وهم يسهمون في جعل المدن الفلسطينية مدنًا شاحبة لا تصلح للعيش. ويعبر هذا الوضع، في نظر هيرتسل، عن نتاج ألفي عام من سيطرة غير اليهود على المكان، الذين لا يجيدون فن التعامل مع المشاهد الحضرية.

---

[101] هيرصل 1968، ص45.

إن هذه النظرة تجاه السكان الأصليين –بالنسبة لهيرتسل– تجردهم من أحقية التواجد في المكان، وبما أن اليهود كانوا هنا –بالنسبة له أيضًا– قبل ألفي عام وأحسنوا بناء حضارة، فهم يستحقون التواجد مرة أخرى في المكان، أما أولئك الذين تبعوهم من غير اليهود وأساءوا استخدام المكان فهم لا يستحقون العيش هنا، كما يرى.

ورغم أن الأحداث تتم قبل الاستيطان اليهودي إلا أن هيرتسل يستمر في تسمية بعض المناطق بأسماء يهودية توراتية قديمة، رابطًا بين الأماكن على الأرض، والكتاب المقدس:

> وقد رأيا ريشون لصيون، ورحوبوت، وغيرهما من المستوطنات التي كانت منتشرة كالواحات في وسط محيط قاحل ... لقد رأيا حقولًا محروثة جيدًا، وكرومًا مزدهرة وبيارات مثقلة بالتمر.[102]

تقتصر تعبيرات الجمال وحسن المظهر التي تدل على جمال المدن عند هيرتسل على المستوطنات اليهودية في المكان، فاليهود يجيدون تحويل المناطق القاحلة إلى واحات مثمرة، وهم بذلك يسهمون في إصلاح ما أفسده غير اليهود منذ ألفي سنة في المكان، وتحويله إلى مكان لائق للحياة، ومكان مزدهر، كما يرى. لقد كتب الشاعر البريطاني روديارد كيبلنغ عام 1899 قصيدة بعنوان عبء الرجل الأبيض، وهي قصيدة تدعو الرجل الأبيض –إبان الحرب الأمريكية الفيليبينية– أن يضطلع بدوره وواجبه تجاه الأمم المتخلفة، والعمل على تخليصها من رجعيتها ومن بدائيتها. لقد تحول هذا المصطلح "عبء الرجل الأبيض" إلى أيقونة يحملها المستعمِر ويتوجه بها إلى المستعمَر وإلى العالم، محاولًا أن يدعي أن استعماره إنما جاء خدمة للإنسانية وفي سبيل إصلاح ما أفسده الآخرون. يحمل هيرتسل هذا العبء على ظهره إلى فلسطين، ويحول به فلسطين إلى جنة خضراء، كما تظهر حين يعود بطلا الرواية إلى فلسطين بعد عشرين عامًا من زيارتهما الأولى.

---

[102] هيرصل 1968، ص48.

بعد أكثر من عشرين عامًا، وبعد سنوات من الاستيطان اليهودي يحدث التحول الساحق في المكان، فتتحول المدينة الفلسطينية إلى مكان مزدهر، و"كأن يدًا ساحرة ألقيت في المكان"،[103] بدل الخواء الذي كان به المكان قبل 20 سنة، ووسط المدن الأوروبية المتحضرة يمكن أن تجد الصينيون والفرس والعرب في الشوارع والأماكن العامة ذات الطابع الأوروبي،[104] وهو مشهد يختلف عن المشاهد التي كانت هنا قبل عشرين عامًا. وهو مع ذلك يستمر بتسمية بعض المناطق بأسمائها التوراتية العبرية، مثل بيت شآن،[105] وغيرها.

العجيب في الأمر أن هيرتسل يقتصر في إلقائه بالصفات السيئة على الفلسطينيين، فهو يقول:

> ومع هذا قررت أن أمضي نصف يوم في بيروت للتعرف على هؤلاء الناس الممتازين.[106]

بما أن بيروت تقع خارج حدود مستعمرته المتخيلة، فإن سكانها ممتازون، أما كل المتواجدون داخل حدود مستعمرته المستقبلية، فهم شحاذون مرضى وجياع.[107] يظهر هنا أن هيرتسل يوجه خطابه نحو الفلسطينيين بشكل خاص، ورغم أنه يستخدم كلمة العرب إلا أنه غفل عن أن البيروتيين هم عرب أيضًا.

في صورة الأصلاني المتخيَلة عند المستعمِر

تبدو صورة "رشيد بك" في الرواية مثالًا على صورة المستعمَر من وجهة نظر المستعمِر، أو بالطريقة التي يرغب المستعمِر بها أن يرى ضحيته، فرشيد بك مسلم يعيش في أرض فلسطين ضمن نمط حياة عصري أوروبي، "كان أبوه قد فهم فوائد الهجرة اليهودية، فاندمج في النشاط الاقتصادي لها، وأصبح غنيًا بفضل

---

[103] هيرصل 1968، ص57.
[104] هيرصل 1968، ص59-60.
[105] هيرصل 1968، ص167.
[106] هيرصل 1968، ص166.
[107] هيرصل 1968، ص166.

ذلك."[108] ووجود العربي في المكان لا يكون بوصفه ساكنًا أصليًا في البلاد، إنما بوصفه جزءًا عابرًا من المجموعات التي تعيش في المكان، وتساهم إلى جانب اليهود في تطوير المكان.

لذلك يجيب رشيد بك على سؤال عن "انهدام مكانة سكان بلاد إسرائيل القدامى" بسبب الهجرة اليهودية قائلًا:

> لقد كان هذا الأمر بركة لنا جميعًا، وفي الطليعة طبعًا، أصحاب الأملاك الذين باعوا أراضيهم بأسعار عالية للمجتمع اليهودي، أو الذين حافظوا على أراضيهم في انتظار أسعار أعلى، فأنا بعت الأراضي لمجتمعنا الجديد، وعلى هذا فقد وجدت خيرًا عميمًا.[109]

هكذا يريد هيرتسل من السكان الأصليين أن يروا المجتمع الاستعماري الجديد، أي كنعمة لكل العرب الذين لم يحسنوا التصرف في الأراضي التي امتلكوها، وأن يروا أنهم استفادوا من الاستيطان اليهودي إلى حد كبير، فهذا المشروع الاستيطاني ليس استعمارًا يهدف إلى القضاء الجسدي على السكان الأصليين بل إلى دمجهم في المجتمع الجديد. يبدو أن هيرتسل يغفل أن دمج السكان الأصليين هو في حقيقته إلغاءً لهم وقضاءً عليهم وإحلالًا لآخرين بدلًا منهم.[110] من ناحية أخرى، يمكن النظر إلى أقوال رشيد بك كاعتراف من المستعمَر بجدوى وأهمية المستعمِر، ضمن صورة معينة رسمها المستعمِر بنفسه وفرضها على المستعمَر.

ورشيد بك باعتباره الصورة الأفضل للمستعمَر لا يرى في المستعمِر لصًا ولا سارقًا، وعليه (أي المستعمَر) أن يرى أن الإنسانية التي تربط بين المستعمِر والمستعمَر يجب أن تتغلب على حالة الاستعمار، فيقول رشيد: أنا أؤمن أن صلواتنا تتلاقى في السماوات وتتحد لتصل إلى القبة الزرقاء، إلى أبينا في السماوات.[111] ويغفل

---

[108] هيرصل 1968، ص66.

[109] هيرصل 1968، ص101.

[110] Wolfe 2006, 402.

[111] هيرصل 1968، ص103.

هيرتسل هنا، أن المسلمون عادة لا يستخدمون كلمة "الأب" في إشارة إلى الله على غرار اليهود، فيظهر بذلك تماهي المسلم مع الديانة اليهودية للغازي، على الأقل من وجهة نظر هيرتسل.

يتساوق الأصلاني رشيد في الرواية مع المستعمِر ويدّعي أن "بلاد إسرائيل كانت غنية بالموارد الطبيعية التي لم تكتشف بعد"[112] ويتحول بذلك من شخص مستعمَر إلى متماهٍ مع الخطاب الاستعماري، وتتحول أرض فلسطين إلى بلاد إسرائيل تماشيًا مع الخطاب الاستعماري، وتتحول الهجرة اليهودية إلى نعمة اكتشفت هذه الموارد وأحسنت استغلالها.

في إنسانية المستعمِر

لا تخلو الرواية من تصوير المستعمِر لعملية الاستعمار باعتبارها عملًا إنسانيًا، فالمستعمِر، بنظر هيرتسل، هو الذي أجاد استخدام الموارد المتاحة بطريقة عصرية تجعل من التقدم إلى الحضارة أمرًا لا مفر منه، وهي عملية ضرورية لاستجلاب الحداثة إلى الأرض المستعمرة. في الواقع، لم يخلو أي من المشاريع الاستعمارية في العالم من هذه النبرة الخطابية، وكما يقول أوسترهامل، فإن المستعمِر عادة ما يدعي الإيمان برسالة إنسانية تقوم على مبدأ أن المستعمَر غير ناضج، وبحاجة إلى التوجيه والرعاية، وبالتالي فإن الحق في السيطرة على الأرض –بالنسبة للمستعمِر– لا يأتي من حق الغالب أو الغازي الذي انتصر، إنما الادعاء بأن الغالب جاء ليقوم بإكمال رسالة كونية تاريخية كمحرر من العبودية والتخلف الروحي. وبالنسبة له، فإن الواجب الأخلاقي بضرورة جلب الحضارة الغربية للمستعمَرين هو الذي يعطيهم الحق في الغزو، وواجبهم هذا

[112] هيرصل 1968، ص129.

هو الذي يدفعهم إلى تنشيط الموارد المهملة في الأقطار المتخلفة للصالح العام وللاقتصاد العالمي.[113] وتطبيقًا لهذه النظرة، يصور مخيال هيرتسل الاستعماري فلسطين بعد سنوات من النشاط الاستعماري فيها على أنها جنة خضراء يانعة، بعد أن كانت صحراء قاحلة ومهملة بيد الأصلانيين. الأمر لا يقتصر على الفائدة التي سيجنيها المستعمَر، بل إن عملية الاستعمار أيضًا هي عمل من أجل المستعمِر، لأن هذا المشروع بالنسبة لهيرتسل هو مشروع تنويري لعقول الناس [اليهود].[114]

تظهر الرسالة الإنسانية التي يحملها المشروع الاستعماري مرة أخرى في رواية هيرتسل، إذ أن التطور العلمي الذي ستحمل رايته الدولة الاستعمارية الجديدة، سيدفعها إلى محاولة إيجاد الحلول للمشاكل العالمية الكبيرة التي لم يتمكن أحد من حلها من قبل:

> إنني بعد أن حظيت برؤية خلاص شعبي إسرائيل، فإنني أبغي المساعدة كذلك على خلاص الزنوج... وعلى هذا فإنني أجلس هنا، وأعمل من أجل تطوير أفريقيا لتكون وطنًا للجميع، وليعامل أبناء البشر عند ذلك بعضهم البعض بالحسنى، ويفهمون بعضهم البعض.[115]

بالنسبة لهيرتسل، يشكّل الاستعمار الصهيوني وإقامة الدولة الاستعمارية الجديدة خلاصًا لشعب إسرائيل، وبما أن هذه الدولة الاستعمارية تحمل رسالة إنسانية أخلاقية فهي تسعى إلى إيجاد الحلول لمشاكل المضطهدين في الأرض، فالمشروع الاستعماري هو النقطة التي يبدأ عندها السعي نحو القضاء على آلام الشعوب المختلفة، والمساهمة في دفع الناس إلى التعامل مع الناس بالحسنى!.

يصر هيرتسل على إنسانية مشروعه، فيعلق لافتة على بوابة "هيكل السلام" المتخيل في القدس:

---

[113] أوسترهامل 1998، ص 175-176.

[114] هيرتزل 1997، ص110.

[115] هيرصل 1968، ص131.

كل شيء إنساني لا يكون غريبًا عني.[116]

يعيدها هرتسل مرتين، مرة باللغة العربية، ومرة باللغة الفرنسية تأكيدًا على الرسالة الإنسانية التي يحملها مشروعه الاستعماري، في محاولة لإنكار صفات الاستعمار عنه.

وتعود نفس الفكرة لتظهر مجددًا في كتاب دولة اليهود، الذي يؤكد من خلاله هيرتسل على أن الدولة اليهودية إنما هي مشروع لصالح الإنسانية، كما يظهر في آخر جملة يختتم فيها كتابه:

إن أي شيء نحاوله هناك من أجل رفاهنا سينعكس بقوة وبنفع لخير الإنسانية.[117]

لقد اختار هيرتسل أن تكون آخر كلمة في كتابه دولة اليهود هي "الإنسانية"، بما يشي بطبيعة الحالة التي يرغب هيرتسل في أن يصنف حركته ضمنها، مبعدًا إياها عن الصفات الاستعمارية.

في تأصيل الغريب وتغريب الأصلاني

التحولات في الرواية تستمر، وليس آخرها أن يتحول "السكان المحليون" بنظر هيرتسل إلى السكان اليهود،[118] ويختفي العرب والفلسطينيون من الصورة، فيصبح اليهود هم السكان المحليون مقابل العالم الغربي الذي يبدو شبيهًا لكن ليس نقيضًا للوجود اليهودي في المكان، أما العرب فهم لا يظهرون بتاتًا هنا.

هذا يعني أن يتحول الغريب في نص هيرتسل بعد النشاط الاستعماري إلى أصيل، ويخرج الأصيل من الصورة بالكامل، ويصبح الخلاف بين المستعمرين على أيهما أشد ارتباطًا في الأرض الجديدة:

---

[116] هيرصل 1968، ص181.

[117] هيرتزل 1997، ص111.

[118] هيرصل 1968، ص151.

> ويوم خرجنا نحن الصهيونيين من اليوم الأول نبحث عن شعبنا وبلادنا، ندد بنا الحاخام الدكتور غايار، وأسمانا مخبولين وكذابين! إنه لم يرد مطلقًا، في تلك الأيام الأولى الشاقة أن يذكر أحدهم اسم بلاد إسرائيل. أما الآن فإنه ابن هذه البلاد أكثر منا جميعًا. إنه الوطني، إنه اليهودي القومي – أما نحن فعبيد الأجانب! ونحن إذا مضينا في الاستماع إليه وإلى أحاديثه فقد يتضح أننا أسوأ اليهود طرًا، وقد نكون غرباء عن بلاد إسرائيل، بلاده.[119]

يظهر من النص، كيف يحاول هيرتسل تغريب الأصيل، وتأصيل الغريب في الآن نفسه، إذ يتحول الخلاف عند هيرتسل بين أصلاني وغريب إلى خلاف بين غريبين على مدى أصلانيتهما (أي أيهما أكثر أصلانية).

يظهر ذلك مرة أخرى لدى هيرتسل في كتاب "دولة اليهود" حينما يشرع باستخدام مصطلح "الجماعات المحلية"[120] الذي قد يبدو للناظر من الوهلة الأولى أنه يقصد به مجموعات السكان الأصلانيين في الأرض المستعمَرة، لكن بالنسبة لهيرتسل، فإن المجموعات المحلية هي مجموعات المهاجرين الصهاينة الأولى، التي استعمرت الأرض الجديدة. وهنا يبدو أن هيرتسل يسعى جاهدًا مرة أخرى إلى تأصيل المستعمِر الغريب، وتغريب المستعمَر الأصلاني.

في كتابه دولة اليهود لا يتعرض هيرتسل كثيرًا لوجود الأصلانيين على الأرض. تغييب الأصلانيين من الخطاب الاستعماري بحد ذاته يشكل مكانًا خصبًا للنقاش حول صورة الأصلانيين في عقلية المستعمِر. ومع ذلك فهو يعترف بشكل واضح بأن هناك عملية استيطان تتم من قبل أمة من بيئة ما لتستوطن بيئة أخرى:

> ليس هناك كائن إنساني يملك من الثروة أو القوة ما يكفي لقلع أمة من هذا الموطن وإعادة زرعها في ذاك. الفكرة وحدها هي التي تحيط بذلك، وقد يكون لفكرة الدولة هذه القوة

---

[119] هيرصل 1968، ص110.

[120] هيرتزل 1997، ص77.

> المطلوبة للقيام بذلك. وقد ساور اليهود هذا الحلم الجليل على مدى الليالي الطويلة لتاريخهم.[121]
>
> فلتمنح لنا السيادة على جزء من هذا الكوكب لتلبية المتطلبات العادلة لأمة ما؛ أما الباقي فسنتدبر أمره بأنفسنا. إن إنشاء دولة جديدة لا هو بالأمر السخيف ولا بالمستحيل.[122]

كتاب دولة اليهود يضع مكانين لدولة اليهود المتخيلة، الأرجنتين وفلسطين،[123] وبالرغم من وضوح ميل هيرتسل إلى فلسطين إلا أنه يتنكر في الحالتين لوجود الأصلانيين، ذاكرًا دور وواجبات اليهود في الأرض المستعمَرة فقط.

يقتصر ذكر الأصلانيين الوحيد تقريبًا الذي يرد في الكتاب على وصف السكان الأصلانيين باعتبارهم سادة البلاد الحاليين والملاك الحاليين المؤقتين للأرض، نافيًا عنهم صفات ملكية الأرض الدائمة أو الإقامة أو الارتباط بالأرض:

> ستتعامل جمعية اليهود مع سادة البلاد الحاليين، وتضع نفسها تحت حماية الدول الأوروبية، إذا كان موقفها وديًا نحو الخطة. إن بوسعنا أن نقدم للمالكين الحاليين للأرض بأن نأخذ على عاتقنا جزءًا من الدين العام، وأن نشق طرقًا جديدة لأغراض المرور ووجودنا في القطر يجعل ذلك ضروريًا، إلى غير ذلك. إن زراعة قطعة من الأرض سيكون نافعًا للأقطار المجاورة لأن زراعة قطعة من الأرض تزيد من قيمة المناطق المحيطة بها بطرق متعددة.[124]

---

[121] هيرتزل 1997، ص35.

[122] هيرتزل 1997، ص46.

[123] هيرتزل 1997، ص48.

[124] هيرتزل 1997، ص48–49.

في الواقع، توجي كلمة "حاليين" في نص هيرتسل إلى شيء من الغرابة عن المكان، فعلاقتهم بالحيز الجغرافي تقتصر على ملكية حالية، لا ملكية دائمة أو طويلة الأمد. ووجود المستعمِر يحمل هدفًا نبيلًا يساهم في القضاء على مشاكل الأصلانيين وينفع الأقطار المجاورة.

ومع ذلك حتى حين يناقش خيار الأرجنتين، فهو يدعي أن فيها عددًا قليلًا من السكان[125] استمرارًا للخطاب الاستعماري الذي يقوم على تغييب الأصلانيين عن الوجود، فكيف لدولة شاسعة المساحة مثل الأرجنتين أن تضم عددًا قليلًا من السكان!.

يعترف هيرتسل بأن اسم فلسطين بحد ذاته سيكون دافعًا لاجتذاب اليهود بقوة ذات فعالية رائعة[126]، وفي الوقت نفسه فإن اللعب على وتر المشاعر الدينية سيكون أساسيًا في السعي نحو زرع طلائع المستعمرين في المكان، وإشعارهم بأنهم في وطن لهم:

> وستعمل جمعية اليهود سواءً قبل المغادرة بفترة طويلة وخلال الرحلة على إشاعة روح جادة لكنها بهيجة. وذلك بواسطة الصلوات والمحاضرات والإرشادات... ذلك أن أرض الميعاد هي أرض العمل. وعند وصول المهاجرين سيجري الترحيب بهم من قبل كبار موظفينا واستقبالهم بالوقار الذي تقتضيه المناسبة إنما بلا تهلل أخرق، فأرض الميعاد لم يتم فتحها بعد، على أن من الضروري أن يشعر هؤلاء الفقراء حالًا بالارتياح وكأنهم في بيوتهم.[127]

وبالنسبة لهيرتسل فإن الدين اليهودي ينبغي أن يلعب دورًا في تثبيت شعور اليهودي بأن هذه الأرض جزء من الديانة اليهودية:

---

[125] هيرتزل 1997، ص49.

[126] هيرتزل 1997، ص49.

[127] هيرتزل 1997، ص70.

> إن حاخاماتنا، وهم الذين نتوجه إليهم بشكل خاص، سيكرسون طاقاتهم لخدمة فكرتنا، وسيحثون المصلين بالتبشير بها من منبر الكنيس. إنهم لن يكونوا بحاجة إلى الدعوة إلى اجتماعات خاصة لهذا الغرض، وإن مناشدة كهذه يمكن [أن] تطلق في الكنيس. وهكذا يجب أن تتحقق الفكرة. ذلك أننا لا نشعر بوشيجتنا التاريخية إلا من خلال ديانة آبائنا وأجدادنا.[128]

احتلال الأرض أم استعمارها؟

كيف يتم احتلال الأرض من قبل المستعمِر اليهودي برأي هيرتسل؟ الإجابة:

> ثمة أمر واحد يحتاج إلى إيضاح وهو: كيف يجري احتلال الأرض بالنسبة إلى المجموعات المحلية [مجموعات المهاجرين الأولى]؟. يجري احتلال الأراضي التي تفتح في أمريكا بطريقة ساذجة، إذ يتجمع المستوطنون على حدودها، ثم يهرعون في الوقت المحدد وفي آن واحد وبشكل عنيف لأخذ حصصهم. أما نحن فلن نسير على هذه الشاكلة في أرض اليهود الجديدة.[129]

يدرك هيرتسل في لا وعيه أن عملية الاستعمار التي ينظّر لها في هذا الكتاب، إنما هي شبيهة بعملية الاستعمار التي حدثت في أمريكا، لكن بطريقة مختلفة لا تقوم على الغزو المباشر والعنيف.

في خاتمة كتابه دولة اليهود يقول هيرتسل: "يا إخواني اليهود... كل فرد سيحمل معه إلى هناك قطعة من أرض الميعاد"[130] فإذا علمنا أن هيرتسل لم يكن قد قرر بعد في هذا الكتاب إن كانت دولته الاستعمارية المتخيلة ستكون في الأرجنتين أو فلسطين، فكيف له أن يطلق اسم أرض الميعاد عليها طوال صفحات الكتاب؟ هل لنا أن نتساءل عن معنى أرض الميعاد هنا؟ أين هي؟ هل هي فلسطين أم الأرجنتين؟ أم أن

---

[128] هيرتزل 1997، ص80.

[129] هيرتزل 1997، ص97.

[130] هيرتزل 1997، ص110.

مصطلح أرض الميعاد هو مصطلح فضفاض يمكن نقله بسهولة بين مكان وآخر حسب الحاجة الاستعمارية؟ كتاب ستيفن سلايطة[131] عن هذا الموضوع Holy Land in Transit، قد يعطينا بعض الإجابات حول الطرق التي يسوقها المستعمِر في سبيل تقديم استعماره كشيء مقدس من خلال التلاعب بالمصطلحات الواردة في الكتاب المقدس (كالأرض الموعودة، أرض الميعاد، الأرض المقدسة) وطرحها بشكل فضفاض ومرن يجعل من عملية الاستعمار عملًا مبررًا وأخلاقيًا.[132]

كما يظهر منير العكش في كتابه "دولة فلسطينية للهنود الحمر"[133] أن المستعمرين الإنجليز الأوائل طرحوا اسمًا وحيدًا للدولة الهندية المقترحة –والتي لم تقم إطلاقًا– في عهد الرؤساء مونرو، وآدامس، وجاكسون هو دولة أو ولاية كنعان الهندية،[134] كما سمى المستعمرون الأوائل أمريكا باسم "كنعان الإنجليزية الجديدة" أو "كنعان الجديدة"[135] بما يوحي بتداخل المصطلحات والأساطير التي كانت توظف في الخطابات الاستعمارية، على الأقل في الحالتين الأمريكية والفلسطينية، فكما وهبت كنعان للإسرائيليين بنصوص العهد القديم، فقد منحت أمريكا للمستعمِر الأبيض.

نتائج الفصل الأول

لا يظهر خطاب الأصلانية لدى هيرتسل بشكل واضح أو مباشر، إذ يجري تخيل الفلسطينيين كما لو أنهم غير موجودين، وباعتبارهم عربًا فقط، وضمن المكونات الأخرى الموجودة على الأرض، كما يجري التركيز

---

[131] مذكور لدى Salaita 2014, p. 126.

[132] المصدر السابق نفسه.

[133] العكش 2015.

[134] المصدر السابق، ص31.

[135] المصدر السابق، ص38.

على أوضاع اليهود المأساوية في دول أوروبا الشرقية، واللا سامية التي تهدد اليهود أينما حلوا، بما يشكّل مقدمة للاستعمار الصهيوني في فلسطين.

إن إحدى ركائز الخطاب الاستعماري هي أن يدعي المستعمِر أنه تعرض للقمع والعنف قبل عملية الاستعمار، أو لنوع معين من الضغوط من الوطن الأم.[136] في الحالة الإسرائيلية لا يوجد وطن أم موحد للمستوطنين اليهود، وهي النقطة التي يسرت لهيرتسل أن ينشئ خطابًا يقوم أساسًا على ادعاء تعرض اليهود للاضطهاد في العالم. هنا لا نجد غرابة في احتلال هذه القضايا جزءًا كبيرًا من فكر هيرتسل الاستعماري، إذ يفرد لها مساحات شاسعة من أعماله، فيما تظهر بقايا هذا الخطاب في تفاصيل وثنايا الأحداث الأخرى بشكل دائم. على سبيل المثال، يبتدأ هيرتسل أول 40 صفحة من رواية أرض قديمة جديدة ليناقش تفاصيل هذا الاضطهاد بشكل حصري، فيما يخصص فصلًا كاملًا للحديث عن "المسألة اليهودية" في كتابه دولة اليهود.

أبرز سمات الخطاب الأصلاني لدى هيرتسل هو أنه يرتكز بشكل كبير على الادعاء بأن فلسطين هي أرض الأجداد والوطن القديم لليهود،[137] وأرض الميعاد.[138] وكما يعتقد هيرتسل، فأن الربط بين الحاضر والماضي عبر الادعاء بأن فلسطين كانت لليهود يومًا ما، هو الذي يعطي لليهود حق فيها في الوقت الحاضر، لأنها بالأساس محاولة للقول بأن أصول اليهود الصهاينة تعود إلى فلسطين، وبالتالي فإن لهم الحق في "العودة" إليها. كما تتهرب الصهيونية تحت تأثير هذه الادعاءات من مسؤولياتها الأخلاقية تجاه السكان الأصلانيين، وتحاول نزع الصفات الاستعمارية عن نفسها.

---

[136] أوسترهامل 1998، ص، 21.

[137] هيرصل 1968، مثلًا ص21؛ 30؛ 40؛ 43؛ 49؛ 56؛ 67؛ 170.

[138] هيرتزل 1997، ص70؛ 95؛ 102؛ 110.

الفصل الثاني: دافيد بن غوريون

يعد دافيد بن غوريون أول رئيس وزراء إسرائيلي وأحد المؤسسين الأوائل للدولة الإسرائيلية. كما قاد بن غوريون حرب العام 1948 ضد الفلسطينيين مسهمًا في اقتلاع مئات الآلاف منهم من أراضيهم، إلى جانب مشاركته الفعالة في حرب 1965، و1967. ويؤمن بن غوريون بالصهيونية العملية التي تسعى إلى تدعيم أركان الدولة الإسرائيلية عبر فرض الأمر الواقع.[139] تولى بن غوريون رئاسة الحكومة تسع مرات انتهت الأخيرة في يونيو 1963.[140] سيتناول هذا الفصل خطاب بن غوريون الأصلاني كما ظهر من خلال متابعة سيرته الذاتية التي كتبها شبتاي تيبت، إضافة إلى عدد من رسائله ويومياته.

---

[139] كامل 2008، ص 189.

[140] المصدر السابق، ص 193.

في تأصيل جذور العرب اليهودية

يدّعي بن غوريون، بأن الفلسطينيين الأصلانيين لم يكونوا عربًا أو فلسطينيين، بل يهود تحولوا عن دينهم نتيجة القمع العربي الذي حصل أثناء الفتح/الاحتلال العربي الإسلامي للمنطقة في القرن السابع الميلادي، خوفًا من طردهم من بلادهم على يد المسلمين. لقد حاول بن غوريون في كتابه "أرض إسرائيل في الماضي والحاضر" الذي نشره مع صديقه اسحق بن تسيفي عام 1918 أن يجد علاقة بين السكان الأصلانيين في فلسطين واليهود القدماء. لقد حاول بن غوريون من خلال عمله هذا أن يجد رابطًا بين المستعمِر والمستعمَر، لينشئ علاقة متخيلة بين أصحاب الأرض الأصليين والغزاة، في محاولة لتقديم مبررات لهذا الغزو. ويبدو من خلال هذه النظرة أن السكان الأصليين ينتمون إلى نفس الفئة التي ينتمي إليها هؤلاء المستعمرون نافيًا عنهم صفاتهم العربية والفلسطينية:

> وجد بن غوريون وبناء على الأسماء العربية لقرى الفلاحين وغيرها أن الفلاحين حافظوا طيلة مئات السنين على تقاليد يهودية قديمة وحافظوا على الأسماء القديمة الواردة في التناخ، والتلمود والمدراش. وقد احترموا وحافظوا على العادات القديمة التي كانت لأجدادهم والتي كانت تعاليم الدين الإسلامي غريبة عليها. وقد توصل بن غوريون إلى استنتاج بأن الفلاحين، هم من ذرية القرويين اليهود الذين وجدهم العرب "في البلاد" في القرن السابع – يقول أن العرب وجدوا ما لا يقل عن ربع مليون يهودي في "أرض إسرائيل" – وهو يؤمن بأنه أثبت بأن أصل هؤلاء من الاستيطان اليهودي القديم.[141]

[141] تيبت، شبتاي. 1987. بن غوريون والعرب ترجمة غازي السعدي. عمان: دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية: 46.

يتحدث فيرتشيني[142] حول أحد الأساليب التي يستعملها المستعمِر تجاه السكان الأصلانيين قائلًا إن المستعمِر قد يلجأ أحيانًا إلى العمل على تأصيل جذور السلالات البشرية على الأرض، من أجل مسح الفروقات بين علاقتي كل من المستعمِر والأصلاني بالأرض.

إن محاولات دمج الأصلاني بالمستعمِر ضمن علاقة تقوم على تصور الأصلاني باعتباره فئة فرعية من المستعمِر (الفلاح العربي هو جزء من مجموعة اليهود) إنما هي محاولة من المستعمِر لتأصيل نفسه، والقضاء على الأصلاني وعلى وجوده وأحقيته في المكان من خلال تغريبه عن أصوله. إن عملية دمج الأصلانيين داخل المجموعات العرقية للغزاة كانت ولا تزال أداة استعمارية تهدف للقضاء على السكان الأصليين عبر تحويلهم إلى عنصر غير مستقل. إن عمليات دمج الأصلاني ضمن المستعمِر هي أحد العناصر الملازمة للمشاريع الاستيطانية الاستعمارية التي يمكن اعتبارها أسلوبًا من أساليب القضاء والمحو والإلغاء.[143]

في عروبية الفلسطينيين وإسقاط فلسطينيتهم

يستمر مسلسل تغريب الأصلاني عن أصلانيته لدى بن غوريون، وتأصيل الغريب المستعمِر. في هذه المرة يدّعي بن غوريون بأن أصول الفلسطينيين الذين يدعوهم عربًا فقط، تعود إلى الشعوب العربية المحيطة، فيما تقتصر هذه الرقعة من الجغرافيا على الأصول اليهودية الذين لا تربطهم أية صلات بأية مناطق جغرافية في العالم إلا فلسطين. لقد كتب بن غوريون عام 1929:

---

[142] Veracini 2010, 42–43.

[143] Wolfe 2006, 402.

> إن أرض إسرائيل بالنسبة للشعب اليهودي والشعب العربي تبدو هكذا: الأمة العربية تملك بلادًا واسعة شاسعة، تبلغ مساحتها في آسيا فقط حوالي ثلث مساحة أوروبا كلها، في حين أن الشعب اليهودي، تعتبر أرض إسرائيل هي "البلاد" الوحيدة التي يرتبط مصير ومستقبل وتاريخ الشعب اليهودي بها، وفي هذه الأرض فقط يستطيع تجديد حياته المستقلة، وإن كل من يحاول تشويه هذه الحقيقة، يقضي على الشعب اليهودي.[144]

سمى فيرتشيني[145] تلك الظاهرة بالطرد المفاهيمي، ومن خلالها يُنظر إلى الأصلانيين باعتبارهم جزءًا من فئة أوسع تقطن خارج الأراضي التي تخضع لعملية الاستعمار، وخارج سيطرة المستعمِر. ووفقًا لهذا المعنى فإن الفلسطينيين الذين أصبحوا "عربًا" لا ينتمون بالتحديد إلى البقعة الجغرافية المسماة فلسطين، إنما إلى الإطار العربي الأوسع. والهدف من هذا الادعاء بالنسبة للصهاينة –ولبن غوريون تحديدًا– تفكيك الرابطة التي تصل بين الفلسطينيين وفلسطين، فلا يوجد في فلسطين فلسطينيين، إنما عربًا، وهم ليسوا شعبًا مستقلًا ينتمي إلى المكان بقدر ما ينتمي إلى مكان أكبر وأوسع هو العالم العربي. وبما أن الرابطة مع العرب أقوى من الرابطة مع فلسطين بحسب وجهة نظره، فإن على الفلسطينيين الانتماء إلى الشعوب العربية الكثيرة التي لا تقتصر على مكان واحد.

وبما أن العرب شعب واحد ينتشر في بلدان كثيرة، يمكن للفلسطينيين العيش في أي مكان يرغبون، على عكس اليهود الذين لا تربطهم أي رابطة –بالنسبة لبن غوريون– بأي منطقة جغرافية غير فلسطين. إن الاعتراف بشعب فلسطيني مستقل ومنفصل عن العرب يعني أن له الحق في تقرير مصيره، وهو ما يرفضه بن غوريون جملةً وتفصيلًا، قائلًا إنهم جزء من الشعوب العربية، ولا مكان لهم في فلسطين.

---

[144] تيبت 1987، ص 54.

[145] Veracini 2010, 36.

تعمل المنظومة الاستعمارية وفقًا لفيرتشيني[146] بشكل متماثل في الحالات التي يدعي فيها المستعمِر أن الأصلانيين جاءوا من مكان آخر، أو عندما يتم النظر إليهم على أنهم لم يأتوا من مكان معين على وجه الخصوص، وفي هذه الحالة يجري تصورهم على أنهم رحّل ودائمي التنقل دون الارتباط بالأرض، وهم يعبرون الأرض دون إشغالها، يجتاحون الأراضي عبر تنقلهم. وهي فكرة طرحها باتريك وولف[147] أيضًا حين قال إن البداوة تجعل من السكان الأصلانيين قابلين للاستئصال.

وفقًا لهذه التصورات، تمكنت المشاريع الاستعمارية الاستيطانية من العمل على محو الأصلانيين، من خلال استبعادهم وإقصائهم من تلك السرديات، ومحو التاريخ والخبرات التي عايشها السكان الأصلانيين على الأرض، لأنها تقوم على المرتكز الذي يدعي أن البدوي لا جذور له، ولا تربطه بالمكان أية رابطة، كما لا يوجد له مكان للمنشأ (place of origin) ويتنقل باستمرار سعيًا وراء الماء والمرعى، وبالتالي فإن حضوره في المكان مؤقت وأو عابر،[148] الأمر الذي يعني بأنه ليس للأصلاني الحق في هذه الأرض، وليس له الحق في مقاومة هذا المشروع الاستعماري أيضًا.

ولذلك يعود بن غوريون ليذكر نفسه والآخرين مرة تلو المرة بأن وجود الفلسطينيين لا يتوقف على فلسطين:

> إن وجود الأمة العربية الاقتصادي والثقافي واستقلالها القومي لا يرتبط ولا يتوقف على أرض فلسطين وحدها؛ وذلك بعكس اليهود إذ أن أرض فلسطين تعتبر بالنسبة للشعب اليهودي بأكمله، هي الأرض الوحيدة التي يرتبط فيها مصيره ومستقبله التاريخي كشعب، إذ أنه في هذه البلاد فقط يمكنه أن يستأنف حياته المستقلة ويجدد اقتصاده الوطني وحضارته الخاصة، وهنا فقط يمكنه أن ينهض ويقيم "دولته" الرسمية.[149]

---

[146] Ibid., 36–37.

[147] Wolfe 2006, 397.

[148] Shihade 2015, 4.

[149] تيبت 1987، ص 124–125.

وليس غريبًا، في هذه الحالة أن يتجاهل بن غوريون أن يطلق وصف دولة فلسطينية في فلسطين في كل كتاباته. لقد تساءل بن غوريون في إحدى رسائله حول المصير الذي ستؤول إليه فلسطين بعد أحداث عام 1936 قائلًا: هل تصبح فلسطين دولة يهودية – أم تبقى بلدًا عربيًا؟[150] لقد تجنب بن غوريون استخدام مصطلح "دولة فلسطينية" على غرار استخدامه دولة يهودية، وأصرّ على أنها بلد عربي دون اكتراث لخصوصيتها داخل المجتمع العربي الكلي. من الجدير بالذكر هنا، أن بن غوريون يعتبر اليهودية قومية فيما يتجاهل احتمالية أن تكون "الفلسطينية" قومية أيضًا.

من هنا، هل يحق لنا أن نسأل السؤال التالي: هل من الممكن أن يجري احتلال\استعمار أرض ألمانية والطلب من سكانها أن يعيشوا في دولة أخرى يعيش الجرمانيون فيها؟ هل من الممكن أن نستولي على أرض أسترالية ونطلب من سكانها أن يخرجوا منها لأنهم ينتمون إلى الشعوب الأنغلوساكسونية الأوسع؟ تبدو الإجابة التي يقدمها بن غوريون على هذه الأسئلة سخيفة جدًا.

في أصلانية اليهود

إذا لم يكن العرب الفلسطينيون هم السكان الأصليون من وجهة نظر بن غوريون، فمن هو الأصلاني؟ ومن هو صاحب الأرض الحقيقي؟ يجيب بن غوريون:

> إن صلات الشعب اليهودي بأرض إسرائيل لم تبدأ بوعد بلفور أو بمشروع الانتداب البريطاني. فهذه لم تعترف إلا بوضع تاريخي قائم – يتجسد في الصلة بين الشعب اليهودي

[150] بن غوريون، دافيد. 1989. رسائل بن غوريون ترجمة دينا عبد الحميد. عمان: دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية: 117.

> وفلسطين... فكل من يعرف تاريخ فلسطين والشعب الفلسطيني يعلم أننا كنا هناك قبل العرب بمئات السنين.[151]

يحاول بن غوريون أن يوضّح بأن العلاقة بين اليهود وبين الأرض لم تكن سياسية بتاتًا، ولم تنتج عن الوعد الذي قطعته بريطانيا لليهود عام 1917 بإنشاء الوطن القومي لهم في أرض فلسطين. هذه العلاقة بين اليهودي وبين الأرض الفلسطينية تُعتبر مسلمًا فيها، لأن كل من يعرف فلسطين، يعرف بأن اليهود كانوا هناك ولهم أحقية تاريخية فيها، كما يقول.

في إحدى الرسائل، يتحدث بن غوريون عن اجتماع بين ممثلين عن الصهيونية والحكومة البريطانية في لندن في العاشر من شباط عام 1939، قائلًا وبصراحة وبشكل مباشر بأن اليهود هم السكان الأصليون في هذه البلاد:

> الشعب اليهودي ربما يعرف ويقرر أكثر من غيره ما معنى أن يكون المرء بلا وطن. فالشعوب العربية مركزة في البلاد العربية وتحكم نفسها. وفلسطين ليست إلا إحدى البلاد التي غزوها، أما أهل البلاد الأصليون فهم اليهود. وقد اعتبروها وطنهم عبر أجيال المنفى والتشتت.[152]

التبرير الذي يقدّمه بن غوريون بأحقية وأصلانية اليهود في فلسطين هو أن اليهود اعتبروا أرض فلسطين وطنهم عبر الأجيال. لقد أراد بن غوريون أن ينشئ ضميرًا جمعيًا تاريخيًا يهوديًا يحولّه إلى "شعب" أصلاني في فلسطين، رغم أن التاريخ لا يمكن أن ينشئ علاقة أصلانية بين شعب ما وأرض.

---

[151] المصدر السابق، ص 213.

[152] المصدر السابق، ص 214.

في أهمية الفصل مع العرب

بالنسبة لأي مشروع استعماري، يمكن الدعوة إلى الانفصال عن السكان الأصلانيين كترسيخ للخطاب الاستعماري القائم على الفجوة الحضارية التي تفصل بين المستعمِر والمستعمَر. لقد عمد بن غوريون إلى استخدام هذه الأداة في محاولته وضع الفروقات بين كلا الطرفين محاولًا إظهار أن المستعمِر يتفوق حضاريًا على الأصلاني، وبأن له الحق بأن يسيطر على الأرض وفقًا لهذا التفوق:

> من الضروري تطبيق الفصل الإقليمي نظرًا لوجود الفجوة الثقافية والحضارية بين الشعبين، إذ لن يكون من العدل تطبيق نفس مستوى الخدمات على اليهود ذوي الثقافة المتقدمة، وعلى العرب ذوي الثقافة المتخلفة بنفس المستوى، إذ أن الأقلية اليهودية ستظلم إذا طبقت عليها القوانين التي تتناسب مع الأغلبية التي لا يعرف معظمها القراءة والكتابة. أضف إلى ذلك، أنه يتزعم هذه الأغلبية جماعة من الاقطاعيين الذين يعتمدون في وقتهم وسلطتهم على تحريض الناس ضد "الغرباء" الذين يجلبون معهم الثقافة الأوروبية إلى البلاد.[153]

بالنسبة لكثير من حالات الاستعمار الاستيطاني، كان الانفصال مع الأصلاني متطلبًا حيويًا للمستعمِر يقوم من خلاله بالعمل على تحديد المساحات التي يمكن للأصلاني أن يمارس فيها حركته، ويتحول الأصلاني إلى العيش في معازل قد يطلق عليها اسم محميات أو كانتونات، تعمل على تقييد حركته في المكان. الأساس الذي قامت عليه مثل هذه الدعوات العنصرية كانت الرغبة في عدم اختلاط الأصلاني (المستعمَر) بالغريب (المستعمِر) سعيًا من الأخير إلى الحفاظ على نقائه، وعدم التلوث بفعل احتكاكه مع الأصلاني.

لقد عملت مفاهيم التقدم والتخلف دورًا حيويًا لدى مشروع بن غوريون الفكري، وكان ذلك المشروع يهيئ لبن غوريون بأن يهوديًا واحدًا يساوي عددًا كبيرًا من العرب بفضل ثقافته وحضارته الأكثر تقدمًا ودافعه

---

[153] تيبت 1987، ص 96.

للقتال[154]. وقد ذكر ذات مرة حين كان النقاش على أشده حول مشروع إصدار صحيفة عربية حوالي العام 1931 بأن عليهم أن ينشئوا صحيفة صهيونية تشرح للعرب التقارب بين اليهود والعرب الذين ينحدرون من جنس واحد، إلى جانب الفروقات بين الشعبين، مع التركيز على انجازات اليهود، مقابل تخلف العرب وضعفهم[155]. وقد كان يرى بن غوريون أن إظهار محاسن اليهود سيفتن العرب بهم، ما سيدفعهم إلى جعل البلاد تركة لكل السكان.[156] حول هذا الموضوع، يقول باتريك وولف[157] إن المجتمع الاستعماري الاستيطاني بحاجة دائمًا إلى القضاء على السكان الأصليين من أجل أن يكون قادرًا على تثبيت وجوده على أرضهم، لكنه في الوقت نفسه، وعلى المستوى الرمزي، فإنه يسعى إلى إعادة إحياء هوية السكان الأصليين حتى يقدم نفسه كمختلف ومتميز عنهم، من أجل الحصول على استحقاق ليكون مستقلًا.

في تحولات الأصلانيين

بالنسبة لبن غوريون، لم يكن العرب الفلسطينيون في فلسطين سكانًا أصلانيين للبلاد، بل كانوا "سكان أرض إسرائيل المحليين"[158] الذين تحولوا في لحظة ما إلى "جيران".[159]

لم يذكر بن غوريون يومًا الفلسطينيين باسمهم، بل كان يطلق عليهم أوصافًا مرتبطة بالعروبة –كما بينا سابقًا– أكثر منها بفلسطين، ولم يكن ذلك اعتباطيًا، بل كان تصورًا يرتكز عليه فكر بن غوريون السياسي

---

[154] تيبت 1987، ص 105.

[155] المصدر السابق، ص 159.

[156] المصدر السابق، ص 159.

[157] Wolfe 2006, 390.

[158] تيبت 1987، ص 19.

[159] المصدر السابق، ص 170.

تجاه الأصلانيين تمهيدًا لتحويلهم إلى غرباء يعيشون في الحيز الجغرافي اليهودي، أي سلبهم حقهم في التواجد على الأرض قبل إزاحتهم من المكان.

عام 1921، نشر بن غوريون مقالًا في صحيفة كونترس بعنوان "العلاقات مع جيراننا"[160] قبل أن يتحول هذا المفهوم إلى صفة أساسية ترتبط بالسكان الفلسطينيين الأصلانيين ظهرت بشكل أوضح حين أقدم على نشر كتاب عام 1931 أسماه "نحن وجيراننا".[161]

تابع هذا المفهوم التطور شيئًا فشيئًا لدى بن غوريون ليتحول "الجيران" إلى "أبناء بلدنا العرب" كما قال.[162] أي أنه ورغم أن العرب أبناء البلد إلا أنهم ظلوا أبناء بلد اليهود، أي أن العرب مجرد سكان فيه. هذا التدرج وصل إلى نتيجة أخيرة بعد الثورة العربية الكبرى عام 1936 هي تحوّل العرب إلى إرهابيين وقتلة.[163]

خلاصة الأمر أن الأصلانيين بنظر بن غوريون كانوا سكانًا "محليين" ثم تحولوا إلى "جيران"، وإلى "أبناء بلد اليهود العرب" وانتهوا إلى أن يكونوا "إرهابيين وقتلة".

"العودة" إلى الأرض القديمة

كانت فكرة العودة من ضمن الأفكار التي ناقشها بن غوريون بشكل غير مباشر، فقد تضمنت أقواله وآراءه تبنيًا واضحًا وغير مباشر لآراء هيرتسل في "العودة" إلى "أرض الميعاد" باعتبارها مبررًا تاريخيًا لعملية

---

[160] المصدر السابق، ص 75.

[161] المصدر السابق، ص 154.

[162] المصدر السابق، ص 159.

[163] بن غوريون 1989، ص 104.

الاستعمار في فلسطين. وكمثال بسيط على ذلك، كان مصطلح "أرض إسرائيل" حاضرًا في كثير من رسائله التي كتبها منذ العام 1918 وحتى العام 1942.[164]

بالنسبة له، كانت دولة إسرائيل الوارث الطبيعي لمملكة داوود[165] وأرض آباء اليهود وأجدادهم،[166] والوطن القديم الجديد لهم،[167] وتركة اليهود التاريخية[168] التي احتفظ بها العرب مئات السنين،[169] دون أن تصبح لهم، أما "الشعب القديم الذي حان وقت خلاصه، [فـ]ستعود له أرضه التي سلبت منه منذ ألفي سنة".[170]

> نحن نريد حل مشكلة الشعب اليهودي في "أرض إسرائيل". نريد ترسيخ مواقعنا وتثبيت أقدامنا في أرضنا (أرض إسرائيل) مثل أي شعب آخر في أرضه، كالبولنديين في بولندا، وكالبلغاريين في بلغاريا. نحن نطمح إلى جعل أرض إسرائيل أرضًا إسرائيلية والشعب اليهودي شعبًا إسرائيليًا. نحن نطمح في زراعة الشعب في وطنه، وإعادة الأرض إلى الشعب. لذلك يجب على مؤتمر السلام القادم أن يعترف بحق الشعب اليهودي في إقامة وطن له في أرض إسرائيل.[171]

انضم بن غوريون إلى الفيلق اليهودي في الجيش البريطاني جازمًا بأن هذا الفيلق سيشكل النواة التي تعيد "تحرير" أرض فلسطين من يد العرب، لقد كان يرى أن دور هذا الفيلق هو "استرجاع" الأرض.[172] لقد كانت مشاركة الفيلق اليهودي في الحرب العالمية الأولى إلى جانب بريطانيا جزءًا من معتقده بأن هذه الحرب إنما جاءت لأجل استعادة الوطن اليهودي من الفلسطينيين.

---

[164] بن غوريون 1989.

[165] هلسه، تهاني. 1968. دافيد بن جوريون. سلسلة دراسات فلسطينية 44. بيروت: مركز الأبحاث بمنظمة التحرير الفلسطينية. 86.

[166] تيبت 1987، ص 256.

[167] بن غوريون 1989، ص 43.

[168] تيبت 1987، ص 104.

[169] المصدر السابق، ص 20.

[170] المصدر السابق، ص 54.

[171] المصدر السابق، ص 42.

[172] بن غوريون 1989، ص 30.

وقد كان بن غوريون يرى أن هذه الـ"عودة" هي في حقيقته عودة إلى الوطن القديم لليهود، ففي إحدى رسائله كتب:

> أكتب لكما الاثنين من وطننا، وطننا القديم والجديد، على الشاطئ الأخضر للبحر الأبيض المتوسط.[173]

لقد قدم هيرتسل أداة حيوية يمكن للفكر الصهيوني أن يستند عليها في كل الحالات، فحين تنعدم العوامل الجغرافية والسياسية والأخلاقية، تحضر الروابط التاريخية المتخيلة بين الماضي والحاضر. لقد عاود بن غوريون استخدام هذه الأداة أكثر من مرة خلال سنوات طويلة كما يظهر من رسائله:

> وعلى الرغم من أن غالبية المستوطنين في فلسطين لم يفدوا إليها إلا منذ عهد قريب إلا أن اليشوف هي أقدم جالية يهودية في العالم. فبالرغم من دمار بلادنا مرارًا وتكرارًا على يد بابل والاغريق وفارس وغيرهم من الغزاة عبر التاريخ فقد تشبث بقايا اليهود ببلدهم وحافظوا على الرباط بين شعب إسرائيل وأرض إسرائيل وبين آمال اليهود في العودة إلى صهيون.[174]

ينقطع التاريخ عند بن غوريون طيلة ألفي عام، لكنه يتواصل مع السبي البابلي (حوالي العام 500 قبل الميلاد)، وسيطرة الاغريق والفرس على المنطقة. أما الوقت الذي يلي خروج اليهود من أرض فلسطين حوالي 70 ميلادي فهو تاريخ مبتور لا يوجد في قاموس بن غوريون تمامًا كما لا يوجد أية إثباتات تاريخية للنصوص التوراتية التي يستند إليها بن غوريون في تقسيماته التاريخية تلك، كما بين ساند وأبو الحاج من قبل.

واليشوف، رغم أنه حديث النشأة باعتراف بن غوريون، إلا أنه "أقدم جالية يهودية في العالم"، ويغوص تاريخها في عمق التاريخ متجاهلًا تاريخ اليهود في كل بقاع العالم. إن التاريخ بالنسبة لبن غوريون هو

---

[173] المصدر السابق، ص 43.

[174] المصدر السابق، ص 204.

التاريخ الصهيوني، الذي يدّعي صلةً بين اليهود في فلسطين قبل ألفي عام، واليهود الصهاينة في اليشوف الاستعماري. ولذلك ليس من الغريب أن يرى بن غوريون أن الاستيطان في فلسطين حق يهودي.[175] في الواقع، يبرز هذا الحق بالنسبة لبن غوريون من عملية "النفي" التي حدثت لليهود قبل ألفي عام، إذ أن الادعاء الدائم له بأن اليهود قد نفوا من أرض فلسطين قبل ألفي عام، يعني ضمنيًا أن اليهود كانوا هنا، وكان لهم حق في هذا المكان، لكن أحدًا ما (الرومان) سلبهم هذا الحق بالقوة. بحسب بن غوريون، فإن الحق التاريخي والظلم الذي حدث لهم لن يمنعاهما من "العودة" بعد كل هذا الزمان و"استعادة" الأرض التي نفوا منها.

في فراغ الأرض من السكان، وعدم حاجة العرب لها

حملت المشاريع الاستيطانية معها الكثير من الادعاءات حول السكان الأصلانيين. ومن ضمن هذه الادعاءات ما يتعلق بعجز السكان الأصليين، والقدرة الكبيرة للمستعمِر على إحداث التغيير الذي يعجز عنه الأصلانيين. يقول أوسترهامل[176] إن حجر الأساس في عمليات الاستعمار هو تشكيل "أضداد أنثروبولجية"، بمعنى أن المستعمِر يلجأ إلى تشكيل آخرية متخلفة تقوم على أن الآخر غير الأوروبي (الأصلاني) يختلف كليًا عن المستعمِر الأوروبي. ونتاجًا لهذه الأضداد يتحول الأصلاني إلى عاجز جسدي وفكري لا يستطيع القيام بما يمكن للمستعمِر أن يقوم به من أعمال ثقافية وحضارية.

---

[175] المصدر السابق، ص 118.

[176] أوسترهامل. 1998، ص 173.

يمكن العثور على تطبيق لهذه الفكرة في فكر بن غوريون السياسي من خلال التقسيمة التي وضعها بن غوريون لأراضي فلسطين:

> قسم بن غوريون فلسطين إلى قسمين: الأرض الجرداء غير المأهولة والتي تشكل ما بين 80–90% من مساحة فلسطين، والمناطق المأهولة والمستغلة، وبهذه الطريقة يستوطن اليهود المهاجرون الجدد في المناطق الجرداء ويستغلونها.[177]

هكذا كان يرى بن غوريون أرض فلسطين، جزء كبيرٌ غير مأهول بالكامل، وجزء آخر (أقل من 20% من أرض فلسطين) فهو غير مستغل بالطريقة الأمثل، لأن العرب بطبيعتهم غير قادرين على استخدام الأرض وفلاحتها بالطريقة الأفضل:

> إن القسم المستغل من الأرض لا يعطي حاليًا كل إنتاجه، حيث إن العامل والمزارع العربي غير قادر على استغلاله كما يجب، ويتبع الوسائل البدائية، في حين أن اليهود الذين أثبتوا قدرتهم على الزراعة واستغلال الأرض سيستخدمون وسائل حديثة وأساليب زراعية حديثة.[178]

إن ما أراده بن غوريون من تقسيمته تلك هو أن يعطي للمستعمِر الصهيوني الحق في استيطان أرض فلسطين باعتبارها أرضًا غير مأهولة وخالية من الفلسطينيين، ولا يملكها أحد من جهة، ومن جهة أخرى باعتبارها أرضًا لا يحسن العرب فلاحتها وتطويرها. أما اليهود القادمون من أوروبا، فهم يجيدون استغلال الأرض بفعل حصولهم على الوسائل الحديثة التي تمكنهم من العمل في الأرض على عكس الأصلانيين الذين عاشوا في هذه الأرض آلاف السنوات دون أن يتمكنوا من دفعها إلى الإنتاج. عجز الأصلانيون وتفوق المستعمِرون يعطي حقًا استعماريًا في السيطرة على الأرض، ومبررًا أخلاقيًا له من وجهة نظر بن غوريون.

---

[177] تيبت 1987، ص 43.

[178] المصدر السابق، ص 43.

لقد كان هذا العجز الأصلاني عن إحياء الأرض مردّه إلى عاملين من وجهة نظره، الأول أنها منطقة شبه خالية من السكان العرب،[179] والثاني أن العرب لا يجيدون استثمار المناطق القليلة التي يعيشون فيها ولا يحتاجونها:

> أحد الأسباب الأساسية التي حضرنا من أجلها للاستيطان في فلسطين: خلو البلاد النسبي من السكان، وهذا يعطينا إمكانيات كبيرة للاستيطان لا يحتاجها العرب ولن يستغلوها (بسبب عدم حاجتهم لذلك).[180]

في نفي التناقض بين المستعمِر والمستعمَر

إحدى الأفكار الرئيسية في فكر بن غوريون كانت أنه لا تناقض بين الصهيونية والسكان الأصلانيين من العرب. لقد كان بن غوريون يرى بأن المشروع الصهيوني لا يقوم على أي نوع من التناقض مع الفلسطينيين، لأن هذا المشروع الاستعماري إنما جاء بهدف مساعدتهم:

> إن نهضتنا في "أرض إسرائيل" ذاتها، وهذا يعني إحياء العرب الذين يعيشون فيها.[181]
>
> يجب الإشارة إلى أنه لا يوجد أي تناقض تاريخي بين الصهيونية والعرب، إننا لا نستوطن على حسابهم، بل نساعدهم، كما لا توجد هنالك أيضًا تناقضات سياسية: فلسطين هي كل شيء بالنسبة لنا، بينما تشكل بالنسبة للعرب 2% فقط من البلدان العربية، سوف تجد الصهيونية لغة مشتركة مع الحركة الوطنية العربية في المستقبل.[182]

قالها هيرتسل قبله، وها هو بن غوريون يكررها: إن المشروع الاستيطاني الصهيوني سيكون مفيدًا للسكان الأصلانيين، ولن يكون عائقًا أمام تقدمهم. ومع ذلك، كان بن غوريون بين الفترة والأخرى يقوم على إطلاق

---

[179] بن غوريون 1989، ص 74.

[180] المصدر السابق، ص 143–144.

[181] تيبت 1987، ص 24.

[182] المصدر السابق، ص 194–195.

الأوصاف التي من شأنها أن تضع العرب في مواجهة الصهيونية، ومصدرًا للخطر عليها. على سبيل المثال، أطلق بن غوريون بعض الأوصاف على العرب التي تختلف عما ينادي به من عدم وجود التناقض مع السكان الأصلانيين:

> إن سكان قرية كفر كنا المسيحيين تملأهم الكراهية والحقد السام، وإن عرب "أرض إسرائيل" خطر على الحياة (كل عامل يهودي يجب أن يتعلم كيف يدافع عن نفسه).[183]
>
> فقد بدا لي أننا سنترك لمواجهة مصيرنا بعد كل الفظائع التي ارتكبها العرب في فلسطين.[184]

لقد كان بن غوريون سياسيًا بارعًا لا يرغب في أن يظهر بمظهر المعادي للعرب، لكنه في الآن ذاته كان يعلم –على الأقل بينه وبين نفسه– أن الصهيونية والفلسطينيين لا يمكن أن يجتمعا. وقد كان شهر أيار عام 1936 الوقت الذي ظهر فيها التحول الحاسم في خطاب بن غوريون المتعلق بالعرب:

> في 3 أيار 1936 أعلن بن غوريون لأول مرة في حياته السياسية بأن التناقض بين الحركة الصهيونية ومصالح الشعب العربي في فلسطين قائم فعلًا.[185]
>
> يوجد تناقض، وتناقض كبير... نحن الاثنين نريد نفس الشيء، نريد أرض فلسطين، وهذا تناقض أساسي تمامًا.[186]

كانت أحداث الثورة العربية الكبرى وتأسيس اللجنة العربية العليا برئاسة الحاج أمين الحسيني عام 1936 الشرارة التي دفعت بن غوريون إلى تبنى آراء أكثر عنصرية بحق السكان العرب، وإلى إعلان التناقض معهم، وعدم إمكانية التفاهم معهم.[187]

---

[183] المصدر السابق، ص 32.

[184] بن غوريون 1989، ص 100.

[185] تيبت 1987، ص 217.

[186] المصدر السابق، ص 217.

[187] المصدر السابق، ص 204.

أما الظلم الذي قد يلحق بالعرب نتيجة تناقض مصالحهم مع مصالح المشروع الصهيوني فلم يكن مهمًا أو كفيلًا بأن يغير من أفكار بن غوريون:

> كان زعماء حركة أحدوت هعفودا [ين غوريون أحدهم] يحاولون اقناع أنفسهم أيضًا قبل اقناع الآخرين، بأن الظلم الذي عانى منه الشعب اليهودي خلال ألفي سنة من الشتات، هو أكبر بكثير ولا يمكن مقارنته مع الظلم الذي سيلحق بالعرب نتيجة للمشروع الصهيوني.[188]

هنا يصبح العنف الاستعماري مبررًا ضد السكان الأصلانيين، في الوقت الذي يجري فيه تضخيم المعاناة اليهودية، وتقديمها على أنها أكبر من العنف الذي سيلحق بالأصلانيين.

في التوسعية الاستعمارية

يبدو أن فكر بن غوريون الاستعماري كان يتطلع إلى فلسطين باعتبارها الخطوة الأولى في مشروعه الاستعماري، وأن أطماعه الاستعمارية لن تتوقف يومًا ما عن التوسع لتشمل مناطق كثيرة لا تقتصر على الأردن ولبنان، فالأرض والحصول عليها والتوسع في المكان هي الدوافع الرئيسية لإلغاء الأصلاني في المشاريع الاستعمارية الاستيطانية كما يقول وولف،[189] لذا لا غرابة أن نرى في بن غوريون جائعًا للتوسع الاستعماري:

> أما إذا حصلنا [من لجنة بيل] على الجليل بأكمله –وهناك بعض الأمل في ذلك– فسنتمكن من الاستيطان في الجزء التابع للبنان عبر الحدود عند رأس الناقورة.[190]
>
> إن الرأي الذي يطرح أحيانًا حتى في أوساط بعض الصهاينة، بأن شرق الأردن ليست من أرض إسرائيل، ناجم عن جهل تام بتاريخ أرض إسرائيل وطبيعتها.[191]

---

[188] المصدر السابق، ص 90.

[189] Wolfe 2006, 389.

[190] بن غوريون 1989، ص 110.

[191] تيبت 1987، ص 50.

> إن الدولة لن تتقلص بل ستتسع، إن عملنا الآن في هذه البلاد هو تجميع القوة اليهودية من أجل أعمال أوسع في المستقبل.[192]

من المهم هنا التطرق لمصطلح التخوم (Frontier) كما يظهر في مجال الدراسات الاستعمارية الاستيطانية. يقول كولينز[193] إن المشاريع الاستيطانية الاستعمارية تتعامل مع حدود المجتمعات الجديدة (الاستعمارية) باعتبارها لينة، يمكن تطويعها حسب الحاجة. ومن هنا يمكن خلق حقائق على الأرض من خلال تحريك الحدود، أي الخطوط بين ما يدخل ضمن حدود المستعمرة وما يخرج منها، وعبر هذا النقل لا يقوم المستعمِر بعبور الحدود والانتقال إلى مكان آخر، لكن الحدود نفسها تتحرك وتعبر المستعمِر.

ويعتبر هيكمان[194] أن الحدود المفتوحة هي إحدى اللوازم الاستعمارية التي تقدم من خلالها دولة أو مجتمعًا ما مطالبة بالسيادة على إقليم يقع خارج الحدود. وتهدف هذه العملية عادة إلى الحصول على منطقة \ إقليم إضافي\ة والاستقرار فيها تحت حجة أن هذه المنطقة غير مسكونة أو أراضي فارغة (terra nullius)، أو أن لا أحد يطالب بها أو يعترف فيها باعتبارها جزءًا منه.

من هذا المنظور، يصبح إغلاق الحدود بشكل نهائي عاملًا أساسيًا في إحباط عمليات الإلغاء والمحو التي تجري بحق السكان الأصليين في المجتمعات المستعمَرة، وعدم إمكانية التحرك التوسعي المستقبلي.[195] وقد يبدو ذلك توضيحًا لمقولات بن غوريون حول التوسع المستقبلي، كما قد يصلح تفسيرًا لعدم إعلان إسرائيل حدودها النهائية حتى اليوم.

---

[192] المصدر السابق، ص 249.

[193] Collins, John. 2011. Global Palestine. London: C Hurst & Co Publishers Ltd. p57.

[194] Hickman, John. 2012. "Why and How States Open Frontiers." The Journal of Slavic Military Studies 25,1: 1-16, DOI: 10.1080/13518046.2011.624821.

[195] Wolfe 2006, 400-401.

كان بن غوريون قد أعلنها صراحة بأن حدود الدولة اليهودية المقترحة لن تكون دائمة وأبدية،[196] وكان قبوله بمقترحات التقسيم المتكررة (لجنة بيل ولجنة التقسيم 1947 وغيرهما) قبولًا مبدأيًا إلى حين توفر إمكانية للتوسع في المستقبل، أي أن القبول كان منطلقًا له في أعماله الاستعمارية التوسعية المستقبلية.

نتائج الفصل الثاني

اختلفت الطريقة التي ينظر بها بن دافيد بن غوريون نحو العرب، حسب عدة متغيرات أهمها الزمان والمكان والمناسبة. في السنوات الأولى لهجرته إلى أرض فلسطين كان بن غوريون يدّعي بأنه لا تناقض بين الصهيونية و"سكان فلسطين العرب"، لكنه بعد ذلك وشيئًا فشيئًا بدأ ينادي ببناء جيش تكون من مهماته الدفاع الذاتي ضد هجمات العرب المتكررة. بعد الثورة العربية الكبرى عام 1936 انتقل بن غوريون للتحريض المباشر على العرب قائلًا إن العرب لا يريدون التوصل إلى اتفاق وأنهم لن يوافقوا يومًا على إقامة دولة يهودية، كما كان قد انتهى من صياغة نظرياته المتعلقة بتأصيل الجماعات المختلفة في فلسطين والتي شكلت إحدى الميزات الأساسية لخطابه حول الأصلانية، فاليهود هم الأصلانيون والفلسطينيون هم يهود متحولون، والعرب ينتمون إلى الوطن العربي لا إلى فلسطين.

لم يكن يرى بن غوريون بأن هناك تناقضًا بين الصهيونية وبين العرب (حتى عام 1936)، بل كان يدعي أن الصهيونية جاءت لتساعد العرب وتحقق لهم النمو والتقدم والتطوير كما كان مصرًا على أن فلسطين لا تشكل بالنسبة للعرب ما تشكله بالنسبة لليهود، فالفلسطينيون جزء من الوطن العربي وهم بالتالي ليسوا

[196] تيبت 1987، ص 250.

أصلانيين في هذه الأرض، بينما تشكل فلسطين بالنسبة لليهود الوطن الوحيد لهم الذي لا يمكنها العيش بدونه.

خطاب بن غوريون الأصلاني تركّز على مبدأ أصل الفلاحين الفلسطينيين الذي نسبه إلى اليهود القدامى الذين غادروا البلاد قبل حوالي 2000 سنة، قائلًا إنهم غيروا دينهم بعد الفتح/الاحتلال الإسلامي للمنطقة خوفًا من قتلهم على يد المسلمين، لكنهم في الحقيقة كانوا يهودًا رفضوا الخروج من أرض فلسطين. بعد ذلك تحول الخطاب المتعلق بهم بتحويل الأصلانيين إلى جيران (أي خارجيين)، فالصفة الأساسية لهم لا تعدو عن كونهم "جيرانًا"، وبالتالي لا تربطهم أي علاقة بالأرض سوى أنهم يعيشون بجانبها.

من ناحية ثانية كان يدعي بن غوريون بأن الحق التاريخي لليهود الذي يؤمن به لا يكفي لوحده للحصول على أحقية حالية ومستقبلية لملكية اليهود للأرض، بل قال إن العمل اليهودي هو الذي يمكن اليهود من الحصول على أحقية دائمة على الأرض، وهو الذي يعطي المبرر للوجود الاستعماري الصهيوني على أرض فلسطين. في هذا الشأن، يمكن القول بأن معظم المشاريع الاستيطانية استخدمت الخطابات المتعلقة باستغلال الأرض وتطويرها كمبررات يمكن أن تقدم كسابقة لعملية الاستيطان، بهدف التهرب من القضايا الأخلاقية التي قد تنشأ نتيجة لهذا الاستعمار مدعيةً دورًا تاريخيًا في تطوير المناطق غير المتطورة في العالم ضمن مفهوم "عبء الرجل الأبيض".

الفصل الثالث: غولدا مائير

تعتبر غولدا مائير إحدى أكثر رموز الحركة الصهيونية تطرفًا،[197] التي تعارض فكرة السلام مع العرب بشكل نهائي، وقد عرف عنها أنها قالت ذات مرة: "كل صباح، أتمنى أن أصحو ولا أجد طفلًا فلسطينيًا واحدًا على قيد الحياة".[198] سيحاول هذا القسم تتبع خطاب الأصلانية لدى مائير كما ظهر في كتابها "اعترافات جولدا مائير" الذي يشكل سيرة ذاتية لها.

[197] كامل 2008، ص 297.

[198] المصدر السابق، ص300.

في "العودة" باعتبارها حلًا للمسألة اليهودية

على غرار غيرها من الزعامات الصهيونية، تسير غولدا مائير على ذات المنوال، إذ ترى في الصهيونية حلًا نهائيًا للمسألة اليهودية، ومخلصًا لليهود في كل أنحاء العالم من الظلم والاضطهاد الذي يلاحقهم أينما حلوا. إن المعاناة المرتبطة باللاسامية –في أوروبا الشرقية خاصة– تلعب دورًا كبيرًا في التبرير الذي يقدمه الصهاينة عن استعمارهم فلسطين على مرحلتين: الأولى، أن الحاجة إلى الاستعمار هي حاجة ملحة للقضاء على معاناة اليهود وعلى الظلم الحاصل بحقهم. والثانية، هروبًا من المسؤولية الأخلاقية التي قد تنتج عن هذا الاستعمار بحق السكان الأصليين، فكيف لمشروع إنساني يهدف للقضاء على معاناة شعب ما أن يظلم شعبًا آخر، أو أن يسبب له المعاناة:

> لن تحل [المسألة اليهودية] إلا إذا حصل اليهود مرة ثانية على وطن لهم، وكان واضحًا أن هذا الوطن لا يمكن إلا أن يكون أرض صهيون، الأرض التي نفي منها اليهود قبل ألفي عام. والتي ظلت مع ذلك مركزًا روحيًا لليهودية عبر القرون. وعندما كنت طفلة كانت هذه الأرض وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى مقاطعة مهجورة ومهملة في الامبراطورية العثمانية تدعى فلسطين.[199]

إن المزاعم حول فراغ الأرض الفلسطينية وهجرانها من السكان تعني أن السكان الأصليين كانوا مهملين لها ولا يجيدون استخدامها أو الانتفاع بها، هذا الخطاب يعيد نفس المزاعم الاستعمارية حول فراغ الأرض من الأصلانيين وتحويلهم إلى غرباء التي طرحها صهاينة آخرون.

إن هذا الحل "الجذري للمسألة اليهودية" الذي تريده مائير يرتبط بالظلم التاريخي الذي عايشه اليهود قبل ألفي عام، وبالتالي ورغم أنه جاء حلًا جذريًا لمشكلة ما، إلا أنه أيضًا جاء استعادة لحق تاريخي قديم لأن اليهود

---

[199] مائير، جولدا. 1978. اعترافات جولدا مائير ترجمة عزيز عزمي. القاهرة: مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر، 56.

لم يتنازلوا عبر التاريخ عن حقهم في أرض فلسطين، وظلوا مرتبطين روحيًا بها رغم أنهم نفوا منها بالقوة[200] حسب غولدا مائير.

لقد كتب إسرائيل شاحاك[201] ما يفند كل هذه الأقوال، قائلًا إن الادعاء القائم على دعوى الاضطهاد الأزلي لليهود لا أساس له من الصحة، لأن معظم المذابح التي ارتكبت ضد اليهود لم تكن لأسباب لا سامية كما تدعي الصهيونية، بل كانت حركات "شعبية" تثور ضد نخب حاكمة يشارك فيها اليهود باستغلال واضطهاد الفقراء. وبالتالي، يبدو أن تركيز مائير وغيرها من قادة الصهيونية على دعاوى الاضطهاد الأوروبي كانت تهدف للقول بأن أوروبا ليست وطنًا لليهود، وأن اليهود لا ينتمون إليها. هنا، يعود التناقض الصارخ لدى الصهيونية التي تزعم أنها لا تنتمي إلى أوروبا لتكون في فلسطين، قبل أن تعود للقول إنها أوروبية الثقافة، بما يظهر عري خطابهم الأصلاني، ومتناقضاته بشكل كبير.

في الربط بين الماضي والحاضر

يظهر التسلسل التاريخي الذي أجريناه ابتداءً من هيرتسل، ومرورًا ببن غوريون، وانتهاءً بمائير تركيز القيادات الصهيونية على ربط الماضي بالحاضر. إن هذه السنة التي سنها هيرتسل في روايته "أرض قديمة جديدة"، تظهر لدى معظم قادة الصهيونية الأوائل الذين يعملون على الربط اللا محدود بين القديم والجديد، بين التاريخ والحاضر. من جهة، يسهم ذلك في إقناع اليهود بأن هذا المكان يعود فعلًا لليهود، فقد عاشوا فيه وطردوا منه عنوة، ومن جهة ثانية فهو مبرر للاستمرار في المشروع الاستعماري مستقبلًا، لأن اليهود "عادوا" ليقيموا دولتهم ويعيشوا فيها للأبد، لا لكي يتخلوا عنها:

---

[200] المصدر السابق، ص 51.

[201] شاحاك، إسرائيل. 1997. الديانة اليهودية وتاريخ اليهود: وطأة 3000 عام. ترجمة: رضى سلمان. ط2. بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر. ص114-118.

> ولم أبتهج في حياتي قدر سعادتي في أول ليلة جمعة نقضيها في تل أبيب في الشوارع .. فها أنذا في المدينة اليهودية الصرفة في العالم، التي يشترك الجميع فيها – بأعمق معنى– لا في الماضي المشترك فحسب بل أيضًا في الأهداف المشتركة للمستقبل.[202]

التركيز في الخطاب الصهيوني على الماضي "المجيد" لفلسطين تحت الحكم اليهودي، والذي لم يثبت في الاكتشافات الأثرية كما أضحنا سابقًا، يلعب دورًا كبيرًا في الملائمة بين الديانة اليهودية باعتبارها الديانة القديمة المرتبطة بأرض فلسطين مع الصهيونية الاستعمارية. ومن خلال هذا التلاؤم يمكن أن يصبح الاستعمار الصهيوني لفلسطين ذا مشروعية دينية وتاريخية بالنسبة لليهود، خاصة من خلال تحويل ماضي اليهود في فلسطين إلى ماضي صهيوني:

> وذات مرة زرت الحائط الغربي (المبكى) ولم تكن تلك أول مرة. ولقد تربيت في بيت يهودي طيب، لكني لم أكن شخصيًا ورعة، إنما ذهبت لأني كنت أعلم أن هذا شيء يجب أن أفعله. كان الحائط أصغر مما هو عليه الآن بعد كل أعمال التنقيب حوله. لكنني رأيت لأول مرة اليهود، رجالًا ونساءً، وهم يبكون أمامه أثناء وضعهم الالتماسات داخل شقوقه. إذًا فهذا هو ما تبقى من المجد التليد، أو ما بقي من معبد سليمان. لكنه على الأقل ما زال موجودًا.[203]

يعني ذلك، بالنسبة لغولدا مائير وغيرها من الصهاينة، أن "الأمة" اليهودية ذات التاريخ المشترك لها الحق في "العودة" إلى فلسطين لإقامة دولتها الدينية المزعومة. وبما أن تاريخ اليهود وتاريخ الصهيونية متماهيان في الفكر الصهيوني تصبح المعاناة مشتركة، ويصبح الزعم بارتباط اليهود بأرض فلسطين مبررًا لعملية الاستعمار على اعتبار أن اليهود كانوا بالأساس شعبًا واحدًا وحّدته الصهيونية. بالنسبة لمائير، ثمة تداخل بين الحنين إلى أرض فلسطين من اليهود، وبين الشوق الاستعماري والرغبة في إقامة المستعمرات على أنقاض السكان الأصلانيين.

---

[202] مائير 1978، ص 95.

[203] المصدر السابق، ص 108.

لقد ظلت جولدا مائير طيلة حياتها حريصة على الربط بين ماضي اليهود وحاضر الدولة الاستعمارية، ولم تألُ جهدًا في سبيل إقناع دول العالم بأحقية "السكان الأصلانيين" الصهاينة بأرض فلسطين بعد أن طردوا منها. في أحد لقاءاتها الدبلوماسية مع الرئيس الأمريكي الأسبق جون كينيدي، تطرقت مائير للموضوع في محاولة منها لإقناع كينيدي بدعم دولتها الاستعمارية بالمال والعتاد:

> وبدأت بالحديث عن الموقف الراهن في الشرق الأوسط، ثم قررت انتهاز الفرصة فأخذت أحدث كينيدي عن تاريخ اليهود عبر ثلاثة آلاف عام إلى أن قامت إسرائيل، مبينة له أننا لو فقدنا استقلالنا هذه المرة، ثانية، فلن تقوم لنا قائمة بعد ذلك أبدًا.[204]

التاريخ في الخطاب والفكر الصهيونيين يتقطع حسب الحاجة، فهو تاريخ مبتور يقتصر على التاريخ الاستعماري المرغوب. ولذلك ليس من الغريب أن يتحول تاريخ مدينة الخليل إلى تاريخ مرتبط باليهود فقط،[205] فهو يبدأ من أن المدينة كانت عاصمة للملك داوود، ثم يغيب تاريخ المدينة بعد أن طرد منها اليهود على يد الصليبيين، ولكن اليهود ظلوا موجودين فيها إلى أن اقتلعتهم الاضطرابات العربية في ثورة البراق 1929. هذا الادعاء يحمل تصريحًا واضحًا بالأصلانية اليهودية في المكان، إذ تدّعي مائير أن اليهود اقتلعوا من المدينة أكثر من مرة حتى خلت المدينة منهم بالكامل. لكن هذا لا يعني –بالنسبة لمائير– انتفاء حقهم فيها أو "بالعودة" إليها، ولذا تبقى المدينة الفلسطينية ملكًا حصريًا لليهود وللمشروع الاستعماري الصهيوني، الذي يفترض خروج اليهود منها بغير إرادتهم.

الحاجة للسيطرة على الماضي والتاريخ تتضمن –بشكل غير مباشر– رغبة في السيطرة على المستقبل. إن المبررات التي يقدمها الصهاينة للعلاقة التاريخية بين اليهود والمكان في فلسطين إنما هي –في واقع الأمر–

---

[204] المصدر السابق، ص 237.

[205] المصدر السابق، ص 298.

مبررات للسيطرة المستقبلية على الحيز الجغرافي، فالمستعمِر يأتي لكي يبقى كما يقول باتريك وولف،[206] لأن المستقبل بالنسبة للمستعمِر يعني الحفاظ على نجاح مشروعه الاستعماري، ونجاح أفكاره الأصلانية:

> ولست أعلم ما هي أشكال ممارسة اليهودية التي سوف يزاولها اليهود في المستقبل، في إسرائيل وغيرها، بعد ألف عام من الآن. لكنني أعلم أن إسرائيل ليست فقط مجرد دولة صغيرة محاربة يحاول فيها ثلاثة ملايين أن يظلوا على قيد الحياة، بل هي دولة جاءت إلى الوجود لتضم جزءًا من يهود العالم، ولتغير التاريخ اليهودي إلى الأبد.[207]
>
> أما رؤيتي لمستقبلنا؟ فهي أن نكون دولة يهودية تستمر جماهير اليهود من كل أنحاء العالم في الاستيطان والبناء فيها. أن تكون إسرائيل مرتبطة بجهد تعاوني مشترك مع جيرانها وأن تظل ديمقراطية مزدهرة ومجتمعًا يرتكز بقوة على العدل والمساواة.[208]

إن محاولة لعب دور الضحية بشكل دائم، ما هو إلا جزء من الحملة الدعائية التي تحاول الصهيونية أن تروج لها بوصفها مبررًا لممارساتها.

في إنسانية الاستعمار

تعتبر جولدا مائير المشروع الاستعماري الاستيطاني الصهيوني مشروعًا إنسانيًا لسببين: الأول أنه مشروع جاء لتخليص اليهود من الاضطهاد العالمي، وتخليصهم من الظلم الذي يلحق بهم، والثاني أنه مشروع سيعود على البشرية بالخير العام.

أهمية المشروع الاستيطاني الصهيوني لليهود يحتل جزءًا كبيرًا من مشروع مائير الفكري، فهي تسير على ركب القائلين بأن دولة اليهود تهدف بالأساس إلى تخليص اليهود من الاضطهاد، وهي حجة استخدمتها

---

[206] Wolfe 2006, 388.

[207] مائير 1978، ص 361.

[208] المصدر السابق، ص 362.

المشاريع الاستعمارية بشكل مستمر عبر التاريخ، فالمشروع الاستعماري لا يخرج دائمًا رغبة في التوسع والغزو، بل أيضًا بدعوى وجود ضغوط يتعرض لها في بلده الأصلي.[209]

الاستعمار كعمل انساني لإنقاذ اليهود من المذابح العالمية

ليس من الغريب أن تستخدم الصهيونية الهولوكوست كذريعة لتبرير المشروع الاستعماري في فلسطين، رغم أن الحادثة وقعت بعد عشرات السنوات من ظهور الصهيونية إلى العلن. لقد كانت المعاناة اليهودية في أوروبا الشرقية –الهولوكوست النازي بشكل خاص– غنيمة للصهيونية استخدمت بشكل كبير جدًا في الترويج لدولة إسرائيل على أنها دولة الخلاص للصهاينة، وفي دفع الكثير من اليهود إلى الهجرة من دولهم إلى إسرائيل وقطع الصلة بشكل كامل مع دولهم الأم في العالم. في الوقت ذاته لعب الهولوكوست دورًا في تصوير إسرائيل باعتبارها "دولة بعد فوات الأوان" لليهود حتى لأولئك الذين لم يزوروا إسرائيل من قبل، وخلق تصور باعتبارهم السكان الأصليين لهذه البلاد بعد قطع علاقاتهم مع بلدانهم الأصلية بالكامل.[210]

لقد رأت الصهيونية في مشروعها الاستعماري مخرجًا وحيدًا للمأزق اليهودي الذي كانت تنادي بقدرتها الحصرية على حله:

> كان سيصبح ممكنًا انقاذ بضعة آلاف من الملايين الستة [في الهولوكوست]، ولكان العالم قد تحرر من تلك التهمة البشعة بأن أحدًا لم يرفع إصبعه لمساعدة اليهود وإخراجهم من محنتهم.[211]

---

[209] أوسترهامل 1998، ص21.

[210] Abdo & Yuval–Davis 1995, 317.

[211] مائير 1978، ص 144.

كانت ترى مائير بأن مشروعها الاستعماري كان كفيلًا بأن يخلص العالم من التهمة بأنه لم يقدم المساعدة لليهود الذين لقوا حتفهم في المحرقة، لو أن العالم –بريطانيا خاصة– أتاح لهم إمكانية إنقاذ اليهود من هتلر. من هذه الناحية فقط، يمكن تصوّر المشروع الاستعماري الصهيوني باعتباره الخلاص لليهود، والضامن لعدم تكرار هذا الحدث:

> بل إنني أعتقد أن وجود إسرائيل في حد ذاته ضمان حتى لا تتكرر المجزرة.[212]
>
> إن محاكمة أدولف أيخمان في القدس عام 1961 كانت –على ما أعتقد – عملًا كبيرًا وضروريًا من أعمال العدالة التاريخية ... لقد كنت –وما زلت– مقتنعة كلية بأن الإسرائيليين فقط هم أصحاب الحق في محاكمة أيخمان بالنيابة عن يهود العالم.[213]

بهذا المعنى، تصبح الدولة الاستعمارية إسرائيل الممثل الشرعي لليهود في كل العالم، والكفيل الذي يضمن ألا تتكرر الحادثة مستقبلًا، لدرجة أن مائير اعتبرت أن انتصار إسرائيل في حرب عام 1967 على الدول العربية كان بمثابة منع حدوث مذابح جديدة شبيهة بالهولوكوست بحق اليهود.[214]

لا يبدو أن إسرائيل ستتوقف مستقبلًا عن التلويح بأهمية وجودها لمواجهة خطر إبادة اليهود من أية جهة كانت. في هذا الشأن، كتب نورمان فينكلستين[215] كتابًا عن استغلال الصهيونية لمعاناة اليهود في الهولوكوست في صناعة تصور عالمي يقدم إسرائيل كضحية رغبة في الاستفادة من هذا الحدث التاريخي في المشروع الصهيوني، ورغبة في تقديم السياسات "الإجرامية" لدولة إسرائيل كالتعذيب بحق الفلسطينيين والعدوان عليهم على أنها دفاع عن النفس في مواجهة "الرغبة العالمية في القضاء على اليهود".

---

[212] المصدر السابق، ص 152.

[213] المصدر السابق، ص 154.

[214] المصدر السابق، ص 269.

[215] Finkelstein, Norman G. 2000. The Holocaust industry: reflections on the exploitation of Jewish suffering. London: Verso.

في مساهمة الاستعمار الإنسانية

المكون الثاني لإنسانية المشروع الصهيوني –بالنسبة لمائير– يقوم على الخير العام الذي يمكن أن تقدمه الدولة الاستعمارية للإنسانية. ولذا فإن دور هذه الدولة لا يقتصر على الخير الذي ستجلبه للإنسانية،[216] بل يمتد إلى مد يد العون لكل محتاج لها في الشرق الأوسط.[217] وقد وصل بها الأمر إلى اعتبار أن الحرب العربية على إسرائيل ستعود بالضرر على شعوب الدول العربية،[218] لأنها ترى في مشروعها الاستعماري خيرًا للعالم أجمع بما فيها شعوب المنطقة.

وقد استخدمت مائير الأسلوب ذاته بعد العدوان الثلاثي على مصر عام 1956، إذ قالت في خطابها أمام الأمم المتحدة:

> فطلبت نسخة من نص حديثه [مندوب مصر في الأمم المتحدة] وانطلقت منها في كلمتي إلى رسم صورة المستقبل في المنطقة فيما لو وفرنا ثمن السلاح وكرسناه لمحو الأمية وتنمية المنطقة ورفاهيتها، وطالبت بإحلال السلام مكان الحقد من أجل سعادة كل شعوب المنطقة.[219]

استخدمت مائير في خطابها مصطلحات "محو الأمية" و"التنمية" و"الرفاهية" و"السلام" و"السعادة"، وهي مصطلحات تشير إلى سعي المشروع الاستعماري إلى العمل على تحقيق تقدم وتنمية الشعوب العربية المحيطة. هذا الخطاب كان حاضرًا في معظم المشاريع الاستعمارية تمامًا كما ظهر لدى الصهيونية.

كانت الصهيونية ترى أن استخدام المصطلحات الإنسانية الفضفاضة من شأنه أن يقدم المشروع الاستعماري تحت مغلف الإنسانية والأخلاقية، وهو ما يعطي تبريرًا مقنعًا بأن أهدافه إنسانية لا استعمارية، وبأنه لم يقم على العدوان على العرب:

---

[216] مائير 1978، ص 72.

[217] المصدر السابق، ص 173.

[218] المصدر السابق، ص 295–296.

[219] المصدر السابق، ص 233.

> إن هذا البرنامج [برنامج التعاون الدولي الإسرائيلي والمعونات الإسرائيلية لأفريقيا] في نظري يمثل تجسيدًا للعدالة الاجتماعية والتعمير وهذا هو لب الصهيونية العمالية واليهودية. لقد ذهبنا إلى أفريقيا بنفس روح الرواد والطلائع التي حملتنا إلى مرحافيا في العشرينيات.[220]

وهكذا، يبدو الاستعمار الصهيوني لفلسطين إنسانيًا ومحبًا للخير، فهو لم يذهب إلى فلسطين لإنشاء المستعمرات فيها رغبة في التوسع الاستعماري والسيطرة، بل تطبيقًا لروح الريادية والطلائعية التي حملتها الصهيونية معها من أوروبا، وهي الطلائعية ذاتها التي ذهبت بها إلى أفريقيا. تتقاطع هذه الادعاءات مع ادعاءات أخرى بالريادية ذكرتها جولدا مائير في موضع آخر اعتبرتها اسهامًا صهيونيًا بتحرر المرأة اليهودية قبل تحررها في أماكن أخرى من العالم، بما يشكل ميزة إضافية لهذا المشروع الاستعماري:

> وكنت أسعد بالعمل في المطبخ في حين لم تكن النساء يحببن ذلك، إذ كن يردن القيام بنفس الأعمال التي يقوم بها الرجال. وهكذا فإن نساء الكيبوتز سبقن أي حركة تحرر للمرأة بنصف قرن من الزمان.[221]

الهدف من ذلك، بالنسبة لمائير كان تقديم مبرر أخلاقي للاستعمار يقوم أساسًا على تقديم الحلول للمشاكل العالمية،[222] تمامًا كما أسهم المشروع الصهيوني في حل مشكلة اليهود حول العالم:

> وحاول العرب من جانبهم آنئذ أن يقنعوا الأفريقيين بأننا لا نختلف أساسًا عن غيرنا من "الاستعماريين" غير أن الأفريقيين فهموا جيدًا أن الخبراء الإسرائيليين عندما عملوا في مزارع الدجاج في زامبيا لم ينتجوا دجاجًا "استعماريًا" أو أن مشروع تعبئة السمك مع مالي لم ينتج سمكًا "إمبرياليًا".[223]

---

[220] المصدر السابق، ص 243.

[221] المصدر السابق، ص 99.

[222] المصدر السابق، ص 248.

[223] المصدر السابق، ص 248.

في إنكار السرقة والعنف مع الفلسطينيين

إحدى أهم الأفكار المتعلقة بإنسانية المشروع الاستعماري هي أنه لا يمكن أن يقوم بأي شيء عنيف أو عدواني ضد السكان الأصلانيين، بما يمثل إنكارًا للأذى الذي ينتج بالضرورة عن المشروع الاستعماري. ولذا أنكرت مائير أي عدوان على الفلسطينيين. واتخذ هذا الانكار شكلين: الأول إنكارًا لسرقة الأراضي الفلسطينية لإقامة المستوطنات اليهودية –الدولة لاحقًا– عليها، وإنكارًا لأن يكون المستوطنون قد أساءوا معاملة السكان الأصليين.

قدمت مائير المشروع الاستعماري الصهيوني في فلسطين على أنه عمليات واسعة من شراء الأراضي، وأنكرت حقيقة سرقة الأراضي بشكل مطلق، مدعية أن عمليات الشراء هذه أسهمت في إثراء الكثير من العرب:

> وابتداء من عام 1904 بدأ الشعب اليهودي –بهذه العملات– يشتري مساحات شاسعة من فلسطين. وتعالوا نفكر في ذلك الذي مللت من سماعه. وهو أن اليهود "سرقوا" الأرض من العرب في فلسطين. فالوقائع تختلف عن ذلك. فلقد أثري الكثير من العرب بعد أن دفعت الأموال الطائلة لشراء الأرض.[224]

قد يرى المشروع الاستعماري الصهيوني بأن شراء الأراضي من الأصلانيين كان من الميزات التي قدمها المشروع الاستعماري لهم، لكنه يتجاهل أن نتاج هذه العمليات كانت تشريد الأصلانيين من أراضيهم، وقضاء عليهم. ورغم ذلك فقد أنكرت معظم الأبحاث التي أجريت حول هذا الموضوع، أن الصهيونية اشترت من الفلسطينيين أراضيهم، وتذكر معظم المصادر أن نسبة الأراضي التي اشترتها الحركة الصهيونية من الفلسطينيين لم يكن يتجاوز 5–6.4% من أراضي فلسطين.[225]

---

[224] المصدر السابق، ص 96.

[225] عبدالحميد، مهنّد. 2015. اختراع شعب وتفكيك آخر: عوامل القوة والمقاومة – والضعف والخضوع. رام الله: مركز مسارات، ص53.

على أية حال، هذه الدعاية التي قدمتها مائير كانت إحدى حلقات المزاعم بأن المشروع الاستعماري الصهيوني كان إنسانيًا في تعامله مع الأصلانيين. الحلقة الأخرى كانت إنكار إساءة معاملة الفلسطينيين في إسرائيل. تصف مائير أحداث لقائها مع بابا روما في يناير 1973 قائلة:

> لم يحدث أننا أسأنا معاملة العرب في الأراضي المحتلة. فليست هناك في إسرائيل عقوبة الإعدام، وكل ما فعلناه أننا وضعنا في السجون أولئك الذين يشجعون الإرهاب أو نسفنا منازلهم بعد تحذيرهم مرارًا، أو طردنا بعضهم.[226]

بالنسبة لمائير، إن عدم وجود عقوبة الإعدام في إسرائيل يكفي لوصف إحسان معاملة الفلسطينيين [العرب] فيها. أما فيما يتعلق بأولئك الذين يشجعون "الإرهاب"، وهو أي فعل مقاوم للمشروع الصهيوني، فقد اقتضت "الإنسانية" الصهيونية أن تنسف منازلهم أو أن تطرد بعضهم، وهو فعل تراه إنسانيًا في مواجهة "المعتدين الإرهابيين".

أي كلام يتعلق بالممارسات الإسرائيلية بحق الفلسطينيين يُساق في مواجهته فورًا الممارسات النازية بحق اليهود، بطريقة توحي بأن تاريخ اليهود البائس يعطي مبررًا أخلاقيًا لأي سلوك استعماري بحق الفلسطينيين، بل يتجاوز ذلك –عند مائير– ليصل إلى أن هذا التاريخ هو الذي علم الصهاينة معاني الرحمة! قالت مائير في نفسها ردًا على كلام البابا:

> دعني أؤكد لك أن شعبنا يعرف معنى "الفظاظة" وقد تعلمنا معنى **الرحمة** ونحن نساق إلى غرف الغاز النازية.[227]

---

[226] مائير 1978، ص 301.

[227] المصدر السابق، ص 301.

في فلسطينية اليهود

ورد في يوميات\اعترافات جولدا مائير الكثير من المواقف التي تظهر اعتقادها بأن أي صهيوني يدخل إلى أرض فلسطين رغبة في إقامة المستعمرات عليها يتحول إلى فلسطيني مباشرة. إن هذا الادعاء خطير جدًا لأنه يقوم على تصوير اليهودي المستعمِر كأصلاني في المكان، في الوقت الذي تستخدم فيه اسم المكان الأصلي "فلسطين" كصفة له. إن هذا الربط بين فلسطين وبين اليهودي المستعمِر يقوم على تجريد العربي الفلسطيني من هويته الثقافية التي تعود إلى فلسطين. وفي الوقت ذاته فهو يقوم على ربط المستعمِر بالمكان والجغرافيا.

إن أي يهودي يهاجر من أي بقعة جغرافية من العالم إلى فلسطين يتحول إلى يهودي فلسطيني، لكن الفلسطيني الموجود سلفًا في المكان فهو عربي لا يمت لفلسطين بصلة، وهي صفة تبرز بشكل واضح لدى مائير –كغيرها من قيادات الصهيونية– في الفصل الواضح بين الفلسطيني وفلسطين:

> وكنت أنتهز كل فرصة لكي أستمع إلى هؤلاء الفلسطينيين [اليهود القادمين من فلسطين والمقصود هنا بن غوريون وتسيفي]، وهم يجتمعون حول المائدة يغنون باليديش ويجيبون على أسئلتنا عن فلسطين بكل صبر.[228]
>
> وخلال الحرب [العالمية] وبعدها، لم ألق يهوديًا فلسطينيًا واحدًا يرفض تقديم أية تضحية في سبيل الوصول إلى يهود أوروبا وإخراجهم سالمين.[229]
>
> وهكذا عمل عشرات الآلاف من شباب اليهود الفلسطينيين خلال الحرب كسائقين وممرضين. وكانوا يعاملون على أساس أنهم فلسطينيون لا يهود.[230]
>
> ومع انتقال الموقف الحربي من سيء إلى أسوأ، أصبح المجهود الحربي يستوعب المزيد من اليهود الفلسطينيين.[231]

---

[228] المصدر السابق، ص 80.

[229] المصدر السابق، ص 144.

[230] المصدر السابق، ص 146.

[231] المصدر السابق، ص 146.

ولقد قام يهود فلسطين بأعمال كثيرة خلال الحرب [العالمية].[232]

في غزو العرب للأرض

ترى جولدا مائير بأن العرب المحيطين بدولة إسرائيل حاولوا مرارًا أن "يغزوا" دولة إسرائيل. وبالرغم من أنها كانت تدعي أن الفلسطينيين كانوا عربًا ولم يكونوا "عربًا فلسطينيين" إلا أنها ترى أن المحاولات العربية لتحرير فلسطين من الاستعمار كانت غزوًا.[233] وإذا تماشينا مع خطابها القائل بأن العرب يحاولون استرجاع أرضهم (لأن الفلسطينيين هم عرب) يمكن القول إنها تسمي عمليات التحرير غزوًا، وبالتالي يتحول المحَرر إلى غازٍ، فيما يتحول الغازي إلى أصلاني.

إن التداخل بين تعريفات الفلسطيني والعربي والفلسطيني العربي لدى مائير يضعها في موقف محيّر، فالفلسطيني غير موجود، والعربي داخل فلسطين يختلف عن العربي من خارج فلسطين، والعربي من خارج فلسطين غازٍ، ومحرَر أرضه غاز، أما اليهودي فوحده هو الفلسطيني. يتضح من ذلك أن اطلاق الأوصاف والمصطلحات كان انتقائيًا إلى حد كبير لدى مائير، وبما يخدم أهداف المشروع الاستعماري الصهيوني الذي يقوم بجوهره على إلغاء الفلسطيني.

في أن العرب لا يريدون الأرض

استمرارًا للخطاب الاستعماري الذي تمارسه جولدا مائير بحق السكان الأصلانيين، تجاهر باعتقادها أن العرب لم يكونوا يريدون الأرض، وبأنها ليست شيئًا هامًا بالنسبة لهم. إن هذا الخطاب الذي يحمل في طياته

---

[232] المصدر السابق، ص 147.

[233] المصدر السابق، ص 182–183، 195.

فكرة مغلوطة بالكامل، اقترن بفوقية المستعمِر، وبالزعم الدائم بأن الاستعمار جاء لينقل الحضارة إلى البلد المستعمَر:

> ثم ما الذي فعلناه كتهديد للدول العربية؟ صحيح أننا لم نوافق على إعادة الأراضي التي ربحناها خلال الحروب التي بدأوها لكن الأرض ليست هي الشيء المهم لدى العرب. فماذا إذن؟ هل هي رغبة حارقة في تصفيتنا جسديًا؟ هل هو الخوف من التقدم الذي يمكننا أن نقدمه في الشرق الأوسط؟ هل هي كراهية الحضارة الغربية؟[234]

وفي الوقت الذي تشير فيه إلى عدم أهمية الأرض بالنسبة للفلسطينيين، تعود لتؤكد أن العرب يكرهون الصهيونية لأن الأخيرة تمثّل الحضارة الغربية، فيما يمثّل العرب الحضارة الشرقية.

في التهرب من المسؤولية

إحدى أهم اللوازم التي رافقت معظم المشاريع الاستعمارية كان محاولة التهرب الدائمة من المسؤولية الأخلاقية التي تتبع عملية الاستعمار. المشروع الصهيوني، وهو أحد هذه المشاريع، حاول التملص من نتائج استعماره مدعيًا بأن اليهود لم يكونوا المسؤولين عن هذا الحدث.

ويظهر من تتبع أقوال مائير أنها كانت تختلق الأكاذيب رغبة في الحيلولة دون تحمل أية مسؤولية عن الممارسات التي انتهجتها بلادها بحق السكان الأصلانيين.

بداية، حملت مائير مسؤولية ما أسمته إراقة الدماء في المنطقة بعد إعلان بلفور لحكومة الانتداب البريطاني وللإعلان ذاته:

> وبرغم أن العبارات الغامضة التي جاءت في هذه الرسالة [إعلان بلفور] كانت مسؤولة عن إراقة الدماء بلا نهاية في الشرق الأوسط، فإن الصهيونيين في تلك الأيام رحبوا بها باعتبارها

---

[234] المصدر السابق، ص 191.

> على الأقل إرساء لقواعد الكومنولث اليهودي في فلسطين. ومن البديهي أن هذا الإعلان ملأني بالبهجة .. لقد انتهى النفي اليهودي.[235]

ثم بعد ذلك، حاولت أن تتهرب من مسؤولية عمليات الطرد التي نفذت بحق الفلسطينيين أثناء حرب العام 1948 قائلة إن العرب (الفلسطينيين) غادروا أراضيهم نتيجة دعوات قيادات الجيوش العربية للفلسطينيين بالخروج من قراهم:

> وإن الدماء لتغلي في عروقي كلما سمعت ما يقال عن القسوة التي عاملنا بها العرب. وأذكر جيدًا أنني وقفت في شهر أبريل (نيسان) 1948 على شاطئ حيفا أناشد العرب ألا يرحلوا عنها، وكانت الهاجانه قد احتلتها، ونصح القادة العرب أتباعهم بمغادرتها. ولم تفلح مساعي الهاجاناه في إقناع العرب بالبقاء رغم استخدام مكبرات الصوت على العربات التي جابت أنحاء المدينة تردد باستمرار "لا تخافوا".[236]

يكذب المؤرخ الصهيوني بيني موريس مائير قائلًا إن 6 قرى فلسطينية فقط خرج ساكنوها منها بناء على أوامر من الجيوش العربية، أما بقية القرى التي تم تهجيرها وطرد السكان منها (وهي قرابة 400 قرية) فقد فرغت من أصحابها كنتيجة مباشرة لممارسات العصابات الصهيونية من قتل وتدمير وطرد.[237]

لكن مائير تستمر في محاولاتها التنكر لما فعلته الصهيونية، قائلة إن المزاعم حول أعداد اللاجئين الفلسطينيين غير دقيقة، وهي بذلك تحاول أن تقدم أرقامًا أخرى:

> وهناك ادعاء آخر بأن هناك ملايين من اللاجئين الفلسطينيين .. وهذا ادعاء غير أمين .. فمجموعهم لا يزيد على 590000 لاجئ. ولم نكن نريد رحيلهم، أولًا لنثبت لهم أن حياة اليهود والعرب سويًا أمر ممكن، وثانيًا لكي لا نحدث هزة اقتصادية خطيرة في البلد. لقد وجد

---

[235] المصدر السابق، ص 84.

[236] المصدر السابق، ص 216.

[237] موريس، بيني. 2013. مولد مشكلة اللاجئين: الجزء الثاني ترجمة عماد عواد. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. ص346-361.

> اللاجئون الفلسطينيون كنتيجة لرغبة العرب ومحاولاتهم تدمير إسرائيل، ولم يوجدوا بسبب إسرائيل.[238]

صحيح أن عدد اللاجئين الفلسطينيين لم يصل إلى عدة ملايين خلال السنوات الأولى للحرب، لكن مائير تجاهلت أن عددهم فاق المليون في وقت كتابة كتابها هذا، أي بعد 30 عامًا من النكبة الفلسطينية. إلى جانب ذلك، تُجمع معظم المصادر العربية على أن عدد اللاجئين الفلسطينيين الذين تسببت إسرائيل بطردهم خلال حرب العام 1948 حوالي 750 ألف فلسطيني. وهو ما يعني أن مائير حذفت من قواميس التاريخ حوالي 160 ألف فلسطيني إلى الأبد. ورغم أنها تعترف بوجودهم إلا أنها تحاول التخلص من مسؤولية ممارسات حركتها عليهم.

في قذارة الشرق الأوسط

الخطاب الاستشراقي، وهو خطاب استعماري بامتياز، يظهر لدى مائير أثناء حديثها عن هجرتها إلى فلسطين لأول مرة، ففي الطريق إلى فلسطين توقفت الباخرة التي تحمل مائير برفقة بعض طلائع الصهاينة في الاسكندرية المصرية من أجل عملية تفتيش من قبل الشرطة المصرية. وتصف مائير مصر في تلك الأيام قائلة:

> وتوجهنا إلى المحطة لنسافر إلى القنطرة، وأثناء الطريق إلى المحطة ذقنا أول طعم للشرق الأوسط بكل مرارته: إذ شاهدنا جموع الشحاذين وهم يرتدون الأسمال البالية والذباب يغطيهم .. وتصورت أنني سوف أصرخ لو أن أحدًا منهم لمسني.. لكننا مع ذلك كنا نغني فرحًا "بعودتنا إلى صهيون".[239]

---

[238] مائير 1978، ص 216.

[239] المصدر السابق، ص 89–90.

لم تذكر مائير أثناء سردها القصة مصر بشكل خاص، لكنها قامت بشمل منطقة الشرق الأوسط كلها ضمن هذا الوصف. ويبدو أن السبب وراء ذلك، كان استمرار مائير في الخطاب الاستعماري الصهيوني حول أرض فلسطين الذي يقدمها كأرض مهملة وجرداء ولا يستطيع سكانها الانتفاع منها، ما يعطي المستعمِر مبررًا أخلاقيًا للاستحواذ عليها. وقد كان الهدف من وصف مصر بأنها "الشرق الأوسط"، أن تشمل هذه الأوصاف أرض فلسطين العربية أيضًا، فلو اكتفت بالحديث عن مصر، لما تضمن ذلك فلسطين، المستهدفة أساسًا من هذا الخطاب.

في أهمية "الوطن القومي"

كانت إقامة الدولة الاستعمارية إسرائيل إعادة لإحياء "الوطن القومي اليهودي" في فلسطين بالنسبة لمائير، وفي ذلك، إشارة ضمنية إلى الماضي باعتباره كان، يومًا ما، وطنًا قوميًا لليهود، قبل أن ينتقل لهم مرة أخرى مع إنشاء دولة إسرائيل عام 1948. إن مصطلح إعادة الخلق يوحي بوجود شيء ما قديم تمت إبادته، قبل أن تعود الصهيونية بمشروعها الاستعماري لتعيد "خلق" وإحياء هذا الوطن:

> واغرورقت عيناي بالدموع وارتعشت يداي، فهذه هي دولة إسرائيل. لقد عملناها وصنعنا دولة إسرائيل، وأنا جولدا مابوفيتش مايرسون، قد عشت لأرى هذا اليوم، ولا يهم الثمن الذي قد يدفعه أي منا، فلقد أعدنا خلق الوطن القومي اليهودي.[240]
>
> المهم أن حلمنا تحقق أخيرًا. وها نحن في تل أبيب، في جزء من الوطن القومي اليهودي.[241]

[240] المصدر السابق، ص 186.

[241] المصدر السابق، ص 92.

إن مفهوم الوطن القومي مرتبط ارتباطًا بنيويًا بأفكار العودة، والاستعادة، والتحرير، التي تشبعت بها الحركة الصهيونية منذ نشوئها. لقد رأت الحركة الصهيونية بأن احتلال أو "العودة" إلى "أرض إسرائيل" تمثل تحريرًا للأرض من أيدي العرب الذين "حرموا" اليهود منها سنوات طويلة.[242]

في الإرهاب العربي

بالنسبة لمائير، لم يكن العرب إلا إرهابيين. ويقصد بالعرب هنا، عرب فلسطين، والعرب بشكل عام، بالذات سكان دول مصر والأردن وسوريا، لأنها ركزت على هذه الدول أثناء حديثها عن الحروب مع إسرائيل في الأعوام 1948، و1956، و1967، و1973.

إن جزءًا كبيرًا من خطاب مائير المتعلق بالعرب، يعمد إلى ربطهم بـ"الإرهاب" عبر مختلف المراحل الزمنية.[243] ويبدو أن الهدف من هذا الربط هو تقديم صورة للأصلاني الفلسطيني على أنه مخرب ويحب الإرهاب، لا لشيء إنما لطبيعته المحبة للتخريب. إن هذه الفكرة تتقاطع مع ادعاءات الصهيونية للحضارة وحبها للسلام في الوقت الذي يعاني فيه العرب من رغبتهم الدائمة في القتال، وهو الأمر الذي يعيد فكرة أن المستعمر الصهيوني هو أوروبي متحضّر لكنه في فلسطين التي يعاني أهلها من التخلف. وبالتالي فإن ثقافة هؤلاء المحليين، بالنسبة لمائير، هي ثقافة رجعية تختلف عن ثقافة المستعمِر الأوروبية.

يضع جوزيف مسعد[244] تفسيرًا لهذه اللغة الاستعمارية منطلقًا من فكرة أن شرط الهوية ينطوي على قسمين: قسم ذاتي، وآخر موضوعي. يقول مسعد إن الإرهاب هو هوية موضوعية دائمًا، يسلّطها الآخر عليك، فلا يوجد من يوصم نفسه بالإرهاب عادةً. ووفق هذه المنظومة، ليس بالضرورة أن قيامك بأعمال إرهابية يجعل

---

[242] المصدر السابق، ص 108.

[243] المصدر السابق، ص 132؛ 220؛ 261؛ 280؛ 293؛ 296؛ 308.

[244] مسعد 2009، ص، 19-34.

منك إرهابيًا، لكن وصمك بالإرهاب يعني أن أفعالك إرهابية بالضرورة، وهذا يعني أن جيشًا نظاميًا ارتكب أفعالًا فظيعة بحق سكان مدنيين لا يجعل منه إرهابيًا، بينما قد يبدو فعلًا صغيرًا من "إرهابي" عملًا إرهابيًا، لأنه –أي الشخص– "إرهابي" بالأساس. يتوصل مسعد من خلال هذا التحليل إلى أنه ليس هنالك نقيض للإرهاب، لأن من يطلق صفة الإرهاب، إنما يريد أن يبعدها عن نفسه، واللاإرهابي هو الذي يخلق الإرهابي من خلال الخطاب، لأن الإرهابي لا يخلق نفسه.

وإذا أسقطنا هذا التحليل، كما يفعل مسعد، على الحالة الفلسطينية، يتضح أن المستعمِر الصهيوني الذي يسعى إلى تحويل هوية الفلسطيني إلى هوية إرهابوية، إنما يقصد بذلك أن يميّز نفسه، وأن يبعدها عن الإرهاب، ومن هنا انطلقت مائير في توصيفها الأصلانيين.

تقديم الفلسطيني كإرهابي في خطاب مائير يبدأ منذ سنوات ما قبل النكبة ليستمر حتى نهاية أدوارها السياسية وخروجها من الحياة العامة، وحتى وفاتها. إن هذا الربط بين الإرهاب والأصلاني يحرم الأخير من حقه في المقاومة، ويقدمها على أنها فعل عنيف معادٍ بدون سبب، ولذا فإن ما تقدمه مائير إنما يقوم على حرمان الفلسطيني من المقاومة وتصوره على أنه فعل إجرامي. وهنا، يتحول الإرهاب الاستعماري إلى عمل إنساني، فيما تتحول مقاومة الأصلاني إلى إرهاب.

إن قضية "الإرهاب العربي" كانت قضية شائكة لدى مائير منذ السنوات الأولى لهجرتها إلى فلسطين، وقد كانت تسعى جاهدة لتجد حلًا لهذه "المشكلة". لقد كانت المقاومة الفلسطينية للصهيونية على مر الزمان عمل إرهابي بالنسبة لمائير، فقد رأت في معارضة الفلسطينيين للاستعمار اليهودي في أرضهم، وفي أحداث الثورة الفلسطينية الكبرى عام 1936، إرهابًا عربيًا، واعتبرت رفضهم للهجرة اليهودية عنفًا عربيًا ناتجًا عن إرهابه:

> وكان علينا في نفس الوقت أن نتخذ أو ننفذ قرارات هامة بالنسبة لليشوف عمومًا؛ وأولها الموقف بالنسبة **للإرهاب** العربي. ففي عام 1936 وحده احترقت مئات الآلاف من الأشجار

> التي زرعها اليهود بالحب والأمل واحترقت الحقول ووقعت 2000 هجمة أسفرت عن مقتل 80 يهوديًا وإصابة كثيرين بجراح خطيرة. وبانتهاء "الثورة العربية" في عام 1939 كان خمسمائة من اليهود قد سقطوا ضحايا للعنف العربي.[245]

كما اعتبرت محاولات الفلسطينيين العودة إلى أراضيهم التي سلبت منهم عام 1948، "أعمال تسلل"[246] بما يوحي بانتقال شخص ما إلى مكان لا يملكه خلسة، إضافة إلى ادّعائها أن المقاومة الفلسطينية الشعبية التي نشأت بعد تلك الحرب هي مجرد عصابات عربية تقوم بالإغارة على أراضي "دولة إسرائيل"، الأمر الذي كان يجبر إسرائيل على الانتقام لمثل هذه "الاعتداءات".[247]

وخلال الأيام التي سبقت وتلت حرب الأيام الستة عام 1967 استمر "الارهابيون العرب" –من وجهة نظرها– بالقيام بالعمليات التخريبية ضد إسرائيل انطلاقًا من غزة والأردن.[248]

وقد استمرت مائير بوصف أعمال المقاومة اللاحقة على ذات المنوال، قائلة إن حركة فتح هي منظمة إرهابية،[249] وأن عمليات خطف الطائرات و"المدنيين"[250] وكل العمليات التي كانت تقوم بها المقاومة الفلسطينية في دول العالم هي عمليات إرهابية.[251]

وتوجه مائير اتهامًا مباشرًا للرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات بالإرهاب، قائلة إن العالم أضاف رونقًا خاصًا للإرهاب المتمثل في شخص عرفات، حين سمح له بالدخول إلى قاعة الأمم المتحدة، وتناست –وهي إرهابية صهيونية– أنها وقفت في الأمم المتحدة لتكذب عليهم:

---

[245] مائير 1978، ص 133.

[246] المصدر السابق، ص 206.

[247] المصدر السابق، ص 206.

[248] المصدر السابق، ص 215، 261.

[249] المصدر السابق، ص 278.

[250] المصدر السابق، ص 280.

[251] المصدر السابق، ص 293؛ 296؛ 307.

> ولعله مما يدعو إلى المرارة أن أكتب عن إلياهو الآن، في عالم آثر أن يضفي رونقًا على الإرهاب العربي، وأن يدخل إلى هيئة الأمم رجلًا مثل ياسر عرفات، الذي لا يملك فكرة بناءة واحدة أو تصرفًا يحسب لصالحه، والذي –بصراحة ووضوح– ليس إلا مجرمًا عتيدًا يرأس حركة كرست نفسها فقط لتدمير دولة إسرائيل.[252]

في تأصيل الهجرة العربية إلى فلسطين

هناك ادعاء خطير تصرح به مائير حول السكان الفلسطينيين في أرض فلسطين قبل العام 1948. وقد وجد هذا التصريح قبولًا صهيونيًا واسعًا عكف على إثره الكثير من الصهاينة على محاولة إثبات صحته من خلال تتبع المعلومات الإحصائية الواردة عن جهاز الإحصاء البريطاني عبر السنوات، في محاولة لتحويل هذا الوهم إلى حقيقة، ولتحويل الفلسطينيين إلى غرباء في المكان:

> لست في حاجة إلى العودة إلى السجلات البريطانية لكي أؤكد أن السكان العرب قد تضاعف عددهم منذ بداية الاستيطان اليهودي. وقد كان مستوى معيشة عرب فلسطين أعلى بكثير من غيرهم من عرب الشرق الأوسط. الأمر الذي دفع بجحافل العرب من سوريا وغيرها إلى الهجرة إلى فلسطين.[253]

تتحدّث مائير عن "جحافل" العرب الذين انتقلوا إلى فلسطين بعد بدء الهجرات اليهودية، لتقول إن معظم السكان الفلسطينيين الحاليين هم عرب بالأساس انتقلوا إلى فلسطين في وقت من الأوقات بعد وصول المستعمِر الصهيوني.[254] كما تنفي هذه المقولات أن هناك شعبًا فلسطينيًا كان يعيش في هذه المساحة المحددة من الأرض خلال سنوات ما قبل الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وتدعي أنهم عربٌ جاءوا لأغراض

---

[252] المصدر السابق، ص 150–151.

[253] المصدر السابق، ص 134–135.

[254] Veracini 2010, 36.

اقتصادية أو تجارية، وبدأ هؤلاء السكان بالتكاثر بعد بدايات الاستيطان اليهودي، ثم ادعوا لاحقًا أنهم فلسطينيون.

كان من بين المحاولات الصهيونية لإثبات هذه المزاعم محاولتين يجدر الإشارة إليهما تعودان لجوت هيل وبيترز. يدعي الأكاديمي الإسرائيلي في جامعة إليونويز فريد جوت هيل[255] بأن زيادة سكانية كبيرة في فلسطين بين عامي 1922 و1931 نشأت بفعل زيادة طبيعية وهجرة عربية توجهت من سيناء وسوريا والأردن إلى فلسطين. ويتوصل جوتهيل –بالاعتماد على أرقام التعدادات البريطانية– إلى أن هذه الزيادة التي تبلغ 141422 نسمة ساهمت فيها الهجرة العربية من الأقطار المجاورة إلى فلسطين بمقدار 64790 نسمة خلال السنوات المذكورة، وبما يمثل ما نسبته 11.8% من نسبة السكان العرب المقيمين في فلسطين عام 1931.

من ناحية ثانية قدمت كاتبة أمريكية مؤيدة للصهيونية تدعى جوان بيترز كتابًا[256] لاقى جدلًا واسعًا بعد صدوره تدعي فيه أن الفلسطينيين ليسوا سكانًا أصليين في فلسطين، لأن "عربًا" انتقلوا إلى فلسطين بعد اكتشافهم لأهميتها التي بينها المستوطنون اليهود ثم قاموا بالمطالبة بها وطنًا لهم.

الكتاب الذي قدم على أنه سيؤدي إلى ثورة في فهم الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، وسيضع حدًا للمعلومات المغلوطة التي يجري تداولها في العالم حول الصراع، ادعى أنه لم يكن في فلسطين أحد قبل الهجرات الصهيونية، وأن العرب نقلتهم الدولة العثمانية إلى فلسطين بعد أن بدأت الحركات الاستيطانية اليهودية بالوصول إلى فلسطين التي كانت فارغة.

---

[255] Gottheil, Fred M. 1973. “Arab Immigration into Pre-State Israel: 1922-1931.” Middle Eastern Studies 9 (3): 317-318.

[256] Peters, Joan. 1985. From time immemorial: the origins of the Arab – Jewish conflict over Palestine. London: Michael Joseph.

تدّعي لبيترز[257] أنه في الوقت الذي طرد فيه الرومان اليهود من فلسطين لم يكن فيها عرب فلسطينيون، وإنما يهود. وقد ظلت فلسطين بدون عرب حتى القرن السابع الذي شهد غزوًا إسلاميًا "غير عربي" من شبه الجزيرة العربية. وقد ظل الغزاة "المرتزقة" غير العرب في البلاد كجنود، كما ترى بيترز، أما العرب فقد أخذوا أجزاء من أرض فلسطين كغنائم من الحرب، وعاشوا فيها إلى جانب بلقان ويونانيين وسوريين ولاتين ومصريين وأتراك وفارسيين وكرد وغيرهم، وقد تم اعتبار كل هؤلاء كأصلانيين فلسطينيين زورًا –من وجهة نظرها– لكنهم في حقيقة الأمر كانوا مجتمعًا غير متجانس لا يملك هوية فلسطينية ولا عربية، رغم أنهم كانوا يتحدثون اللغة العربية.

وتخلص بيترز[258] إلى أن أرض فلسطين كانت مع بداية الاستيطان اليهودي أرضًا ضائعة، ولم يكن فيها الكثير من العرب الذين تعرض عددهم إلى تناقص حاد وملحوظ خلال السنوات السابقة. أما الهجرة الجماهيرية العربية الضخمة إلى فلسطين فقد حدثت بعد فراغ الأرض من السكان وتحولها إلى صحراء وبدء الاستيطان اليهودي الحديث فيها.[259]

وبالرغم من تعرض هذا الكتاب إلى كثير من النقد على يد مفكرين وأكاديميين موضوعيين، إلا أن الكثير من الادعاءات الصهيونية تستمر في الاعتماد عليه باعتباره حجة قاطعة ضد آراء السكان الفلسطينيين الأصلانيين فيما يتعلق بأحقيتهم وملكيتهم للأرض.

لقد رسمت مائير لاتباعها من الصهاينة الطريق الذي يجب عليهم أن يسيروا فيه، ولم يكن "جوت هيل" و"بيترز" إلا مثالين على الصهاينة الذين حاولوا أن يضعوا أسسًا "علمية" لمقولاتها الخيالية.

---

[257] Peters 1985, 155–157.

[258] Ibid., 157.

[259] Ibid., 7.

كيف يجب أن يرى الأصلاني مستعمِره؟

لقد ظهر من خلال حديث مائير عن الملك الأردني عبد الله الأول، الطريقة التي تريد من خلالها أن ينظر الأصلاني إلى مستعمِره، لقد كانت تتوقع منه أن يصدق الأكاذيب التي اختلقها الاستعمار، وأن يتبنى هذه المقولات. ويبدو أن مائير قد لفقت أقوالًا للملك عبد الله بحسب الطريقة التي تريد منه أن ينظر إليها، مدعيةً أنها كانت أفكاره:

> وقام واحد آخر من خبرائنا في الشؤون العربية، وهو عزرا دانين، الذي كان يلتقي بالملك عبد الله من قبل كثيرًا، بتزويدي بالمعلومات عن المفهوم العام للملك لدور اليهود. وكان هذا المفهوم يتلخص في أن العناية الإلهية شتتت اليهود في العالم الغربي لكي يستوعبوا الحضارة الأوروبية ويجلبوها معهم إلى الشرق الأوسط فيعيدوا بذلك إحياء المنطقة، لكن دانين كان متشككًا في مدى إمكانية الاعتماد على الملك، أما تعبيره عن الصداقة فهو صادق فيه وإن لم يكن ذلك بالأمر الملزم له.[260]

ووفق هذه النظرة، تتوقع مائير من الأصلاني أن ينظر إليها من منظور العبء الذي يحمله المستعمِر على كتفه، ليسهم في رفعة باقي المجتمعات ذات الثقافة الأقل، كما تتوقع منه أن يصدق مقولاته الثيولوجية حول العودة إلى الشرق الأوسط بفعل أمر وحكمة إلهيين، بالتركيز على قضية الثقافة الأوروبية للصهيونية.

في التحلّل من الاستعمار

تحاول مائير بين الفينة والأخرى أن تصور الاستعمار الصهيوني على أنه استقلال وإعادة خلق للوطن القومي. وبذلك فهي تقوم على إنكار التسبب بكارثة للأصلانيين لأن دولتها أقيمت على أنقاضهم، وفي الوقت ذاته، فهي تتملص المسؤولية التي قد تلحق بها وبدولتها نتيجة هذه الكارثة.

---

[260] مائير 1978، ص 177.

وتحاول مائير أيضًا أن تضع نفسها إلى جانب الشعوب المستضعفة في الأرض، من خلال القيام بمقارنات غير منطقية بين دول كانت واقعة تحت نير الاستعمار، وبين دولتها التي قامت بمثل هذا الاستعمار. لقد سعت مائير من خلال ذلك إلى تصوير نفسها كضحية، مثلها مثل الشعوب الفقيرة التي خضعت للاستعمار قبل أن تحقق الاستقلال وتنتصر على أعدائها المستعمرين:

> فقد كنا مثلهم [دول أفريقيا المستعمَرة] حصلنا على استقلالنا بكفاحنا وتعلمنا كل شيء وواجهنا نفس المشاكل.[261]
>
> يضاف إلى ذلك أننا والأفارقة كنا قد عانينا حتى الأمس القريب من الكبت والتفرقة والعبودية.[262]

يبدو أن مائير كانت تقصد من إجراء المقارنات مع دول أفريقيا تحت الاستعمار، أن "بلادها أرض إسرائيل" كانت ترزح هي الأخرى تحت الاستعمار البريطاني، وقد تحقق استقلال "دولة إسرائيل" في الوقت الذي كانت دول أفريقيا تتحرر هي الأخرى من نفس القوى الاستعمارية تقريبًا. لقد تناست مائير أن دولتها كانت استعمارية أكثر من "مستعمرِها" البريطاني، لأنها عملت على استبدال السكان الأصلانيين على عكس بريطانيا التي لم تهدف إلى إحلال سكان جدد على حساب الفلسطينيين.

إن إجراء مثل هذه المقارنات مع الدول التي عانت تحت الاستعمار إنما يهدف للقول بأن إسرائيل تتشارك الظلم مع باقي الدول المستضعفة في الأرض، وأنها حققت استقلالها بقوة يدها لا بمساندة القوى الاستعمارية الغربية، في تملّص واضح من سماتها الاستعمارية.

---

[261] المصدر السابق، ص 242.

[262] المصدر السابق، ص 243.

نتائج الفصل الثالث

على غرار غيرها من القادة الصهاينة ترى جولدا مائير أن اليهودي المستعمِر يتحوّل إلى فلسطيني بمجرد وصوله إلى الأرض المستعمَرة، في الوقت الذي لا تعترف فيه بوجود سكان فلسطينيين في أرض فلسطين قبل وصول المستعمِر الصهيوني. وترى جولدا مائير أن الثقافة الأوروبية التي جلبتها الصهيونية إلى الشرق الأوسط من شأنها أن تكون منفعة للبشرية، ولسكان المنطقة على وجه الخصوص. والسكان المحليون من وجهة نظرها، من ذوي الحضارة المتخلفة، والثقافة الرجعية، الأمر الذي ترى فيه مبرّرًا لتحضير المنطقة من خلال الاستعمار الصهيوني، وبالتالي استحالة التسبب بأية أذية ضد السكان الأصلانيين.

الفصل الرابع: مناحيم بيغن

يعد مناحيم بيغن أحد قادة اليمين المتطرف الصهيوني وخليفة جابوتنسكي في الحركة التنقيحية الصهيونية. وقد كان بيغن يؤمن بأن الحد الأدنى لأرض إسرائيل هو ضفتا نهر الأردن، وأن القوة العسكرية هي الضامن الوحيد لتحقيق هذا الحد الأدنى، لأنها اللغة الوحيدة التي يفهمها العرب، حسب رأيه.[263] سيحاول هذا القسم متابعة وتحليل خطاب بيغن الأصلاني كما ورد في كتابه "التمرد" الذي يشكل سيرة ذاتية لسنوات طويلة من الصراع مع البريطانيين، وسيرة ذاتية لبيغن نفسه.

[263] كامل 2008، ص 244.

في "العودة وليس السفر"

استخدم القادة الصهاينة الذين قمنا بدراستهم في الفصول السابقة فكرة "العودة إلى أرض إسرائيل" كثيرًا، لكن بيغن كان الوحيد الذي أقدم على تبرير هذا الاستخدام والتأكيد على ضرورته، فهو ليس ذهابًا إلى فلسطين أو سفرًا عاديًا يمكن لأي شخص أن يقوم به، كما أنه ليس إتيانًا إلى مكان ما، إنه –بشكل واضح وصريح– "عودة" إلى أرض الآباء والأجداد، أرض فلسطين التي يسميها "أرض إسرائيل":

> فقد تعلمت، منذ أيام شبابي الباكر، من أبي... أننا، معشر اليهود، سوف نعود إلى "أرض إسرائيل". لن "تذهب" أو "تسافر" أو "تأتي" بل إننا سوف "نعود"، وذلك هو الاختلاف العظيم الذي تضمن كل شيء.[264]

لقد كان هذا التصريح بمثابة قطع الشك باليقين، وبمثابة توضيح مغزى هذه الكلمة التي لم يأتِ استخدامها اعتباطيًا لدى القادة الصهاينة، بل كان مدروسًا ومفهومًا، لكنه جاء على لسان بيغن ليشكل الاعتراف الصريح بهذه الفكرة. وبما أن "العودة" إلى "أرض إسرائيل" هي الاختلاف العظيم عن العودة والسفر بالنسبة له، فقد رأى أن من خلال "عودته" تلك إنما يقوم بواجب إنساني وأخلاقي يتمثل في "إعادة" بناء الدولة اليهودية.[265]

لقد كان إنشاء "الدولة اليهودية" الاستعمارية في أرض فلسطين، بالنسبة، لبيغن إعادة لبنائها وليس اختلاقًا لها من العدم، ولذلك فهو "يعود" لها دون أن يشعر أنه بذلك إنما يقوم على استعمار أراضي شعب آخر. إن

---

[264] مناحم بيغن. 1988. التمرد: قصة الأرجون تقديم اللواء حسن البدري. ط2. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 40.

[265] المصدر السابق، ص40.

الاستعمار الصهيوني لفلسطين يشكل بالنسبة لبيغن "إعادة إحياء" للروح العبرية التي تقوم على "بعث الروح اليهودية[266] من جديد بعد أن ماتت لألفي سنة قضاها اليهود خارج وطنهم".

كان هذا البعث، بالنسبة له، عملًا من أعمال العدل، ومن الواجبات المقدسة التي قام بها الصهاينة تجاه "بلدهم" الذي كان يهدده الآخرون بالسيطرة عليه وحرمان اليهود منه باعتباره وطنًا دائمًا لهم. لقد تناسى بيغن أن لهذه الأرض سكانها الذين يقيمون بها، خدمة لمشروعه الاستعماري:

> كان كل ذلك [تكديس الأسلحة وفتح الحدود للمهاجرين] بالنسبة لي وللآلاف الكثيرة من الشباب عملًا من أعمال العدل الفائقة، وكان الإسهام في هذه المهام شرفًا عظيمًا وواجبًا مقدسًا، واجبًا نحو بلدنا الذي كان الغير يهددون باغتصابه منا، واجبًا نحو شعبنا الذي كنا نشعر، بل ندرك، أنه على شفا هاوية الهلاك والدمار.[267]

إن هذا "الغير" الذي يتحدث عنه بيغن يشمل البريطانيين والفلسطينيين، وهو بذلك يضع الطرفين في صف واحد مقابل اليهود أصحاب الأرض الأصليين الذين "اغتصب الغير" أرضهم. موضعة الفلسطينيين إلى جانب البريطانيين إنما يراد منها اعتبارهم غريبين عن المكان، وعن الأرض. وبالتالي يصبح اليهودي، وبغض النظر من أين جاء، صاحب الأرض الأصلي، ويصبح الفلسطيني العربي الذي يعيش فيها غريبًا عنها.

من المهم الإشارة هنا، إلى أن مفهوم "العودة" يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمفهوم "إعادة بناء" ما كان موجودًا، أي أن الاختلاق يجري على أساس أن شيئًا ما قديمًا كان موجودًا، بما يتطلب إعادة بناء التاريخ القديم اليهودي في فلسطين ضمن رؤية صهيونية تقوم على إنشاء أصلانية لها في المكان.

---

[266] المصدر السابق، ص40.

[267] المصدر السابق، ص41.

"أرض آبائنا، إرثنا وتراثنا"

إن مفهوم العودة كما يقدمه بيغن، يتضمن الارتباط السابق بالأرض الذي كان قائمًا بين اليهودي والمكان في فلسطين. وليس بعيدًا عن تبني الصهيونية للعلاقة بين اليهودي القديم واليهودي في يومنا هذا، التي سيجري الحديث عنها لاحقًا، يعمل بيغن على ربط الصهاينة بأرض فلسطين من خلال الزعم بأنها "أرض الآباء".[268]

إن كلمة "الآباء" تشمل، في الفكر الصهيوني، السلف (أي آباء وأجداد الفرد) والأنبياء اليهود (إبراهيم واسحق ويعقوب.. الخ) على حد سواء، على اعتبار أن هؤلاء الأنبياء هم أسلاف اليهود الذين خرجوا من فلسطين قبل ألفي عام واليهود الذين يعيشون في هذه الأيام. لذلك فإن الربط بين أرض فلسطين والآباء إنما يقدم حجة صهيونية لا أساس لها، تدعي أن هذه الـ"عودة" هي عودة إلى ما يملكه اليهود أساسًا، أي "أرض الآباء أرض إسرائيل".

لقد ربط الخطاب الأصلاني الصهيوني بين اليهودي الذي عاش في فلسطين قبل أكثر من ألفي سنة بالأرض الفلسطينية، وبذلك فهو يقدم البرهان لليهودي الذي يعيش في كل أنحاء العالم اليوم بأن فلسطين كانت له وستظل له رغم أنه يعيش بعيدًا عنها. زد على ذلك، أن "العودة" إلى فلسطين، ستصبح وفق هذا الخطاب، عودة إلى الإرث الذي يحمله اليهودي، داخل فلسطين.

ولذلك، ليس من الغريب أن يقدم بيغن جموع اليهود في العالم باعتبار أن ما يجمع بينهم هو "حلمهم بصهيون"[269] وبأنهم يعملون المستحيل لكي يذهبوا إلى "أرض إسرائيل".[270] لقد أرادت القيادة الصهيونية أن

---

[268] يحمل الفصل الثاني من كتاب التمرد فصلًا كاملًا بعنوان "أرض آبائنا" انظر: بيغن 1988، ص 51-64.

[269] المصدر السابق، ص64.

[270] المصدر السابق، ص76.

توحد يهود العالم حول هدف واحد هو استعمار أرض فلسطين، وساقت لذلك كل ما يقدم لهم هذا الفعل على أنه ليس استعمارًا وإنما "عودة" لهم إلى "وطنهم القومي"[271] الذي سيجمعهم بعد هذا التشتت.

في ربط القديم بالجديد

الشواهد على قيام بيغن بمحاولات ربط كل ما هو تاريخي بالحاضر، وربط القديم بالجديد، على غرار ما قام به هيرتسل ومن تبعه من الصهاينة، كثيرة. لقد أجرى بيغن مجموعة من المقارنات بين أحداث تاريخية وأحداث وقعت تحت ما يسميه "التمرد" ضد البريطانيين أو في الصدامات مع العرب.

ومما لا شك فيه، أن هذا الربط بين القديم والجديد يهدف إلى التأكيد على أن هذا المكان كان لليهود، وسيعود لهم مرة أخرى بعد سنوات طويلة من "التشتت"، وأن الصهيونية قد جاءت لتحول دون تكرار ما حدث لليهود من "تشتت" مرة أخرى على يد أعداء جدد. وقد حاول بيغن، من خلال هذا الربط، أن يسهم في حشد يهود العالم لصالح الصهيونية ولصالح مشروعها الاستعماري، فعلى سبيل المثال، حاول بيغن أن يربط بين الحكم الروماني في فلسطين قبل ألفي سنة مع الحكم البريطاني في فلسطين في الربع الثاني من القرن العشرين، محاولًا أن يحرض اليهود على البريطانيين:

> إن ما لم يجرؤ ممثلو الروم أن يفعلوه بالأمس يفعله مندوبو بريطانيا اليوم. إن ما رفض أسلافنا أن يتحملوه من الطغاة الأقدمين، وإن دفعوا ثمن هذا الرفض من أرواحهم وحرياتهم، يتحمله اليوم جيل اليهود الذي يصف نفسه بأنه آخر عهود الظلم وأول عهود الخلاص...

[271] المصدر السابق، ص75.

> إن الشعب الذي يسمح لأقدس بقعة في أرضه ويسمح لأقدس مشاعره أن تداس تحت الأقدام، ليس إلا شعبًا من الأرّقاء، أرّقاء الروح.[272]

إن المقارنة بين البريطانيين والرومان تقوم على تقديم البريطانيين على أنهم أشد خطرًا على اليهود من الرومان الذي قمعوا ثورتهم قبل ألفي عام وطردوهم خارج فلسطين، وهو بذلك إنما يريد من اليهود أن يثوروا للتصدي للبريطانيين الذين يتوقع أن يفعلوا باليهود أكثر مما فعله الرومان "بهم" قبل ألفي عام، وكأن اليهود الذين عاشوا قبل ألفي عام في فلسطين، هم "آباء" اليهود الصهاينة اليوم.

من جهة أخرى، ربط بيغن بين "الثورة" على البريطانيين وثورة الحشمونيين اليهود حوالي العام 167 قبل الميلاد التي قادها فقراء اليهود ضد سلطات الحاكم السلوقي أنطيخوس الرابع لأنه حاول إلغاء بعض طقوس وعادات اليهود وقتها، وطمس ثقافة اليهود:

> لقد خاضت [الأرجون] المعارك وجهًا لوجه ضد قوات العدو، وكانت معاركها أول معارك وطنية تقوم بها قوة عبرية ضد الباغي وضد جيش الاحتلال منذ ثورة "الحشمونيين".[273]

حاول بيغن، من خلال هذا الربط مع ثورة الحشمونيين، أن يقدم "تمرده" على الحكم البريطاني بمثابة أول معركة وطنية يخوضها اليهود ضد حكم أجنبي منذ ذلك الوقت، بما فيه من تعظيم لثورته وتضخيم لها، مقارنة مع الثورة القديمة.

قصة أخرى يذكرها مناحيم بيغن حول لجنة تحقيق بريطانية أعلنت نتائجها عام 1929 بأن "حائط المبكى" والساحة المجاورة له والمناطق المحيطة التي تطل على الحائط هي ملكية مطلقة للمسلمين، ولا يجوز لليهود

---

[272] المصدر السابق، ص143.

[273] المصدر السابق، ص149.

أن يمارسوا شعائرهم الدينية عنده،[274] وقد أعلن بيغن رده على هذه اللجنة قائلًا إن مسجد قبة الصخرة يقوم على أنقاض الهيكل العبري القديم (هيكل سليمان)، وهو أمر تشهد له حجارة المكان:

> إن هذه الحجارة ليست صامتة. إنها لا تجأر بالقول، ولكنها تهمس. إنها تتحدث في رقة عن السبب القديم الذي كان قائمًا هنا يومًا، تتحدث عن الملوك الذين ركعوا هنا في صلواتهم، تتحدث عن الأنبياء والرسل الذين هبطت عليهم رسالاتهم... كان هذا المنزل، وهذا الإقليم، برسله وملوكه ومحاربيه، ملكًا خالصًا لنا قبل أن يكون البريطانيون أمة. إن شهادة هذه الحجارة ترسل ضوءها عبر الأجيال.[275]

من خلال هذا الرد، يحاول بيغن أن يستنطق الحجر ليقول بأن هذا المكان كان يهوديًا وسيبقى كذلك إلى الأبد، وبأن كل الأنبياء والرسل والملوك الذين كانوا هنا يومًا ما يعترفون بأن هذا المكان يهودي خالص. ورغم أن المكان يرسل "ضوءه عبر الأجيال"، إلا أن بيغن لا يريد لهذا الضوء أن يرى العرب الذين عاشوا فيه بتاتًا، كما يريد لوجودهم أن يختفي مستعينًا باستنطاق الحجر لإنكارهم، فيبقى تاريخ هذه المنطقة تاريخًا يهوديًا خالصًا كما يريده المستعمِر، يحافظ على ذاكرته المتعلقة بالزمن الأقدم، الزمن الذي قد يرتبط من جهة ما باليهودي.

الاستعمار، وفي سعيه إلى محو الصلة بين الفلسطيني والمكان، يقتطع من التاريخ ما يراه مناسبًا، وفي انتقائيته تلك يحافظ على ما يمكن أن يكون مبررًا للمستعمِر فقط.

صك الملكية حصري لليهود، ولذلك، يرى بيغن أن العلاقة التي تربط "حائط المبكى" باليهود تظل قائمة حتى لو عاش اليهود بعيدًا عنه مئات السنوات، ويظل هو الملجأ الذي لا بد أن يعود إليه اليهود حتى لو كان ضمن نظام استعماري خالص:

---

[274] المصدر السابق، ص142.

[275] المصدر السابق، ص142.

> منذ السنوات الباكرة من سني استعباد شعبنا كان حائط المبكى مستودع حنين هذا الشعب، ولا تدع المتهكمين الساخرين يثرثرون ويهذون عن "التصوف" و"المتصوفين". إن صوت التاريخ ما هو بالشيء الخفي الذي لا يدركه العقل. إن هو إلا عامل قدير في الحقيقة والواقع.[276]

لقد كان المشروع الصهيوني بطبيعته مشروعًا قديمًا، أي يعمل بأساسه على مبدأ قدِم الأصل اليهودي في المكان، وعمقه في تاريخ هذه المنطقة، الأمر الذي يجعل منه مشروعًا قائمًا على العودة إلى التاريخ:

> إن أمة كانت بسبيلها إلى الحياة، أمة قديمة جدًا وتردت في حفرة الدمار، على وشك أن تولد من جديد!**[277]**

> أما القوة المجددة التي انبعثت فينا، وبخاصة في شبابنا، من الالتصاق بتراب أرضنا القديمة، فهي ليست أسطورة وإنما هي حقيقة.[278]

يحاول أمنون كركوتسكين أن يوضّح معنى "العودة إلى التاريخ" في المخيال الصهيوني قائلًا إن الصهيونية حاولت أن تصوّر اليهود باعتبارهم "قومية" خارج التاريخ إلى حين إقامة دولة إسرائيل، الأمر الذي يعني أن اليهود "في المنفى" ظلوا في حالة انقطاع تاريخية عن كيانهم السياسي والاجتماعي.[279] ومن هنا، تصبح "العودة إلى فلسطين" بمفهوم بيغن، ووفق هذه الرؤية، هي إعادة للتاريخ اليهودي إلى مساره الصحيح، وقضاءً على المنفى. أما ما نتج عن هذه "العودة" من تراجيديا بحق الفلسطينيين فقد جرى إنكاره وقذفه إلى خارج التاريخ، وكان سببًا في منع الاعتراف بحقوقهم والتهرّب من مسؤوليات الاستعمار تجاههم.[280]

---

[276] المصدر السابق، ص142–143.

[277] المصدر السابق، ص483.

[278] المصدر السابق، ص85.

[279] كركوتسكين، أمنون راز. 2014. المنفى، التاريخ، وقومنة الذاكرة اليهودية: تأملات في "العودة إلى التاريخ" كفكرة صهيونية. مجلة قضايا إسرائيلية عدد 54، ص77

[280] المصدر السابق، ص90.

في الصراع مع الأجنبي البريطاني

بالنسبة لبيغن، لم يكن الصراع في فلسطين إلا صراعًا مع المحتل الأجنبي البريطاني، ولم يكن للعرب أي دورٍ في هذا الصراع إلا باعتبارهم –كما سيتضح لاحقًا– أعوانًا للمحتلّ الأجنبي، وبسبب وجودهم المؤقت والعابر في المكان. وبذلك يتحول الصراع على الأرض إلى صراعٍ مع المحتل ينتهي بزوال هذا الغريب. وفقًا لهذا الادعاء، يتحول اليهودي إلى أصلاني لأنه يجابه مستعمِرًا بريطانيًا، وفي الوقت الذي ينتصر فيه، يتحول إلى أصلاني حقق انتصاره على مستعمِره، وتنتهي المشكلة. إن تحييد العرب المتعمد يجعل منهم خارج قواعد اللعبة، بمعنى أنهم يتحولون إلى غرباء لا يمارسون أية مقاومة للغازي البريطاني، بما يوحي بلا مبالاتهم.

وبتبني ملكية الأرض، وأصلانيته فيها، يرى بيغن نفسه مضطرًا لمواجهة هذا العدو الذي يسيطر على أرضه وأرض أجداده:

> وكان علينا أن نكره –كما ينبغي لأية أمة جديرة بهذا الاسم أن تكره وأن تظل تكره– حكم الأجنبي غير العادل في حد ذاته، القائم على غير حق، حكم الأجنبي في أرض أجدادنا، في بلدنا.[281]

هنا، تتحول الصهيونية إلى حركة تحرر وطني تهدف إلى تحقيق "الخلاص الطبيعي"[282] لليهود، وتحقيق الاستقلال الوطني لهم في "أرضهم" التاريخية:

> فالشيء المهم هو أن تكون هناك دولة، وأن تكون هناك أمة، "أمة حرة في أرضنا"... وألا نخضع ونذل لحكم أجنبي، وأن نتنسم عبير الحرية الذي تتوق إليه صدورنا منذ ألفي سنة من التشتت والعزلة.[283]

---

[281] بيغن 1988، ص34.

[282] المصدر السابق، ص35.

من أجل التأكيد على أصلانيته في المكان، سعى خطاب بيغن إلى التركيز على محاولات بريطانيا الاستعمارية للسيطرة على فلسطين، فيما يقدّم نفسه كمن يحاول الدفاع والثبات في "أرضه"، وهو الأمر الذي يتيح له تقديم نفسه كأصلاني من خلال طرح القضية على أنها سيطرة بريطانية على أملاك اليهود، مستبعدًا وجود الفلسطيني بالكامل.

يحاول بيغن أن يخلخل الأسس التي تقدمها الامبراطورية البريطانية في تبريرها استعمار فلسطين حتى يقدم حجة لمجابهتها، وبالتالي تحويل نفسه إلى أصلاني فيها يصارع حكم المحتل الباغي الذي يحاول الحصول عليها عبر الحيلة والخديعة.

بكشفه هذا، يود بيغن أن يقول بأن الاستعمار البريطاني لأرض فلسطين جاء تحت غطاء الإنسانية، والمثل العليا، لكنه في طبيعة الأمر كان استعمارًا لأرض يهودية بحكم التوراة، ولذلك فقد ادعى البريطانيون أنهم في فلسطين لحماية اليهود:

> ولذا فإن السياسة البريطانية كانت على أهبة الاستعداد لتساند مثلًا أعلى عظيمًا يمكن بريطانيا من السيطرة على فلسطين دون أن تبدو كذلك. وكان ذلك المثل الأعلى جاهزًا في اليد، فإن اليهود الذين وعدتهم التوراة بفلسطين كانوا مضطهدين، وكانوا يريدون وطنًا.[284]
>
> أي شيء أكثر إنسانية من بسط الحماية لليهود المضطهدين –شعب التوراة– ضد قسوة "قائمي المقام" الأتراك؟ وإذا كان ذلك من شأنه –كما حدث فعلًا– أن يعود بفوائد إمبريالية، فما هو الرأي فيه؟ ... فماذا بقي بعد ذلك لبريطانيا؟ اليهود! وبهذه المناسبة، لمن كانت فلسطين؟ لليهود بطبيعة الحال. لقد ورد ذلك في الكتاب المقدس.[285]

---

[283] المصدر السابق، ص199.

[284] المصدر السابق، ص75.

[285] المصدر السابق، ص74.

في النصوص السابقة، يظهر وعد التوراة لليهود بالحصول على فلسطين مرتين، وكأن بيغن يريد أن يقول بأن بريطانيا كانت تعلم بحكم التوراة لكنها تهربت من ذلك عبر ادعاء المثل العليا الإنسانية.

إن الميزة الأساسية في خطاب بيغن، كما توضحها النصوص السابقة، هي الاستبعاد الكامل والممنهج للفلسطيني، فالفلسطيني غائب بالكامل عن المشهد، وكأن بيغن يود أن يقول إن الصراع في حقيقته هو صراع بين بريطانيا المستعمِرة، وبين أصحاب الأرض اليهود.

ويستمرّ بيغن على نفس المنوال، مقدمًا نفسه على أنه المدرك لحقيقة الأمر قائلًا لقرائه بأن بريطانيا إنما كانت تحاول أن تخدع اليهود عبر القول إن الصراع في هذه الأرض هو صراع عربي يهودي، لكنه في حقيقة الأمر كان صراعًا يهوديًا أصلانيًا من جهة، وبريطانيًا استعماريًا من جهة أخرى، أما تحويل النزاع إلى نزاع عربي يهودي فلا أساس له من الصحة:

> لم تدخر الحكومة [البريطانية] جهدًا لتحويل المد وتحويل النزاع الإنجليزي اليهودي إلى نزاع عربي يهودي... وعلى أية حال، لم يؤت الاستفزاز ثماره، فقد كان العرب يستمعون ولكنهم ظلوا سلبيين.[286]

حتى العرب أدركوا مخططات الاستعمار البريطاني ولم ينخدعوا بهذه الاستفزازات، فكيف لليهودي أن ينخدع بهذه الأقاويل؟! هكذا كان لسان حال بيغن يقول، وكأنه يريد أن يفرض على العربي رد فعله منكرًا عليه حق التعبير. لقد كان بيغن على قناعة كاملة بأن بريطانيا تختلق الأكاذيب بهدف إظهار نفسها كحكم بين طرفين دون أن تعترف باستعمارها لما يسميها أرض إسرائيل:

> لقد أضافت هذه اللجان [لجان التحقيق البريطانية] مزية سيكولوجية من حيث ظهورها بمظهر الحكم المنصف الذي لا يحابي والذي يؤكد، ثم يؤكد من جديد، أن هناك جانبين من

[286] المصدر السابق، ص97.

"الحقوق" المتعارضة في فلسطين، ومن ثم تبرز الحاجة الماسة إلى وجود سلطة الانتداب بصفة دائمة في فلسطين لتكون بمثابة طرف ثالث (حكم) يتخذ القرارات.[287]

كانت هذه هي المؤامرة التي يحيكها المستعمِر البريطاني لتثبيت استعماره في فلسطين، بحسب بيغن، لكنها لم تكن لتخدع اليهودي الذي كشف هذه الألاعيب، وقاتل العدو الخارجي.

في الواقع، يكذّب توم سيغيف[288] كل هذه المزاعم، قائلًا إن بريطانيا لم تكن يومًا عدوة لليهود في فلسطين، بل على العكس كانت عنصرًا أساسيًا في دعم ومساعدة الحركة الصهيونية في بناء مؤسساتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في فلسطين. ويبين سيغيف كيف قمع البريطانيون الفلسطينيين قبل قيام دولة إسرائيل بما يخدم أهداف الحركة الصهيونية بشكل مطلق.

في استعمارية بريطانيا

استكمالًا لرؤيته، يسعى بيغن إلى التركيز على البريطانيين باعتبارهم يشكلون حالة استعمار واضحة، في "أرض اليهود التاريخية" فلسطين. ومن خلال ذلك، يتحول الصراع مع هذا المستعمِر إلى صراع بين الحق والباطل، صراع بين المستعمِر الذي يسعى للسيطرة على الأرض، والأصلاني الذي يسعى إلى الحفاظ على أرضه. ومن هنا، ينطلق "الأصلاني اليهودي"، بنظر بيغن، إلى مقاومة هذا المستعمِر[289] والمحتلّ[290] الذي يقمع[291] ويظلم[292] ويسعى إلى القضاء على حكمه:

---

[287] المصدر السابق، ص76.

[288] Segev, Tom. 2000. One Palestine complete: Jews and Arabs under British Mandate, translated by Watzman, Haim. New York: Metropolitan Books. pp33-56.

[289] المصدر السابق، ص107.

[290] المصدر السابق، ص101، 103.

[291] المصدر السابق، ص394.

[292] المصدر السابق، ص487.

> إن مجرد وجود حركة للمقاومة... كان لا بد له –في النهاية– أن يقوض هيبة نظام حكم استعماري يعيش على أسطورة القدرة على كل شيء.[293]
>
> إن ما نريد أن نحققه هو جلاء البريطانيين، وإزالة الحكم البريطاني، وإقامة حكومة مؤقتة، وخلق دولة يهودية.[294]

ما لا يظهر هنا، مرة أخرى، هو التنكر الواضح للفلسطيني، الذي يخرج من المشهد بشكل كامل. الهجوم الأكبر الذي يشنه بيغن على الفلسطيني يأتي من طريق آخر، وبأسلوب آخر، من خلال ربط الفلسطيني بالمستعمِر البريطاني، فيداوم على تسمية المستعمِر البريطاني بالفلسطيني، وبذا يتحول الفلسطيني إلى مستعمِر بشكل غير مباشر دون أن يُذكر حتى. على سبيل المثال، استبدل بيغن مصطلح "السلطات الفلسطينية" في معرض حديثه بالسلطات البريطانية مرتين،[295] كما ذكر مصطلح "الشرطة الفلسطينية" في حديثه عن الشرطة البريطانية مرتين،[296] ووصف الموظفين البريطانيين بأنهم فلسطينيون.[297]

إن خطورة هذا الخطاب تأتي من الطريقة التي يستخدمها بيغن في القضاء على أصلانية الفلسطيني، لأنه يقول بشكل مباشر بأن المستعمِر البريطاني إنما هو مستعمِر فلسطيني، وبذا تختفي الفواصل والحدود بين الفلسطيني الأصلاني والمستعمِر البريطاني، ويتحول الفلسطيني إلى مستعمِر، في الوقت الذي يحتفظ به اليهودي بدور المقاوم الأصلاني لهذا الاستعمار، فيما يصبح الفلسطيني جزءًا من نظام استعماري مضطهد لليهود "الأصلانيين"، الذين تنسحب عنهم صفاتهم الاستعمارية لصالح "نضالهم".

---

[293] المصدر السابق، ص101.

[294] المصدر السابق، ص391.

[295] المصدر السابق، ص428، 429.

[296] المصدر السابق، ص178، 291.

[297] المصدر السابق، ص101.

في التحالف العربي البريطاني والمؤامرة

محاولة التقريب بين البريطاني والفلسطيني تستمرّ في الوعي الصهيوني، وتنتقل إلى مرحلة جديدة تحمل فيها معاني ضمنية تقوم على تصوير الفلسطيني باعتباره مستعمِرًا هو الآخر، إلى جانب المستعمِر الحقيقي البريطاني، وإنكارًا لصفة الاستعمار عن المستعمِر الصهيوني.

كان بيغن يؤمن بأن هناك مؤامرة كبيرة[298] يجري حياكتها بين الفلسطينيين والبريطانيين،[299] وتشتمل على كافة الخطوات التي ستجري في فلسطين قبل وبعد انسحاب البريطانيين من فلسطين،[300] وأنه نتيجة لهذه المؤامرة ينبغي أن يواجه كليهما على أنهما جسد سياسي واحد، ما يعني أن الفلسطيني يتماهى المستعمِر البريطاني، ويتحول هو الآخر إلى مستعمِر، أما الصهيوني فيتحول إلى أصلاني بحكم هذه العلاقة.

إن تآمر العرب مع البريطانيين، يعني أن مصالح العرب الفلسطينيين "المخلصين"،[301] كما يسميهم، تتقارب مع مصالح المستعمِر البريطاني بما يشير إلى استمرارية معينة في هذا الاستعمار من الفلسطينيين.

وتتطور المؤامرة لتتحول إلى فعل عسكري، كما يعتقد بيغن، إذ تمتد إلى استخدام العرب للأسلحة البريطانية في مواجهة اليهود، كما يدّعي، أثناء الحرب عام 1948، وإلى اشتراك البريطانيين إلى جانب العرب في القتال:

> إلا أن القدس المهجورة المعاصرة المعرضة لوابل القنابل كانت تستصرخ طلبًا للأسلحة، وبخاصة بعد الكارثة التي وقعت في "نبي دانيال" حيث كانت داخلة في مرمى المدافع

---

[298] المصدر السابق، ص434-436.

[299] المصدر السابق، ص75.

[300] المصدر السابق، ص434.

[301] المصدر السابق، ص97.

البريطانية، فاستسلمت وحدة كبيرة من الهاجاناه للعرب، وفقدت كمية كبيرة من الأسلحة اليهودية وقعت في أيدي العدو.[302]

في سرده أحداث معركة يافا التي بدأت يوم 25 أبريل 1948، يتضح، أكثر فأكثر، إصرار بيغن على توريط البريطانيين في القتال إلى جانب الفلسطينيين، واتهامهم بالوقوف الصارخ إلى جانب الفلسطينيين. يدّعي بيغن أن القوات البريطانية بدباباتها ومدافعها الثقيلة ساندت القوات العربية،[303] مسهمةً في تغيير سير المعركة لصالح العرب،[304] تمهيدًا للمؤامرة التي تحيكها مع العرب والمقرر تنفيذها في 15 أيار.[305]

في تغييب الفلسطيني

يبدو خطاب بيغن الأصلاني متماسكًا في روايته ولا يخلو من النواقص، فالصراع هو صراع مع مستعمِر أجنبي بريطاني مقابل يهودي أصلاني يحافظ على علاقته بالأرض منذ آلاف السنين، ويستعد الآن للعودة إليها وتحريرها من جيش الاحتلال الباغي. أما الفلسطيني فهو غائب عن كل هذا الصراع.

تغييب الفلسطيني له دور كبير في تحييد دوره ضد الاستعمار، في الوقت الذي يجري التركيز على دور اليهودي في الصراع ضد هذا المستعمِر. وإذا ما تجاهلنا التعاون البريطاني العربي ضد اليهود، يصبح لليهودي الحق في مواجهة المستعمِر الذي يشمل الفلسطيني والبريطاني على حد سواء، خاصة في ظل الالتباس المفاهيمي الذي يقدمه بيغن حول الاستعمار البريطاني الفلسطيني (مثل الشرطة الفلسطينية عن البريطانية).

---

[302] المصدر السابق، ص227.

[303] المصدر السابق، ص464-465، 466.

[304] المصدر السابق، ص471.

[305] المصدر السابق، ص471-472.

> كان اليهود في الدياسبورا (يهود الشتات) يتغنون بأملنا القديم في أن نصبح شعبًا حرًا في بلدنا، شعبًا حرًا .. في بلدنا. إن مثل هذا الشعب لا يمكن أن يحكمه الأجانب، ولا بد أن يحرر نفسه من نيرهم، ولن يكون الجهد للتحرر إلا مسألة وقت.[306]

لم يكن بيغن يرغب في أن يحكم الأجانب "بلده"، وقد كان يقصد بذلك البريطانيين بشكل أساسي، والفلسطينيين بشكل ثانوي ودون أن يذكر ذلك علانية. إن عدم ذكر الفلسطيني هو تغييب متعمد لحضوره، بطريقة توحي أن الفلسطيني غير موجود بتاتًا. وقد خرج العرب، من وجهة نظر بيغن، من المعادلة باكرًا:

> في أولى مراحل التمرد، أحرزنا بالفعل غرضًا استراتيجيًا هامًا. نجحنا في إحباط العامل العربي المحلي لمدة عشرين سنة كانت المبادرة العسكرية والسياسية خلالها في أيدي العرب.[307]

تغييب الفلسطيني عن الوجود لا يقتصر على إسكات صوته، أو الانتقاص من فاعلية صراعه مع المستعمِر البريطاني الذي يحتل أرضه الفلسطينية، ولكنه يمتد أيضًا إلى الضبابية التي يعيش فيها الفلسطيني في الفكر الصهيوني:

> فقد قتل وأصيب أكثر من مائتي شخص [في عملية فندق الملك داوود] وكان من بين الضحايا عدد كبير من كبار الضباط البريطانيين. ولقد حزنا، بصفة خاصة، على المدنيين الأجانب الذين لم نكن نود إيذاءهم، كما حزنا على اليهود المدنيين الخمسة عشر الذين سقطوا بصورة مفجعة.[308]

لم يرى بيغن سببًا للحزن على الضحايا العرب الذين لقوا حتفهم خلال عملية تفجير فندق الملك داوود، لكنه كان حزينًا "بصفة خاصة" على الأجانب وعلى اليهود الذين لقوا مصرعهم في التفجير. وقد ذكر هنا، بيغن، عدد اليهود الذين "سقطوا بصورة مفجعة" بشكل دقيق، فيما أشار –إشارةً– إلى المدنيين الذين سقطوا خلال

---

[306] المصدر السابق، ص84.

[307] المصدر السابق، ص96.

[308] المصدر السابق، ص298.

التفجير الذي استهدف الضباط البريطانيين، أما العرب الذين راحوا ضحية هذا التفجير فلم يأت على ذكرهم أساسًا.

وحتى في إحدى أهم اللحظات في تاريخ المنطقة، وهي المرحلة التي بدأت فيها أخبار تقسيم فلسطين من قبل الأمم المتحدة بالظهور إلى العلن، حتى في هذه اللحظة لم يعترف بيغن بالوجود الفلسطيني وتنكر له، فيما كان الصراع الذي يخوضه مرتبطًا بالبريطانيين فقط:

> رفعنا مذكرة إلى اللجنة [لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين التي كانت تزور فلسطين 16 يونيو 1947] ذكرناها فيها بقرار الدورة غير العادية للجمعية العمومية لمنظمة الأمم المتحدة الذي يدعو الأطراف المعنية في مشكلة فلسطين إلى الامتناع عن أعمال العنف أو التهديد باستعمال العنف. كررنا التصريح الذي سبق أن أدلت به منظمات المقاومة تؤكد فيها احترامها لنداء المنظمة الدولية إذا ما فعلت الحكومة البريطانية ذلك.[309]

لقد تضمنت هذه المذكرة الكثير عن مطالب الأرجون من الأمم المتحدة فيما يتعلق بالـ"احتلال" البريطاني وأوضاع السجناء اليهود المحكومين بالإعدام في السجون البريطانية، لكنها تجاهلت عن عمد الحديث عن الفلسطينيين، رغم أنه أسماها "مشكلة فلسطين". في الواقع، كان بيغن يرى أن فلسطين تعني بريطانيا، وأن أرض فلسطين هي "أرض إسرائيل" حتى زوال الحكم البريطاني.

---

[309] المصدر السابق، ص376.

في العلاقة مع العرب

كانت العلاقة، التي يرغب المستعمِر الصهيوني أن يقيمها مع العربي، علاقة تقوم على إخراس صوت محاولاته الدفاع عن أرضه ضد المستعمرين البريطاني والصهيوني. لقد سعى بيغن، لتوضيح ذلك، إلى التوجه إلى العرب بالقول إن "تمرده" لم يكن ضدهم ولا يستهدفهم، ولكنه بدلًا من ذلك، يستهدف البريطانيين:

> قلنا للعرب إنه ليست لدينا أية رغبة في محاربتهم أو الإضرار بهم، وإننا كنا نتطلع لأن نراهم مواطنين مسالمين في الدولة اليهودية المنتظرة. كما كنا نشير إلى الحقيقة غير المنكورة – حقيقة أنه في عملياتنا بالمناطق العربية لم يحدث أدنى تهجم على السلم العربي أو الأمن العربي، وحذرناهم بأن غرض البريطانيين هو الإيقاع بيننا وإثارتهم ضدنا حتى يقاتل بعضنا بعضًا، وأعربنا لهم عن الأمل الكبير في ألا يأبهوا لهذه الدعاية وإلا فإنهم إذا ما رفعوا يدًا ضد يهودي فسوف لا يكون أمامنا أي اختيار إلا أن نقوم ضدهم بكل ما أوتينا من قوة.[310]

أراد بيغن من السكان الأصلانيين الفلسطينيين أن يكونوا جزءًا "مسالمًا" من المواطنين داخل بنيته الاستعمارية، وبالتالي لم يرد لهم أن يكوّنوا دولتهم الخاصة أو أن يكونوا خارج دولته. لقد ورد في كثير من الأدبيات الاستعمارية مبدأ "الاستيعاب"[311] الذي يعمل من خلاله المستعمِر على ضم الأصلاني إلى جسده السياسي أو الاجتماعي، مسهمًا في القضاء على فرادته وعلى تميزه، ومحولًا إياه إلى جزء من الكيان الاستعماري دونما احترام لثقافته وأصلانيته.

رأى بيغن في الفلسطينيين الأصلانيين عربًا "يستمتعون بتدخين النارجيلة (الشيشة)"[312] و"لا يقرأون كثيرًا"،[313] وبالتالي فهم، من وجهة نظره، سلبيين إلى أبعد الحدود، ولا يستطيعون فعل شيء. أما إذا حاولوا "الاعتداء"

---

[310] المصدر السابق، ص98.

[311] Wolfe 2006.

[312] بيغن 1988، ص121.

[313] المصدر السابق، ص98.

على اليهود، فلهم جزاء واحد هو "الانتقام، والردع".[314] وإذا ما حاول العرب القيام بـ"عمليات شغب"[315] في "أرض إسرائيل فسيكون عقابهم كبيرًا، وتُقطّع أيديهم".[316]

كان بيغن يرى أن "نضاله" في أرض إسرائيل أسهم في تراجع مستوى العنف العربي تجاه اليهود:

> لمدة عشرين سنة كانت المبادرة العسكرية والسياسية خلالها في أيدي العرب. والحقائق التاريخية للهجمات العربية معروفة: المذابح في مدينة القدس القديمة سنة 1920، والهجوم الفتّاك في يافا سنة 1921، وحمّام الدم سنة 1929، وحملات العنف التي لم تتوقّف من سنة 1936 إلى سنة 1939... بدأ العرب، الذين لا يجوز اتهامهم بالجبن، كما لا يجوز اعتبارهم شجعانًا، يعتبرون اليهودي بمثابة "ولد الموت"، ويتطلّعون إلى المهرجان الكبير، مهرجان "بتاح اليهود" للذبح العام.[317]

يزعم بيغن أن "العرب المحليين"، أي الفلسطينيين، كانوا، حتى وقت طويل، المبادرين إلى شن الهجمات على اليهود في "أرض إسرائيل"، كما يزعم بيغن أنهم ارتكبوا "المجازر" بحق اليهود، بالتزامن مع استخدام مصطلحات ذات وقع كبير على القارئ مثل "فتّاك" و"حمّام الدم" و"مهرجان الذبح العام"، بما يوحي إلى تحوّلهم إلى إحدى القوى الذابحة والمضطهدة لليهود. إن الوقع الذي يمكن أن تحدثه مثل هذه المصطلحات وقع كبير يسعى إلى تحميل الفلسطيني المسؤولية عن البدء بالهجمات، كما يسعى إلى وصم هذه المقاومة الأصلانية الفلسطينية بصفات القتل وسفك الدماء دون سبب، ليتحول هو –المستعمِر– إلى "ضحية لمهرجانات الدم التي يشنها الفلسطيني عليه" على غرار سفك الدم اليهودي في أوروبا.

---

[314] المصدر السابق، ص99.

[315] المصدر السابق، ص75؛ 99؛ هامش 146.

[316] المصدر السابق، ص100.

[317] المصدر السابق، ص96.

كما يهدف هذا الخطاب الاستعماري إلى اتهام العرب بحب الدم والقتل، تهربًا من المسؤولية التي قد تلقى على عاتق المستعمِر الصهيوني، حين يمارس أي قمع بحق الأصلاني الفلسطيني. إن ذلك من شأنه أن يقدم تبريرًا هو أن العرب هم من بدأوا هذه الهجمات، وأن القمع الصهيوني هو رد على هذا "الاعتداء". لقد تناسى بيغن أن سبب هذه الهجمات كان الاستعمار اليهودي الصهيوني في فلسطين، وأن العرب في ثوراتهم ضد البريطانيين إنما كانوا يعترضون على سياسات الاستيطان العبري غير الشرعي في فلسطين، وهكذا يجري فصل النتيجة عن السبب بطريقة توحي بأن العرب هاجموا اليهود دونما سبب.

في الواقع، لقد كانت رؤية بيغن للثورات والهبات الفلسطينية ضد الاستعمار البريطاني تستند إلى اعتبارها مجرد "عمليات شغب"[318] مفرّغة من محتواها الحضاري، بينما كان يرى في "تمرده" فعلًا حضاريًا أخلاقيًا. وبذلك، يقدّم بيغن المقاومة الفلسطينية على أنها مجرد "مشاغبة"، بما يشكّل إقصاءً للروح الثورية التي يحملها الأصلاني الفلسطيني في مقاومته للمستعمِر، وتقديمه كشخص عنيف همجيّ مقابل "تمرّد" اليهود الحضاري، فإثارة الشغب عادة مرتبطة بجماعة بدون تنظيم عقلاني، لكن التمرد يرتبط بتنظيم جماعي عقلاني حضاري على الأغلب.

في الغزو العربي

يعتبر مناحيم بيغن أن أحداث الحرب 1947–1949 كانت حربًا عادية نشأت بين طرفين،[319] وليست ثورة ضد الظلم والاستعمار، أو ثورة أصلانية على المستعمِر.

---

[318] المصدر السابق، ص75؛ 99؛ هامش 146.

[319] المصدر السابق، ص197.

إن تجريد الحرب الثورية التي خاضها الفلسطينيون من معانيها، إنما يهدف إلى التقليل من شأن المقاومة الفلسطينية الأصلانية ضد المستعمِر الصهيوني، وتحويلهم إلى طرف من أطراف الحرب، كما تجري في أي مكان من العالم. لقد أسهم ذلك في استدخال مفهوم "الغزو العربي"[320] إلى الفكر الصهيوني باعتباره حدثًا خارجيًا وقف إلى جانب أحد أطراف النزاع.

ورغم أن هذا المصطلح ليس جديدًا بالنسبة للقادة الصهاينة، إلا أن بيغن وظفه من أجل رسم صورة مفادها أن الصهيونية قدمت "كفاحًا تاريخيًا في مواجهة الغزاة العرب"[321] الذين "يتربصون" بالصهيونية وأن هذه الحرب كانت "حربًا دفاعية"،[322] لا هجومية ولا استعمارية:

> في الأشهر الأولى التي سبقت الغزو العربي. وبينما كانت الدول العربية الخمس (مصر والعراق وسوريا ولبنان وشرق الأردن) تجري تحضيرات العدوان المدبر، كنا دائبين على عمل هجمات في المنطقة العربية.[323]

من الملاحظ هنا، أن بيغن لا يورد كلمة "الغزو العربي" على الأحداث التي جرت بعد دخول الجيوش العربية إلى فلسطين بعد إعلان قيام الدولة فقط، ولكنه يعتبر الحرب بحد ذاتها كانت غزوًا عربيًا حتى قبل دخول الجيوش العربية إذ يقول: "وحتى في يناير سنة 1948 عندما كان الإقليم يعاني من آلام الغزو العربي..."[324]. إن المعنى الذي يمكن أن يخرج من هذه العبارة هو أن العرب في دفاعهم عن أرضهم في حرب العام 1948 كانوا غزاة للدولة اليهودية، لا مدافعين عن وطنهم ضد هذا المشروع الاستعماري.

---

[320] المصدر السابق، ص، 447.

[321] المصدر السابق، ص99.

[322] المصدر السابق، ص113.

[323] المصدر السابق، ص455.

[324] المصدر السابق، ص425.

وحتى فيما يتعلق بزعم الصهيونية بأن "أرض إسرائيل تعرّضت لغزو عربي" مع انسحاب البريطانيين في شهر أيار 1948، فلم تصبت صحة هذا الادعاء. في هذا الشأن، كتب المؤرخ الإسرائيلي آفي شلايم[325] قائلًا إن العرب الذين توجهوا إلى فلسطين أثناء الحرب لم يكونوا جيشًا نظاميًا موحدًا متفقًا على أهداف الحرب، وأن مجموع القوات العربية لم يكن يكفي لـ"غزو" إسرائيل، على عكس الأسطورة الصهيونية التي روجت أن أعداد القوات العربية كانت ضخمة للغاية وتهدف لـ"غزو فلسطين". ويذكر شلايم أن خمسة دول عربية أرسلت جنودًا لشن "حملة" فقط، وليس غزوًا، فيما احتفظت بمعظم قواتها داخل حدودها، بما يفند تهويل بيغن وغيره من الصهاينة بأن إسرائيل وقفت في وجه جيوش بأكملها، وانتصرت عليها.

"الاستعمار الصهيوني حركة مقاومة"

استمرارًا للتماسك الذي يظهره بيغن في خطابه الأصلاني، تبدو حركة الاستيطان الصهيوني في فلسطين كحركة "مقاومة ثورية متمردة ضد الحكم الأجنبي البريطاني". إن مصطلح "التمرد" الذي يرد كاسم للكتاب الذي وضعه بيغن[326] يظهر بعض الدلالات التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالأساطير الصهيونية المرتبطة بالتاريخ اليهودي.

يرى بيغن أن نشوء حركة "تمرد" يهودية كان ضرورة ملحّة جدًا في مواجهة الاحتلال البريطاني، لأن هذا التمرد جاء كحركة مقاومة من أجل حرّية الشعب اليهودي بدل الخضوع للعدو، وبقائه.[327] وهو، إذ يرى في

---

[325] شلايم، آفي. 2004. إسرائيل والائتلاف العربي في سنة 1948 في روغان، يوجين وآفي شلايم. الحرب من أجل فلسطين: إعادة كتابة تاريخ 1948 ترجمة أسعد كامل إلياس. الرياض: مكتبة العبيكان. ص139–176.

[326] عنوان الكتاب الأصلي بالعبرية هو המרד، والمعنى المباشر للكلمة هو "التمرد"، وتستخدم أحيانًا بمعنى الثورة، وقد استخدمت الطبعة الإنجليزية من الكتاب عنوان The Revolution.

[327] بيغن 1988، ص86.

نفسه مقاتلًا من أجل العدالة، يقدم أوصافًا كثيرة لنفسه، فتارة يستخدم مصطلح "الكفاح من أجل الحرية"،[328] أو "الكفاح من أجل التحرير"،[329] وتارة يستخدم مصطلح "الكفاح منقطع النظير في تاريخ البشرية"،[330] أو "الكفاح الوطني"،[331] ومرات أخرى يستخدم مصطلح "النضال"[332] أو "المقاومة".[333] في حين يظهر مرات أخرى تطورًا أكبر حين يقدم على وصف العمليات التخريبية التي ينفذها بـ"العمليات الفدائية"،[334] أو حين يصف قواته في الأرجون بـ"الجيش الشعبي"،[335] أو "الجيش الديمقراطي"،[336] أو حين يصف حربه مع البريطانيين بـ"الحرب الثورية"[337] أو "الحرب من أجل الحقوق الوطنية في أرض إسرائيل".[338] إن لهذه المصطلحات معاني تختفي وراء الكلمات البسيطة، لتوحي بالطريقة التي يفكر بها بيغن حول استعماره لفلسطين، وبالطريقة التي يستخدمها في سبيل إخفائه هذا الاستعمار والتستر وراء كلمات فضفاضة توحي بمضامين النضال العادل.

ومن هنا، يرى بيغن أن "نضاله" هذا هو الطريق إلى إعلاء شأن القضية "الوطنية" اليهودية، التي تسعى إلى "لم الشمل اليهودي" وترسيخه في فلسطين، وبهذا يكون قد تم تمويه الاستعمار على أنه قضية وطنية خاصة باليهود تعمل على رفع شأن اليهود أنفسهم بدل أن تكون اعتداءً على السكان الأصليين لفلسطين:

---

[328] المصدر السابق، ص92.
[329] المصدر السابق، ص98.
[330] المصدر السابق، ص87.
[331] المصدر السابق، ص104.
[332] المصدر السابق، ص98.
[333] المصدر السابق، ص101؛ 110.
[334] المصدر السابق، ص148.
[335] المصدر السابق، ص112.
[336] المصدر السابق، ص127
[337] المصدر السابق، ص110.
[338] المصدر السابق، ص44.

> وفي التحليل النهائي كيف يحتمل أن يضر كفاحنا بالقضية الوطنية اليهودية؟ إننا نرفع مسألة أرض إسرائيل إلى مدار التفات الجماهير.[339]

إضافة إلى ذلك، يسعى بيغن إلى رسم صورة مفادها أن دول العالم، وحركات التحرر في أنحاء المعمورة تصطف إلى جانب هذا النضال الشريف، كونه نضال ضد استعمار، يشبه النضال التحرري الذي تخوضه هذه الحركات حول العالم –كالمهاتما غاندي مثلًا[340]– ويقوم على أسس الحق والعدالة والمثل العليا:

> وإذ أكتب عن جيش المقاومة السرية في هذا المقام لا بد لي أن أذكر واحدًا من العوامل التي جعلت أرجون أسرة محاربة فعلًا لا قولًا. إن الحب –حب المثل الأعلى– هو الذي سكب المحبة الأخوية المتبادلة في قلوب المحاربين، وكانت تلك المحبة هي سر قوتهم.[341]

ولكن هذا لا يعني على أية، من وجهة نظره، أن "النضال اليهودي" ضد الاستعمار البريطاني كان مشابهًا بالكامل لباقي حركات التحرر في العالم، لأن الأخيرة لا تواجه خطر الإبادة في حال هزمت في معاركها النضالية، على عكس الصهيونية التي تمثّل حالة فريدة:

> مع هذا، كانت قضيتنا فريدة في بابها. فعندما بدأنا تمردنا ضد نير الظلم وضد الإراقة الطاغية للدم اليهودي، كنا على يقين من أن شعبنا لم يكن لديه أي شيء ليخسره اللهم إلا احتمال الإبادة.[342]

إن الفرادة التي أرادها بيغن لـ"حركة تحرره" توحي بحالة الاستثناء التي يرغب بأن يعيشها، وبالدور التاريخي الذي يقنع نفسه ويقنع أتباعه من الصهاينة بأنه دور حركته الصهيونية المتميز عن باقي حركات التحرر. ومن هنا، تظهر الطريقة التي أراد من خلالها بيغن تحويل الصهيونية وتاريخها إلى تاريخ خاص وفريد من نوعه:

---

[339] المصدر السابق، ص205.

[340] بيغن 1988، ص 197.

[341] المصدر السابق، ص126.

[342] المصدر السابق، ص86–87.

> لم يسبق أن كان في التاريخ حركة تحرير أصلب من هذه الحركة النابعة من هاوية الدم والغضب العبري.[343]

> ليس من شك في أن بعث الاستقلال الوطني العبري للحياة في جيلنا حدث فريد بغير نظير في تاريخ الإنسان. لقد أخرجت أمة من أرضها بعد ضياع حريتها وبعد الفشل التام الذي أصاب ثوراتها. وأخذت تتجول على وجه الأرض قرابة ألفي عام وكان تجوالها منقوعًا في الدم. والآن في الجيل الحادي والسبعين من منفاه يعود هذا الشعب المتجول الشارد إلى أرض الوطن من جديد.[344]

على أية حال، إن موضعة بيغن لنفسه إلى جانب حركات التحرر في العالم تقول بطريقة غير مباشرة، إن الصهيونية، كانت ولا تزال، حركة تحرر وطني تشبه إلى حد كبير حركات النضال في العالم، الذي تشاركه الأهداف النبيلة في سعيها إلى تخليص نفسها من الاضطهاد، والسعي إلى التحرر، بدل أن تعترف بأنها حركة استعمارية قامت على استيلاء لا أخلاقي على أراضي السكان الأصليين في فلسطين:

> إن هذه الجلدات الست والثلاثين سوف لا يحس بها اليهود فحسب ولكن ستشعر بها كل الشعوب المضطهدة تحت الحكم الأجنبي.[345]

في موضع آخر، وأثناء زيارة اللجنة الأممية التي اقترحت التقسيم لاحقًا، التقى بيغن اثنين من أعضاء هذه اللجنة من أمريكا الجنوبية، اعتبروا أنفسهم إلى جانب النضال اليهودي ضد البريطانيين في فلسطين، بسبب تشابه هذه التجربة مع نضالات حركات التحرر في دول أمريكا الجنوبية. أثناء هذه الزيارة، تعانق بيغن مع أحد أعضاء هذه اللجنة ويدعى فابريجات، ثم قال له: "إننا أخوة في السلاح، وإن محاربي العالم من أجل الحرية يكونون أسرة واحدة".[346] يظهر من هذا الموقف الطريقة التي يحاول من خلالها بيغن فرض نفسه،

---

[343] المصدر السابق، ص352.

[344] المصدر السابق، ص483-484.

[345] بيغن 1988، ص 312.

[346] بيغن 1988، ص 402.

وفرض حركته الاستعمارية التخريبية، على قائمة حركات التحرر في العالم. وهو بذلك إنما يبعد عن نفسه صفة الاستعمار فيما يقرّب نفسه إلى الأصلانية التي تقاوم الاستعمار.

في "فلسطينية" اليهود

بالنسبة لبيغن، فإن اليهودي الذي يهاجر إلى فلسطين، يتحول تلقائيًا إلى يهودي من أرض إسرائيل أو يهودي فلسطيني، أي يهودي منتمٍ إلى المكان:

> ففي أول الأمر صدرت الأوامر لليهود المحتجزين [في السجون البريطانية] بألا يفصحوا عن شخصياتهم، وكانت الإجابة العامة التي قدموها للمحققين البريطانيين هي: "يهودي من فلسطين".[347]

وفي قصة يوردها بيغن، يتحدث عن مستعمِر صهيوني هاجر إلى فلسطين، قبل أن يتهم بارتكاب أعمال إرهابية على خلفية تفجير وقع في السفارة الإنجليزية في إيطاليا على يد الأرجون، يدعي بيغن أن هذا المستعمِر فلسطيني:

> طلب عملاء المخابرات البريطانية، الذين كانت تزخر بهم إيطاليا في ذلك الوقت، إلى الحكومة الإيطالية تسليم "آينشتاين" إليهم حيث أنه مواطن فلسطيني.[348]

من الجدير بالملاحظة هنا، أن بيغن كان يستخدم كلمة فلسطين على أنها اسم سابق للمكان،[349] وبالتالي فهو اسم مؤقت للمكان يرتبط بحقبة زمنية معينة بالنسبة له، أما الاسم الحقيقي للمكان فهو، بالنسبة له، "أرض إسرائيل".

---

[347] المصدر السابق، ص283.

[348] المصدر السابق، ص195.

المستعمِر الصهيوني اليهودي الأوروبي يتحول إلى فلسطيني، وبذلك تنتقل الحالة التي يتمتع بها صهيوني انتقل من روسيا أو ألمانيا إلى فلسطين إلى يهودي محلي فلسطيني:

> كان عندنا أعضاء من تونس وهاربون من بولندا وإيران، من فرنسا واليمن ... وأكثر من هؤلاء وهؤلاء كان الأعضاء من أرض إسرائيل نفسها.[350]

وكما لاحظنا من قبل، فقد استخدم بيغن مصطلحات تدل على أن البريطانيين كانوا فلسطينيين (مثل الشرطة الفلسطينية) في "أرض إسرائيل"، لكن في سياقات أخرى، يتحول اليهودي إلى فلسطيني في محاولة لأصلنته.

في توظيف الديني لصالح الاستعماري

يظهر من متابعة خطاب بيغن الاستعماري، كثرة استخدامه للمصطلحات المفاهيم والدينية، فهو –على غرار حالات استعمارية أخرى– يعمد إلى ربط الديني بالاستعماري، وبالتالي تحويل الدين إلى أداة يجري توظيفها لصالح الاستعمار. في الواقع، لقد لعبت الصهيونية على هذا الوتر كثيرًا، مدعية أنها جاءت تنفيذًا لأوامر إلهية لا لأوامر استعمارية.

إن التسمية التي يطلقها بيغن على الأرض، أي أرض إسرائيل، بحد ذاتها، يمكن أن تعتبر ضمن التسميات التوراتية لفلسطين، وهي التسمية التي لا ينكفئ الصهيونيون عن إطلاقها على أرض فلسطين في كل مكان، وكما ذكرنا سابقًا، فإن اسم "فلسطين" هو اسم سابق ومؤقت للمنطقة بالنسبة لبيغن، لكنه لا يعبر عن "الاسم الحقيقي للمكان وهو أرض إسرائيل".

---

[349] المصدر السابق، ص34.

[350] المصدر السابق، ص131.

إن ما يحول "فلسطين" إلى إسرائيل –بالنسبة لبيغن– هو "العودة اليهودية" و"الفتح اليهودي لها"، أي "عودة" اليهود إليها من كل مكان في العالم تنفيذًا لأوامر توراتية إلهية، بدأت مع أمر الله –كما ورد في التوراة– ليوشع (أو يشوع) أن "يفتح" كنعان بعد أن يعبر نهر الأردن باتجاهها، ويحتل أريحا ومن ثم باقي المناطق الكنعانية، وهو الأمر الذي تحقق في القصة التي يوردها سفر يوشع.

إن إيراد يشوع[351] أثناء الحديث عن "التمرد" اليهودي ضد البريطانيين –وهو السياق الذي ورد فيه ذكر يشوع– له دلالات هامة تقوم على تصور "التمرد" ضد البريطانيين باعتباره مماثلًا للفتح اليهودي لأرض كنعان كما ورد في التوراة، وهو بذلك إنما يقوم بمحاولة لتشبيه صراعه ضد البريطانيين بـ"الفتح" اليهودي التوراتي لكنعان الذي لم يكن إلا غزوًا من شعبٍ قديم متخيّل لم يرد ذكره إلا في التوراة.

إن الصهيونية تريد أن يتحول هذا الأمر التوراتي إلى صيرورة تاريخية أبدية تعطي الحق لكل شخص يدين باليهودية أن "يعود" إلى فلسطين ويستعمرها حتى ولو بعد آلاف السنين، وبذلك تحافظ الصهيونية على مشروعها باعتباره جاء في خدمة الدين وفي خدمة الرب، وليس تنفيذًا لأفكار استعمارية بحتة.

لقد عمدت الصهيونية –كما نراها من خلال بيغن– إلى تبني الإرث اليهودي التاريخي بشكل حصري، وبذا يصبح اليهودي في يومنا هذا وريثًا لكل اليهود الذين عاشوا في القرون الماضية، ما يعني أن اليهود –عبر الزمان– يشكلون جماعة تاريخية واحدة يربطهم نسب واحد، وإرث واحد هو إرث اليهود. ووفق هذا المعنى يصبح من الممكن تحويل يوشع إلى "أحد القادة العسكريين العظام في تاريخ اليهود"[352] في تماهٍ مع تاريخ الصهيونية.

---

[351] المصدر السابق، ص183.

[352] المصدر السابق، ص183.

وعلى غرار هذا "الفتح الكنعاني"، يمكن لبيغن أن يوظف هذا "الفتح المدعوم ربانيًا" في استعماره لفلسطين عبر تحويل حاضر الصهيونية إلى أعمال جاءت لأجل الرب، وبذلك يصبح تدمير يافا وإحلال سكانها بالمستعمرين اليهود من قبل الصهيونية "فتحًا لها"،[353] كما تتحول مدينة القدس –وفق هذا المفهوم– إلى "مدينة داوود التي تنتظر تحريرها من العرب".[354]

مفهوم التحرير يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالفتح والعودة، لأنه يقوم على اعتبار أن مكانًا ما كان يومًا لليهود، لكن أحدًا ما استولى عليه، ثم يأتي دور الصهيونية لـ"تحرير" هذا المكان –أو فتحه– و"تعيده" إلى اليهود، مسلحة بقوة الإيمان برب إسرائيل، وبهذا المعنى تتحول النكبة الفلسطينية إلى "حرب تحرير" بين اليهود والأغيار:

> علم الحرية في أيدينا وحرارة الإيمان في قلوبنا ... فلنشكر رب إسرائيل الذي أنزل في قلوبنا الإيمان والإدراك والمحبة فاستطعنا أن نتحاشى الحرب الأهلية. وهكذا كانت حرب التحرير.[355]

إن التداخل الكبير بين المفاهيم الصهيونية والأحداث التاريخية التي حدثت لليهود، يعسّر من إمكانية التمييز بين الصهيوني واليهودي، ويتحولان، هنا، إلى شيء واحد من خلال سيطرة الصهيونية على الإرث اليهودي، وكذلك يتحول الصراع القديم بين الكنعانيين واليشوعيين إلى صراع يجري توظيفه صهيونيًا في الحرب الاستعمارية التي يقودها ضد الفلسطينيين:

> لا، ليست الفكرة أن تموت بيدك، فإن المقاتل لا يزهق روحه بنفسه، ولكن إذا تبدد كل أمل فقد رسم لنا بطلنا القديم الطريق عندما كان في قبضة الفلسطينيين الأقدمين، إذا لم تكن هناك خيرة سوى الموت فقد يحاول المحارب أن يسدد إلى عدوه ضربة أخيرة.[356]

---

[353] المصدر السابق، ص455–481.

[354] المصدر السابق، ص230.

[355] المصدر السابق، ص236.

[356] المصدر السابق، ص361.

ومن هنا، يتبنى الصهيوني ماضي اليهود، ويستنجد به في سبيل البحث عن الانتصار في مشروعه الاستعماري. وهكذا أيضًا، يحاول إسقاط المفاهيم التاريخية على واقعه الاستعماري الحالي:

> حقيقة، لقد توج "الحشمونيين" بالانتصار، إلا أن ذلك كان استثناء. كيف نتأكد أن المعجزة ستتكرر؟[357]
>
> لقد كان مذبح الرب يتطلب تضحيات بغير حساب. كنا نقدم في ذلك الوقت [معركة يافا – 25 أبريل 1948] أحسن أبنائنا ضحية لعيد الفصح لكي نضمن أن أيامنا سوف تتجدد كما كانت من قديم الزمان.[358]

عمد بيغن هنا، إلى ربط "مذبح الرب" التوراتي بالمعركة في يافا عام 1948، بما يشير إلى إسقاط المفاهيم الدينية على العمليات الاستعمارية. وعلى نفس المنوال، كان يوم إعلان قيام دولة إسرائيل –بالنسبة لبيغن– يومًا مقدسًا،[359] لأنها قامت على أرض مقدسة،[360] رغم أنها، "لم تقم على أرض إسرائيل الكاملة":

> كان سرور شعبنا [بقرار التقسيم 1947] زائدًا، إلا أن أرجون ذكرت بأن "أرض الوطن" قد قطعت، كما حذرت من أن الحرب تدق على الأبواب. وقد أكدنا عقيدة محاربي المقاومة لأول وهلة، فقلنا: "إن تقسيم أرض الوطن إجراء غير شرعي ولن يعترف به البتة. إن توقيع الأفراد والمؤسسات على اتفاقية التقسيم باطل ولن يكون ملزمًا للشعب اليهودي، فلقد كانت القدس، وستبقى أبدًا، عاصمتنا، ولا بد أن تعود أرض إسرائيل إلى شعب إسرائيل، كلها، وإلى الأبد.[361]

إن تقسيم "أرض إسرائيل الكاملة" أو إقامة الدولة على "جزء من أرض إسرائيل الكاملة" –بالنسبة لبيغن– هو غير شرعي وباطل، بل كفر وضلال، لأنه لا يعطي لليهود "كامل حقهم" في أرض فلسطين، كما "وعدهم

---

[357] المصدر السابق، ص291.

[358] المصدر السابق، ص467.

[359] المصدر السابق، ص484.

[360] المصدر السابق، ص215.

[361] المصدر السابق، ص436.

الرب بها". ولذلك فهو مرفوض من قبل "المتمرد اليهودي" الذي حارب الطغيان الاستعماري البريطاني طيلة سنوات طويلة –كما يتصور بيغن– ليحصل على كامل ميراثه الاستعماري لا على جزء منه لإقامة "الدولة اليهودية المقدسة" عليها:

> إن الأسلحة العبرية هي التي ستقرر حدود الدولة العبرية ... إن الأرض التي وعدنا الله بها أرض موحدة، وإن أية محاولة لتمزيق أوصالها ليست جريمة فحسب، بل إنها كفر وضلال. إن من لا يعترف بحقنا الطبيعي في إقليمنا بأجمعه لا يعترف بحقنا في أي جزء منه، وسوف لا نتنازل عن هذا الحق الطبيعي... ولسوف نصمد وسوف يكون الله في عوننا، يحفظ الشباب العبري الباسل، ويعين الأمهات العبريات على تقديم أولادهن –كما فعلت (حنا)– إلى مذبح الرب... سوف نمضي قدمًا في طريقنا إلى المعركة، جند الله، تلهمنا أرواح أبطالنا الأقدميين من غزاة (كنعان) إلى متمردي (يهوذا) وترفرف علينا أرواح هؤلاء الذين بعثوا أمتنا بعثًا جديدًا بعد مواتها.[362]

لقد كان قيام دولة إسرائيل أساسًا لعودة كل شعب إسرائيل إلى أرضه، كما يرى بيغن، وقيام الدولة هو المرحلة الأولى التي قام "التمرد اليهودي" بإنجازها في طريق محاربته "الشياطين ووقوفها في وجه الباطل":

> لقد وضع [إعلان استقلال دولة إسرائيل] الأساس –مجرد أساس فقط– للاستقلال الحقيقي. انتهت مرحلة من مراحل المعركة من أجل الحرية ومن أجل عودة شعب إسرائيل قاطبة إلى أرض الوطن، معركة استرجاع أرض إسرائيل المقدسة إلى أصحابها الذين وعدهم الله بها. وما تلك إلا مرحلة واحدة فقط... ومع هذا، وحتى قبل أن تكون دولتنا قادرة على أن تنشئ مؤسساتها الوطنية المعتادة، فإن عليها أن تحارب –أو أن تستمر في حربها– ضد أعداء شياطين وضد مرتزقة متعطشين للدماء.[363]

---

[362] المصدر السابق، ص488.

[363] المصدر السابق، ص484–485.

> استمرت المعركة!! ولسوف تروج كواحدة من أعظم المعارك في تاريخنا. لم يكن الخصوم دبابات أو قوات مسلحة تتقاتل معًا [في تفجير فندق الملك داوود] إنما كان الخصوم ذلكما الخصمين القديمين اللذين كانا يقتتلان منذ بداية الزمان: الحق والباطل.[364]

لقد رأى بيغن في إعلان قيام دولته استمرارًا للصراع التاريخي بين الحق والباطل، وبذلك تصبح دولة إسرائيل، الحق الذي يحارب الباطل ويضربه بقوة، في استمرار للمعركة التاريخية بين الطرفين. وهنا، يضع بيغن نفسه عند إقامة الدولة الاستعمارية – إسرائيل موضع الحق الذي يناضل ضد الباطل مدعومًا بتوجيهات الأنبياء والرسل:

> لقد كنا في حاجة إلى التحذيرات والإنذارات ولو أنها غالبًا ما كانت تذهب هباء فلا يؤبه لها –إنذارات الأنبياء والرسل... كل ذلك كان ضروريًا لكي نصل إلى المرحلة الحالية، حيث يوجد ستمائة ألف يهودي في أرض الوطن، وحيث أمكان طرد الطغيان المباشر من جزء، على الأقل، من إقليم كله ملك لنا.[365]

في تعبيرات السيطرة على الأرض

إن الفرق بين المصطلحات التي يستخدمها بيغن للتعبير عن استعماره هو للأرض الفلسطينية، والمصطلحات التي يستخدمها للتعبير عن الاستعمار البريطاني للأرض كبيرٌ جدًا، فهو يرى أنه "يعود" إلى أرض ملك له، فيما يرى أن البريطاني يغتصبها منه، أما الفلسطيني فهو في مكان ضبابي، يعبّر عنه ضمنيًا أثناء الحديث عن "حصار القدس طيلة 19 قرنًا من الزمان".[366]

---

[364] المصدر السابق، ص300.

[365] المصدر السابق، ص485–486.

[366] المصدر السابق، ص447.

كان بيغن حذرًا في استخدامه المصطلحات المتعلقة باستعماره للأرض الفلسطينية، فقد كان حريصًا على ألا يظهر استعماره بمظهر الظالم الذي يستولي على أرض غيره، ولكن، بدلًا من ذلك، بمظهر من يستعيد أرضًا سلبت منه، ينبغي أن يعيد لها سيادته العبرية عليها.[367]

لقد كان الاستعمار الصهيوني لفلسطين، بالنسبة لبيغن، استيلاءً على المناطق لنقل السيادة العبرية إليها. لقد كان يدرك أنه يستولي على الأرض ليحتفظ بها، لكنه كان يسمي ذلك، بطريقة أو بأخرى، "إعادة للسيادة العبرية" وليس خلقًا لها من العدم على أرض الأصلانيين. في المقابل، يزعم أن بريطانيا تغتصب الأرض من اليهود عبر استعمارها في فلسطين:

> إن لدى الأمة التي تحارب من أجل حياتها ومن أجل مستقبلها أسلحة كثيرة. إن الامتناع عن دفع الضرائب لنظام الحكم [البريطاني] القائم، وعدم إطاعة أوامره وقوانينه، والامتناع عن استخدام مكاتبه وموظفيه ومحاكمه، واحتلال أراضي الحكومة –وهي الأراضي التي اغتصبتها الحكومة منا– ورفض الخروج منها، وإقامة حكومة يهودية مؤقتة تتولى قيادة الكفاح الوطني .. كل هذه من أعمال الحرب.[368]

إذا حاولنا ربط هذه النقطة مع ادعاء تحالف عرب فلسطين مع البريطانيين في المؤامرة التي تحدثنا عنها سابقًا، يصبح الفلسطيني أيضًا مغتصبًا للأرض، على غرار حليفه البريطاني. ويصبح الأصلاني الوحيد في المكان هو اليهودي.

---

[367] المصدر السابق، ص201.

[368] المصدر السابق، ص273.

في فراغ الأرض

استمرارًا للخطاب الاستعماري الذي استخدمه الزعماء الصهيونيون من قبل، يزعم بيغن بأن أرض فلسطين كانت أرضًا فارغة جرداء (terra nullius)، تخلو تقريبًا من وجود أي حياة فيها. فهو يدعي أن فلسطين "تملأها الصحراء والتلال الجرداء والأرض الحجرية"،[369] وأن مدنها، وخاصة القدس، مهجورة.[370]

وبما أنه لم يكن يسعى للسيطرة على فلسطين فحسب، فقد انتقل هذا الخطاب أيضًا إلى منطقة شرق نهر الأردن، التي يرى فيها شبيهًا بمنطقة فلسطين. ويرى بيغن في هذه المنطقة أرضًا شبه خالية من السكان الأصلانيين:

> هنا كانت إمارة شرق الأردن "إرثنا وتراثنا"... وتكاد المنطقة أن تكون خالية تمامًا. هنا وهناك على الرقعة الفسيحة تجد كوخ بدوي أو ترى جملًا. وعندما تقترب من [نهر] الأردن نفسه فإنك تستطيع أن ترى قليلًا من الناس وقليلًا من حقول القمح. الضفة الشرقية من الأرض هي أرض إسرائيل.[371]

في الواقع إن هذا الفراغ الذي يغطي الأرض الفلسطينية في الفكر الصهيوني، يراد منه إنكار الوجود الفلسطيني، وإنكار تاريخ وجوده في المكان، إضافة إلى التهرب من المسؤولية التي قد تقع عليه لاحقًا بسبب استعماره لهذه الأرض عبر نظرة استشراقية تركّز على الإهمال وعدم الاهتمام بالأرض، إلى جانب التركيز على حالة البداوة والتنقل التي يعيشها العرب في المكان، بهدف إسكات العلاقة بين الأرض وأصحابها.

---

[369] المصدر السابق، ص75.

[370] المصدر السابق، ص227.

[371] المصدر السابق، ص67.

في التهرب من المسؤولية

التهرب من المسؤوليات التي تترتب بسبب عملية الاستعمار الصهيوني واضح جدًا في خطاب بيغن الاستعماري والأصلاني. لقد أوجد بيغن لنفسه، في معظم الحالات، المبررات التي أقنع بها نفسه بأن عملية الاستعمار لم تكن إلا عملية أخلاقية.

بداية، وأثناء حديثه عن مرحلة "التمرد" ما قبل خروج الاستعمار البريطاني من أرض فلسطين، فإنه لا يقوم على ذكر أي حادث موجه ضد الفلسطينيين، فقد كان يزعم بأن صراعه كان موجهًا ضد البريطانيين فقط، وليس ضد العرب. لكن، وعلى أية حال، تذكر كثير من المصادر أن الأرجون شنت هجمات كثيرة ضد الفلسطينيين قبل العام 1948، في حين، لم يقدم بيغن على ذكر أي منها، واكتفى بالتعليق على العمليات التي نفذها ضد البريطانيين.

من ناحية ثانية، يؤمن بيغن بنظرية المؤامرة التي يجتمع فيها العالم ضده، فهو يزعم مثلًا أن ضابطًا بريطانيًا كان وراء منع إخلاء فندق الملك داوود[372] عندما قامت الأرجون والعصابات الصهيونية بتفجيره، وبذلك تسبب هذا الضابط بموت عشرات الضحايا بدون سبب، بما يوحي بتهربه من مسؤولية مقتل عشرات الضحايا.

من ناحية ثالثة، لقد كان بدء "التمرد اليهودي" ناتجًا عن الهجمات العربية التي شجعتها سلطات الانتداب البريطانية، وليس اعتداءً من اليهود على العرب، فهو يزعم:

> وفي سنة 1938 عندما نظم بعض العرب، بتشجيع من السلطات [البريطانية] هجمات ضد اليهود، قامت أرجون تسفاي ليومي... تمردت ضد إرث الدياسبورا فنبذت سياسة ضبط النفس، وخرجت للهجوم.[373]

---

[372] المصدر السابق، ص300.

[373] المصدر السابق، ص492.

واستمر التحريض البريطاني ليصل إلى مرحلة أن البريطانيين هم من حثوا العرب على الهروب من فلسطين في بداية الحرب:

> وفي الفترة التي سبقت الغزو العربي سنة 1948، كانت السلطات البريطانية هي التي حثت العرب على الهروب من الإقليم لكي يعودوا إليه منتصرين فيما بعد.[374]

وفي حديثه عن حرب العام 1948، يحاول أن يحمّل العرب الفلسطينيين مسؤولية نشوء الحرب ونتائجها، وكان مصرًا على أن هذه الحرب كانت "حربًا دفاعية"[375] لأن العرب هم من بادروا بالهجوم على اليهود في نوفمبر سنة 1947[376] أي بعد صدور قرار التقسيم مباشرة:

> حقيقة، إنه في اليوم التالي لصدور هذا القرار [قرار التقسيم 29 نوفمبر 1947] قام العرب بهجمات فتاكة في المدن وعلى الطرق.[377]
>
> وبعد أسبوعين من هجمات العرب بدأ جنود أرجون أول هجوم مضاد شنته القوات اليهودية. وطوال أيام ثلاثة في المدة من 11 إلى 13 ديسمبر، ضربت وحداتنا مراكز تجمع المشاغبين وقواعد هجومهم.[378]

لقد حمّل بيغن –على غرار الرواية الصهيونية التقليدية– العرب الفلسطينيين مسؤولية البدء بالحرب على اليهود. وقد ادعى أن العرب "المشاغبين" هم من بدأوا بشن الهجمات "الفتاكة" على اليهود، وأن أخلاق الصهاينة لا تسمح بالبدء بالعدوان، وإنما الاكتفاء برده. يلاحظ هنا، أنه استخدم كلمة المشاغبين لنزع صفة المقاومة وشرعيتها، عن سلوك الفلسطينيين في تصديهم للاستعمار الصهيوني.

---

[374] المصدر السابق، ص252.

[375] المصدر السابق، ص235.

[376] المصدر السابق، ص292.

[377] المصدر السابق، ص437.

[378] المصدر السابق، ص439.

فيما يتعلق بأحداث الحرب أيضًا، يحاول بيغن التملص من مسؤولية الصهيونية عن وقائع الحرب، فهو على سبيل المثال يدّعي أن الدعاية المضادة للصهيونية هي التي روّجت "للأكاذيب" حول مجزرة دير ياسين، وبأن عصابة الأرجون كانت قد حذرت سكان القرية قبل البدء بالهجوم عليها:

> هكذا كان القتال شديدًا جدًا، ومع ذلك فإن الدعاية المعادية التي بثت في أنحاء العالم تجاهلت، عن عمد، حقيقة أن سكان دير ياسين المدنيين كانوا قد أنذروا منا فعلًا قبل أن تبدأ المعركة، فقد وضعت إحدى عرباتنا تحمل مكبر صوت عند مدخل القرية وراحت تحذر، باللغة العربية، جميع النساء والأطفال والمسنين لكي يتركوا منازلهم ويلتجئوا إلى منحدر التل. وبتوجيه هذا الانذار الإنساني بدد رجالنا عنصر المفاجأة.[379]
>
> إن التعليم الذي قدمناه لجنودنا طوال سنوات التمرد كان قائمًا على أساس قوانين الحرب التقليدية. لم ننتهك هذه القوانين إطلاقًا ما لم يكن العدو هو البادئ، ومن ثم يجبرنا –وفقًا لعادة الحرب المسلم بها– أن نقابل الشر بمثله. إنني مقتنع أيضًا بأن ضباطنا ورجالنا أرادوا اجتناب أي إصابة لا مبرر لها في موقعة دير ياسين، إلا أن أولئك الذين يلقون بحجارة التشهير على غزاة دير ياسين يحسنون صنعًا لو أنهم لم يتسربلوا برداء النفاق.[380]
>
> انتشرت في جميع أنحاء دنيا العرب وفي أنحاء الدنيا كلها موجة من الدعاية الكاذبة عن "الفظاعة اليهودية" في دير ياسين.[381]

وقد حدث شيء مشابه تمامًا أثناء الحديث عن معركة يافا، التي جرت أحداثها بدءًا من يوم الخامس والعشرين من أبريل عام 1948. لقد كانت روايته عن المعركة، من بدايتها إلى نهايتها، تحمّل العرب مسؤولية كل شيء فيها، ابتداءً من أسبابها، مرورًا بأحداثها، وانتهاءً بنتائجها:

> قبل بدء هجومنا كانت تل أبيب قد تعرضت لعقاب شديد من يافا المعتدية، وبخاصة من حي المنشية. وفي غضون الأشهر القليلة الأولى من أعمال الشغب العربية قتل وجرح قرابة

---

[379] المصدر السابق، ص232.

[380] المصدر السابق، ص232.

[381] المصدر السابق، ص233.

> ألف يهودي ما بين رجل وامرأة وطفل في الهجمات التي وجهت من مسجد حسن بك والمنطقة المجاورة له في حي المنشية. استطاع القناصة العرب أن ينتقوا الضحايا في كثير من الأجزاء الهامة في تل أبيب.[382]
>
> يا رجال أرجون! إننا ذاهبون لفتح يافا. إننا خارجون إلى معركة من المعارك الحاسمة من أجل استقلال إسرائيل... إن أمامكم عدوًا غليظ القلب هب للقضاء عليكم، ومن ورائكم آباءكم وأخواتكم وأبناؤكم. اضربوا العدو بلا هوادة، أحكموا التصويب، واقتصدوا في ذخيرتكم، ولا يشهدن العدو منكم في المعركة رحمة أكثر مما يقدم لشعبنا. لا تقتلوا النساء والأطفال. إن من يرفع يديه مستسلمًا فكأنما أنقذ حياته فلا تؤذوه.[383]

حاول بيغن أن يرسم، من خلال خطابه هذا، صورة مثلى عن عصابة أرجون، فقد ذهبت إلى يافا حتى ترد "العدوان ضد تل أبيب"، وتحميها من أعمال الشغب العربية التي استمرت بحقها طيلة ستة أشهر[384] وقتلت وأصابت الكثيرين. وهو يدّعي هنا أنه وجه أوامر إلى جنوده بأن لا يقتلوا النساء والأطفال والمستسلمين وأن يتجنبوا ضرب المستشفيات ودور العبادة:

> كان لدى المدفعيين أوامر خاصة باجتناب ضرب المستشفيات [في يافا] ودور العبادة والمباني التي ترفع أعلام الدول الأجنبية.[385]

وبذلك يدّعي أن عصابته كانت تراعي الأخلاق في حربها الاستعمارية ضد الفلسطينيين لأنها قامت على الاختيار الإجباري بين "إخضاع يافا وتدمير تل أبيب"[386] لا على الرغبة في إقامة المستعمرات.

وبعد ذلك، يدّعي بيغن أن عمليات الفرار التي أسماها "وبائية"[387] من يافا حدثت فجأة وبدون سبب، وهو الأمر الذي حدث أيضًا مع قرية "أبي كبير" رغم أنها كانت محصنة تحصينًا كبيرًا:

---

[382] المصدر السابق، ص461.

[383] المصدر السابق، ص462.

[384] المصدر السابق، ص469.

[385] المصدر السابق، ص471.

[386] المصدر السابق، ص472.

> بعدئذ تكشفت ظاهرة غريبة أمام ناظرينا: الفرار الجماعي من يافا، فعلى حين فجأة بدأ العرب المدنيون وجمع مختلف من "المحاربين" يغادرون المدينة وقد استبد بهم الخوف.[388]
>
> لم يحمل الهرب الجماعي من يافا السكان المدنيين فحسب، ولكنه جرف معه المحاربين أيضًا، لا من يافا وحدها، بل ومن كل ما جاورها. في أعقاب هجومنا على يافا وقعت منطقة "أبي كبير" في أيدينا دون أن نطلق طلقة وحدة. وقد أخبرني ضابط الهاجاناة فيما بعد أن "أبا كبير" كانت محصنة تحصينًا قويًا بحيث كانت تستطيع الصمود إلى أجل غير مسمى.[389]

ورغم أنه يذكر لاحقًا أن عمليات الهروب من يافا كانت تحت هول القنابل، لكنه كان يشير بداية إلى فرارهم بدون سبب مباشر أو واضح، وهو ما يعني أنه جاء نتيجة للحرب وليس للقصف المباشر، وبذا يزيح عن كاهله مسؤوليتهم قائلًا إن هذا الفرار "الوبائي" كان بدافع الخوف، الأمر الذي حدث مع "أبو كبير" دون إطلاق طلقة واحدة.

في النهاية، يمكن القول إن بيغن كان يرى أن ما يبرر القتل، هو أن هناك أشياء في الحياة أهم من حياة الآخرين، وبذا يقدم لنفسه المبرر لقتل العرب والبريطانيين على السواء، لأن بعض الأشياء في حياة اليهودي، أهم من حياة الفلسطيني والبريطاني:

> بالطبع لا يود أحد أن يقتل. إن اعتبار الحياة والاهتمام بها هما معيار المدنية الانسانية، إلا أن سقراط كان مصيبًا عندما قال: إن الحياة ليست الشيء الأساسي دائمًا. ففي الحياة أشياء أخرى أكثر أهمية من الحياة نفسها – أكثر أهمية، على أية حال، من حياة الناس الآخرين.[390]

---

[387] المصدر السابق، ص472.

[388] المصدر السابق، ص472.

[389] المصدر السابق، ص473.

[390] المصدر السابق، ص103.

في أن الصهيونية أسقطت الاستعمار "الأجنبي"

يشير بيغن في كثير من المواقف إلى أن التحلل من الاستعمار البريطاني كان، إلى حد كبير، بسبب "الكفاح الذي خاضته قوى التمرد اليهودي ضده"، فالفضل الأول في التحلل من الاستعمار كان لهذا التمرد. إن لهذا الكلام معنى واحد، وهو أن الصهيونية التي قضت على الاستعمار لا يمكن أن تكون خليفةً له. هذه هي الرسالة التي أراد أن يوصلها بيغن لقرائه:

> فقد ارتحل نظام الحكم البريطاني عن بلدنا وانتهى حكمهم نتيجة لسلسلة ممتدة من عمليات أخرى.[391]
>
> في الخامس عشر من شهر مايو سنة 1948 استقل المندوب السامي البريطاني سفينة حربية بريطانية بعد أن أدى له التحية حرس شرف، كما أدى التحية للعلم وهو نازل من ساريته .. وانتصر التمرد.[392]

من الملاحظ هنا، أن بيغن قد اعتبر الخامس عشر من أيار عام 1948 يوم انتصار التمرد، وهو اليوم الذي يصادف إعلان قيام الدولة إسرائيل، وبذا تحول إعلان قيام الدولة الاستعمارية إلى يوم "استقلال الدولة اليهودية" والانتصار على الاستعمار البريطاني في حالة تشبه احتفال الولايات المتحدة في الرابع من يوليو/تموز كل عام بالاستقلال عن الاستعمار البريطاني في الوقت الذي يتجاهل فيه الأمريكيون أن دولتهم قامت على جثث الهنود الحمر.

> إن التمرد العبري في السنوات 1944–1948 قد كلل بالنجاح، وهو أول تمرد منذ ثورة الحشمونيين التي توجت بالنصر، هزم حكم الطغيان في بلدنا واقتلعه من جذوره. انهار هذا

---

[391] المصدر السابق، ص386.

[392] المصدر السابق، ص432.

الحكم الباغي الذي حكم في بلادنا. لقد هزم وانهار وتفرق وهبت دولة إسرائيل في معركة دامية، وبذا رسم طريق العودة الشاملة إلى صهيون.[393]

نتائج الفصل الرابع

السمة العامة التي يتسم بها بيغن فيما يتعلق بالأصلانية الصهيونية في فلسطين، هو أنه يعمد إلى تصوير الصهيونية باعتبارها حركة تحرر وطني تقوم على محاربة الاستعمار البريطاني في "أرض إسرائيل التي نفي منها الشعب اليهودي قبل ألفي عام". ومن هنا، ينطلق بيغن وفق هذا الأساس إلى تحييد الفلسطينيين بشكل كامل، نافيًا أن يكون لهم الحق في الوجود على هذه الأرض. لقد أسهم هذا الخطاب في تحويل اليهودي إلى أصلاني من خلال التنكر للعرب وتهميش دورهم، ومن خلال تقديم نفسه على أنه جاء نتيجة رغبته في التحلل من الاستعمار، فكيف تكون حركة المقاومة للاستعمار استعمارًا؟

لقد قدم اليمين الإسرائيلي نفسه بحكم المناوئ للاستعمار كي يتجرد من صفاته الاستعمارية، ويتحول إلى أصلاني يناضل ضد الاستعمار على حساب السكان الفلسطينيين. وقد حاول بيغن أن يوحي لقارئه بأن البريطانيين كانوا على تعاون وثيق مع الفلسطينيين، الأمر الذي يحولهم –ضمنيًا– إلى مستعمرين، لأن ذلك يعني بالضرورة أن "مقاومة الاستعمار البريطاني" هي في نفس الخانة مع "مقاومة الاستعمار الفلسطيني". ويأتي هذا الإيحاء على عكس الكمية الكبيرة من الأدبيات التي توثق الدعم البريطاني للمشروع الصهيوني منذ نشأته وحتى إعلان إقامة دولة إسرائيل.

---

[393] المصدر السابق، ص484.

كان بيغن يرى في عملية الاستعمار التي يقوم بها في فلسطين حركة مناضلة قومية تحررية تعج بالقوة الثورية والروحية التي يمكن لأي قوة ثورية تحررية في العالم أن تحتويها. ويزيد على ذلك قائلًا إن الثورة اليهودية في "أرض إسرائيل" لا تضاهيها قوة ثورية أخرى في العالم.

كما يرى نفسه إلى جانب حركات ثورية تحررية حول العالم، ويرى صراعه "الأخلاقي" مع البريطانيين هو صراع يشبه صراع هذه الحركات في نضالها ضد الاستعمار والظلم.

من ناحية ثانية، يظهر خطاب بيغن تناقضًا واسعًا حين يتحول –من وجهة نظره– البريطاني إلى فلسطيني حين يتحدّث عنه كمستعمر، أما اليهودي فيتحول إلى فلسطيني أصلاني، ويبقى الفلسطيني "العربي" غائبًا في كل الحالات.

الفصل الخامس: اسحق شامير

يعد اسحق شامير آخر الآباء المؤسسين لدولة إسرائيل الذين تولوا رئاسة الوزراء. ولقب شامير بزعيم عصابات الإجرام إبان الحرب العالمية الثانية بعد أن اشتهر بعملياته الوحشية ضد البريطانيين والعرب على حد سواء.[394] سيناقش هذا الفصل من البحث خطاب شامير الأصلاني كما ورد في مذكراته.

[394] كامل 2008، ص 249.

في دعوات الاضطهاد

كغيره من القادة الصهاينة، يحتل الهولوكوست حيزًا كبيرًا من فكر شامير السياسي.[395] بعبارة أخرى، كان الهولوكوست أساسيًا في دفع شامير إلى الالتحاق بركب المستعمرين في فلسطين، فهو الحجة التي عثر عليها ليقنع نفسه بضرورة استعمار فلسطين من قبل اليهود، وبالتالي تخليصهم من الاضطهاد واللاسامية إلى الأبد.

في العودة

صحيح أن شامير لم يقم بالإشارة مباشرة إلى مفهوم العودة –كما فعل بيغن– إلا أن خطابه كان مليئًا بمصطلحات "العودة إلى أرض إسرائيل" في مختلف المناسبات، بما يوحي بأن مفهوم العودة كان متجذرًا في فكر شامير وممارسته على الأرض،[396] سواء في مرحلة الاستعمار الأولى قبل قيام الدولة، أو في مراحل ما بعد إقامة الدولة والتوسع الاستعماري:

> كانت عودة اليهود إلى أرض إسرائيل مبررًا لوجودي طيلة حياتي.[397]
>
> كان أولئك المستوطنون، رجالًا ونساءً، شجعانًا مؤمنين بأن الضفة الغربية من أرض إسرائيل لم يتم احتلالها في حرب الأيام الستة، إنما تم "تحريرها" من أيدي الأعداء، لذا لا يمكن إعادتها إلى أيدي أجنبية أبدًا، وكانوا مصرين على أنه يجب أن يتعلم اليهود والعرب العيش معًا تحت السيادة الإسرائيلية.[398]

---

[395] شامير، اسحق. 1994. مذكرات اسحق شامير ترجمة دار الجليل. سلسلة شخصيات صهيونية 13. عمّان: دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية: 13؛ 16؛ 19؛ 41.

[396] كان شامير مقاتلًا وبالتالي فهو يمارس ذلك على الأرض الواقع، وبذلك يصبح ممارسًا منظرًا في الآن ذاته، وهو بالتالي يسهم في التضليل الذي تمارسه الصهيونية قولًا وفعلًا.

[397] شامير 1994، ص17.

[398] المصدر السابق، ص173.

لقد كان شامير يرى في نفسه عائدًا إلى أرض الوطن بعد مئات من سنوات النفي في الخارج، بدلًا من أن يكون مستعمِرًا جاء إلى فلسطين ليستعمِر أرضها. وهو، بذلك، يكون قد "حرّر" الأرض من الأجانب الغرباء عنها، و"أعادها" إلى اليهود "أصحاب الحق الأصلي فيها". هنا، يمكن اعتبار مفهوم "العودة" جزء من التضليل الذي اتبعته الصهيونية في سبيل إقناع اليهود كافة بمشروعها الاستعماري، لأنه يقدّم في هذه الحالة كمشروع ديني قائم على رد الحقوق لأصحابها، لا انتهاك حقوق الغير:

> وردًا على قول السادات "احتلال أراضي الغير" قال بيغن: كلا يا سيدي.. لم نحتل أية أراضٍ أجنبية، بل عدنا إلى وطننا.[399]
>
> واضح أنه ليس كل يهود الاتحاد السوفيتي يرون في إسرائيل وطنًا روحيًا لهم. لقد عزلوا لفترة طويلة عن الحياة اليهودية. إنهم لم يعرفوا التاريخ، سواء التاريخ اليهودي أو تاريخ دولة إسرائيل. غير أن إسرائيل ظلت تنتظرهم بصفتها وطنًا للشعب اليهودي.[400]

إن الأرض، بالنسبة للمشروع الصهيوني، جزء جوهري وأساسي للمشروع الاستعماري برمته، كونه يقوم أساسًا عليه، وعلى ادعاء العلاقة التاريخية معه عبر الربط بين اليهود العبرانيين الذين أقاموا فيه قبل آلاف السنوات، واليهود المستعمرين الحاليين، الذين قدموا بشكل أساسي من أوروبا. لذلك، تتحول السيطرة الاستعمارية على الأرض إلى قيمة إضافية للأرض تجردها من كونها "أرض فقط":

> لقد شرحت موقف الحكومة ونظرتها لأرض إسرائيل على أنها إحدى القيم وليست مجرد قطعة أرض.[401]

المزج بين "الأرض المستعمَرة" و"أرض الآباء"[402] يجعل من أرض فلسطين أرضًا مقدسة ترتبط ارتباطًا جوهريًا بالديانة اليهودية وتاريخها في المكان، رغم عدم وجود أدلة –كما أوضحنا سابقًا– تثبت وجود مثل

---

[399] المصدر السابق، ص123.

[400] المصدر السابق، ص223–224.

[401] المصدر السابق، ص229.

هذه العلاقة. ومع ذلك، لا يكترث شامير لكل ذلك، مصرًّا على ربط التاريخ الاستعماري بالتاريخ الديني، في محاولة لإثبات علاقة من نوع ما بعد ألفي عام تقريبًا. من الملاحظ هنا أن التاريخ الاستعماري الذي كتبته الصهيونية يرّكز دائمًا على الارتباط الروحي اليهودي بأرض فلسطين رغم "المنفى" لألفي عام، ورغم أن معظم الطوائف اليهودية لم ترَ حاجة لهذا الارتباط طوال مئتي قرن:

> في أيار 1991... تمكن سلاح الجو الإسرائيلي خلالها من نقل أكثر من 14000 يهودي إثيوبي من أديس أبابا إلى تل أبيب. كانت تلك نهاية قصة عمرها ألفا عام. نفحة أخيرة في تاريخ طائفة يهودية كانت تعيش معزولة عن باقية أجزاء الشعب اليهودي طيلة هذه الفترة، ومع ذلك لم تتنازل للحظة عن هويتها.[403]

التداخل بين التاريخ الاستعماري والتاريخ اليهودي يستمر بعد إقامة دولة إسرائيل لتتحول من خلاله الدولة الاستعمارية "إسرائيل" إلى الوصيّ على الإرث اليهودي الكامل، وتتحول الحكومة الإسرائيلية إلى المتحدّث باسم اليهود في كل أنحاء العالم وعبر التاريخ، وهو الأمر الذي يكشف سطوة الصهيونية الاستعمارية ووليدتها إسرائيل على كل ما هو يهودي:

> كنا الشعب الوحيد الذي عاش في أرض إسرائيل بدون انقطاع طيلة أربعة آلاف سنة تقريبًا. نحن الشعب الوحيد، باستثناء المملكة الصليبية، الذي كانت له سيادة مستقلة في هذا البلاد. نحن الشعب الوحيد الذي كانت القدس عاصمته دائمًا. نحن الشعب الوحيد الذي توجد الأماكن المقدسة له في أرض إسرائيل فقط. لا يوجد شعب عبر عن ارتباطه بأرضه بصورة مستمرة مثلنا. طيلة آلاف السنين ظل شعبنا يردد قسم الشاعر "إذا نسيتك يا قدس تنساني يميني". أرض إسرائيل فقط، هي وطننا الحقيقي. وكل بلد آخر مهما كانت درجة حسن الضيافة فيه يمثل بالنسبة لنا محطة في الطريق إلى الوطن.[404]

---

[402] المصدر السابق، ص174.

[403] المصدر السابق، ص230.

[404] المصدر السابق، ص252.

هذا الخطاب الذي يتحدث به شامير في مؤتمر مدريد عام 1991، يزعم التواصل اليهودي الاستعماري في المنطقة على مدار 4000 سنة، بالرغم من أن حجم التواجد اليهودي في فلسطين عبر مراحل التاريخ يختلف من زمن لآخر. في الحقيقة، إن هذا الزعم يأتي خدمة لمشروع استعماري صهيوني يربط اليهود بشكل كامل بالمكان، ثم يسطو على الإرث اليهودي ويحوّله إلى تاريخ صهيوني استعماري، بالتزامن مع التنكر لمكان المنشأ لليهودي المستعمِر واعتباره مجرد محطة، أي أن المشروع الصهيوني وفي سعيه إلى السطوة على تاريخ المكان، يحاول قطع الصلات التي تربط اليهود بأي مكان في العالم باستثناء فلسطين:

> لقد سررت بأن ذهبت إلى هناك [بلدة بروجينوي مسقط رأسه] لأرى بأم عيني أنه لم يبق في بروجينوي شيء يخصني، لأعود إلى "أرضي التي أنتمي إليها، وتنتمي إلي".[405]

في استعمارية بريطانيا

يبدو أن اسحق شامير يسير على درب زميله بيغن، خاصة في تضليل الرأي العام حول قضية الثورة الفلسطينية على المستعمِر الصهيوني باعتبارها صراعًا بين مستعمِر بريطاني، وأصلاني صهيوني، وليس أصلاني فلسطيني. ومن هنا، يتحول البريطاني المستعمِر إلى عدوٍ للصهيوني الذي يعود ليشكل نفسه على أنه أصلاني في "أرض إسرائيل".

> إن الكراهية ليست من طبعي. إنني لم أشعر ولا في يوم من الأيام بكراهية العرب، هنالك حروب لا تحتاج إلى كراهية العدو. لكنه في خريف 1939، كانت كل أفكاري تنحصر في حاجة اليهود لأرض إسرائيل، والتخلص من البريطانيين، وإنشاء سيادة يهودية في البلاد – كي لا نتأخر ويفوتنا القطار.[406]

---

[405] المصدر السابق، ص266.

[406] المصدر السابق، ص42.

لا يبدو شامير واضحًا فيما يتعلق بعملية استعماره لفلسطين، فتارة يقول إنه جاء إلى فلسطين من أجل "تخليص أرض إسرائيل من المستعمِر البريطاني"، كما يظهر من الاقتباس السابق، وتارة يقول إنه انضم إلى الحركة الصهيونية بسبب أحداث عام 1929.[407] ومع ذلك، فهو يصرّ على "حاجة اليهود للأرض" من أجل إنشاء "السيادة" العبرية عليها. إن هذه "السيادة" هي الاستعمار مموّهًا خلف مصطلحات أخرى.

بالنسبة لشامير، فإن الهدف الذي جاء شامير من أجله إلى فلسطين كان يعود إلى سعي اليهود "لإنشاء دولة خاصة بهم في "أرض وطنهم التاريخي" والحاجة الملحة لمثل هذه الدولة بالنسبة لليهود"[408]، وبالتالي، فهو لم يقم باستعمار أراضي الفلسطينيين الأصلانيين وإنما كان الهدف هو إنشاء وطن لهم في "أرضهم التاريخية". إن الزعم الكبير الذي يسوقه زعماء الصهاينة بأن أرضهم التاريخية هي فلسطين إنما يموضعهم ضمن دائرة الشعوب الأصلانية في العالم مقابل القوى الاستعمارية:

> كانت سلطات المعسكر [البريطانية] تعاملنا بدون إذلال تقريبًا، وطلباتها قليلة – كانت السجون في الأنظمة الاستعمارية الأخرى تعرف بالخشونة والهمجية رغم مظهرها الخارجي.[409]

لقد كان شامير يرى في البريطانيين مستعمرًا خالصًا، في الوقت الذي يتجنب ذكر أن دولته التي ورثت من الاستعمار البريطاني الكثير دولةً غير استعمارية، ومدعيًا أن اليهود جاءوا إلى فلسطين كحركة تحرر وطنية:

> غير أن ليحي كان لها الفضل الأول سواء في الإعلان عن البريطانيين كعدو لحركة التحرر اليهودية وكعقبة رئيسية في طريق إقامة الدولة اليهودية في أرض إسرائيل.[410]

---

[407] المصدر السابق، ص17.

[408] المصدر السابق، ص42.

[409] المصدر السابق، ص53.

[410] المصدر السابق، ص69.

وبما أن الصهيونية حركة تحرر وطني لليهود، كما يعتقد شامير، فإن أي عدو لها هو محتل خارجي ينبغي التخلص منه وإخراجه من الأرض الفلسطينية، سواء كان من البريطانيين أو من الفلسطينيين:

> بل إن هدف ليحي هو طرد البريطانيين من أرض إسرائيل.[411]

لقد اعتبر شامير، عملية الطرد التي نفذها البريطانيين بحقه عام 1946 إلى المستعمرة البريطانية أرتيريا نفيًا له من "بلاده" على يد "أجنبي"،[412] وهو بذلك، إنما يقول أن البريطانيين الذين نفوه من "أرض إسرائيل الانتدابية"[413] هم مستعمرون طردوا مواطنًا أصلانيًا من "بلاده" لأنه ناضل من أجل "التحرر اليهودي الوطني".

من ناحية ثانية، كان شامير يعتبر أن زوال الاستعمار البريطاني، وتثبيت الاستعمار الصهيوني على أرض الواقع مع منتصف أيار عام 1948 نجاحًا لحركة "النضال اليهودية" وانتصارها على المحتلّ[414] البريطاني:

> استطعنا تحقيق هدفنا في غضون فترة قصيرة نسبيًا. المحتل الأجنبي، غادر أرضنا، ودولة اليهود أقيمت... بينما نحن نتجول في طول البلاد وعرضها أحرارًا، دون أي خوف من شرطي أجنبي، ولدينا شعور بأننا أصحاب وطننا، وراضين عما حققناه.[415]

في الوقت ذاته، ينكر شامير على الفلسطينيين مطالبتهم بحق العودة، قائلًا إن هذا الحق هو "مطلب صريح للقضاء على اليهود".[416] وفق هذا الخطاب، فإن الفلسطيني الذي خرج من فلسطين قسريًا، يصبح "فلسطينيًا من الخارج"، بالمقابل، يظل اليهودي الذي يعيش خارج فلسطين "مرتبطًا روحيًا" بفلسطين حتى لو غاب عنها

---

[411] المصدر السابق، ص76.
[412] المصدر السابق، ص78.
[413] المصدر السابق، ص124.
[414] المصدر السابق، ص93.
[415] المصدر السابق، ص97.
[416] المصدر السابق، ص227.

ألفا عام، وبالتالي له الحق في أن "يعود" إليها، على عكس الفلسطيني الذي خرج منها قسريًا على يد الحركة الصهيونية.

استمرارًا لما وضّحه توم سيغيف،[417] يذكر جوزيف مسعد[418] أن الصهيونية انتهجت استراتيجيةً جديدةً بداية من الثلاثينات تقوم على وصف البريطانيين بصفات الاستعمار تمهيدًا لإعادة تأريخ الحقبة الصهيونية الجديدة على أنها حقبة ما بعد كولونيالية بالرغم من مساعدة ودعم و"رعاية" البريطانيين للمشروع الصهيوني.

في التهرب من المسؤولية

تبدو محاولات التهرب الصهيونية من مسؤولية الأحداث التي تتسبب بها عملية استعمارهم واضحة وجلية لدى معظم القادة الصهاينة، ولا يبدو أن شامير كان مختلفًا عنهم بشكل خاص. يحاول شامير دائمًا أن يحمّل مسؤولية استعماره للأصلانيين زاعمًا أن العرب كانوا وراء التوتر الذي عمّ المنطقة بداية القرن الماضي:

> لقد أصبت بذهول شديد وبصدمة عنيفة لدى سماعي بوقوع أحداث أرض إسرائيل – الهجمات العربية البشعة على الحي اليهودي المعزول في القدس القديمة، قتل وجرح الرجال والنساء والأطفال في الخليل وفي صفد، كل ذلك بناء على أوامر من مفتي القدس الذي تحمل مسؤولية أحداث 1920.[419]

[417] Segev 2000, pp33–56.

[418] مسعد 2009، 49–52.

[419] شامير 1994، ص18.

إن العرب هم البادئون دائمًا حسب ما يقول شامير، وهم أول من بدأ الهجمات على اليهود بعد بداية الاستعمار البريطاني، الأمر الذي استوجب "دفاعًا"[420] يهوديًا ضد هذه الهجمات "التي تستهدف إرهاب اليهود":

> في تلك السنوات [أوائل هجرته] كان البريطانيون يتحدثون عن "أحداث" أو "أعمال شغب" في "أرض إسرائيل"، لكن ذلك في حقيقة الأمر كان هجومًا عربيًا ضد اليهود استهدف القضاء نهائيًا على الهجرة اليهودية إلى أرض إسرائيل. استمر الهجوم 3 سنوات وأودى بحياة حوالي ألفي عربي (وكما في مناسبات أخرى قتل معظمهم على أيدي عرب آخرين) و640 يهوديًا، وأكثر من 100 بريطاني، ورافق ذلك إضراب عام عربي.[421]

يزعم شامير هنا، أن العرب كانوا مهاجمين لليهود يستهدفون القضاء على الهجرة اليهودية تهربًا من المسؤولية التي قد تترتب على الاستعمار الصهيوني لفلسطين، فحين يدّعي ذلك إنما يقول إن العرب اعتدوا على اليهود دونما مبرّر، متناسيًا أن أسباب هذه الهجمات كانت انكشاف أهداف الحركة الصهيونية الاستعمارية في أرض فلسطين. إضافة إلى ذلك، يزعم شامير أن معظم القتلى العرب كانوا يسقطون على أيدي العرب لا اليهود، فهم بذلك، يقتلون بعضهم بعضًا.

بالنسبة لشامير، فإن الهجرة اليهودية والاستعمار في أرض في فلسطين مبررٌ حين "يشن العرب الهجمات ضد اليهود"، وهي أيضًا ردٌ على هذه الهجمات:

> رغم أن الهجرة مستمرة، كانت تمثل الرد اليهودي على الإرهاب العربي فإنه لا يمكن اعتبارها الرد الوحيد. إذ بالإضافة إلى استمرار الهجرة، برزت الحاجة الملحة لتوفير سبل حماية المستوطنات اليهودية من خطر "المشاغبين" العرب."[422]

---

[420] يسمّي شامير عمليات العصابات الصهيونية الإرهابية ضد العرب وضد البريطانيين "عمليات انتقامية" انظر مثلًا، المصدر السابق، ص34، 35، 43.

[421] المصدر السابق، ص28.

[422] المصدر السابق، ص28.

وفق هذا المفهوم، يصبح الاستعمار هو الحل لمواجهة هجمات "المشاغبين العرب" وليس المسبّب لها، فتتحوّل النتائج إلى أسباب، وتتحول الأسباب إلى نتائج. ومع ذلك، فإن ظاهرة "الإرهاب العربي" ظاهرة متجذرة في الوجدان العربي منذ القدم، حسب ما يرى شامير، وليست وليدة لحظة معينة:

> في هذه النقطة، أرى أنه من الأجدر العودة للتذكير بالعلاقة المباشرة بين مظاهر "العنف والإرهاب" لعرب "أرض إسرائيل" في سنوات العشرينات والثلاثينات وبين مظاهر عنف أعوام الثمانينات ومطلع التسعينات. خلافًا لما يعتقد كثيرون، لم تبدأ هذه الظواهر مع إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية عام 1964، بل قبل ذلك بكثير. ولكن طيلة هذه السنوات لم يطرأ أي تغيير على أهداف العمليات الإرهابية نفسها.[423]

يسمّي شامير الأصلانيين الفلسطينيين "عرب أرض إسرائيل"، ويرى أنهم مرتبطون بنيويًا بمظاهر العنف والرغبة في الإرهاب، حتى قبل ظهور منظمة التحرير الفلسطينية التي يعتبرها منظمة القتلة كما سنرى لاحقًا. إن تأصيل الإرهاب في الفلسطينيين يستهدف تحميلهم المسؤولية عن كل الصدامات التي حدثت معهم، وبالتالي إعطاء المبرّر للصهيونية لقتالهم وطردهم من أرضهم والاستيلاء عليها. ورغم أن عصابته "إيتسل" كانت توصف عادة بالإرهاب، إلا أنه يعود ليلقي هذه التهمة على الفلسطينيين سعيًا منه إلى شيطنتهم، في الوقت الذي يصف عصابته بـ"المنظمة" فقط. وفي الوقت الذي تسعى فيه عصابته إلى التحرر الوطني، لم يكن "الإرهابيون العرب" يطمحون إلى مثل هذا التحرر، كما يزعم:

> وتجدر الإشارة أيضًا إلى أن "الإرهاب العربي" في تلك الأيام، لم تكن له طموحات وطنية أبدًا –كما كان لدينا– من أجل التحرر من الحكم البريطاني والحصول على السيادة. كان القتل موجهًا دائمًا ضد اليهود، وكان الدافع الوحيد وراءه، شهوة التخريب والتدمير.[424]

---

[423] المصدر السابق، ص31–32.

[424] المصدر السابق، ص32.

اليهود لهم طموحات وطنية في أرض فلسطين تتمثل في التخلص من الحكم الأجنبي البريطاني، هكذا يقول شامير، و"العرب الذين يشتهون التخريب والتدمير" لم يسعوا يومًا للحصول على السيادة على الأرض كما يفعل اليهود، رغم أن الفرصة أتيحت للعرب، الذين لم يستهدفوا إلا التضييق على اليهود، ما يستدعي الدفاع بطبيعة الحال.

إن القول بأن العرب الفلسطينيين لم يكن لهم أهداف وطنية، يعني أنه لم يكن لديهم شعور قومي، ولم يكونوا يستشعرون بالصلات التي تربطهم، أو بضرورة التحرر من الاستعمار الأجنبي، وهو ما يعني أن مصالحهم لم تكن ترتبط برحيل الاستعمار عن أرض فلسطين، أو إقامة دولة فلسطينية خاصة بهم حسب ما يرى شامير:

> [العرب في هبة 1936–1939] لم يطالبوا بالسيطرة على البلاد، وإخراج البريطانيين، تمامًا كما لم يفعلوا عندما منحوا فرصة تحقيق حقوقهم بموجب قرار التقسيم في 29 تشرين الثاني 1947، إذ لم يقيموا دولة في مناطق "يهودا والسامرة وغزة" التي كانت آنذاك لا يسكنها سوى العرب. بل كرسوا كل جهودهم وطاقاتهم لهدف لا معنى ولا فائدة منه، تمثل في التضييق علينا وجعل حياتنا صعبة لا تطاق.[425]

وبالرغم من أنه يقول إن السكان كانوا فقط من العرب في الضفة الغربية وقطاع غزة في تلك الفترة، إلا أنه يصرّ على أنهم عرب وليسوا فلسطينيون، كما لا يرى أن إقامة العرب لوحدهم فيها يستدعي تسميتها بغير اسمها الصهيوني "منطقة يهودا والسامرة" حسب ما يراه شامير، فهذه التسمية التي صبغت بألوان التوراة تتضمن اعترافًا بأنها يهودية خالصة، حتى لو كان سكانها –بالكامل– من غير اليهود.

---

[425] المصدر السابق، ص32.

من جهة أخرى، يحاول شامير تحميل العرب مسؤولية فشل قرارات التقسيم التي اقترحتها اللجان الأممية المختلفة قائلًا إن العرب رفضوا أية اقتراحات إلا إذا أصبحت "أرض إسرائيل دولة عربية":

> وهنا أعاد التاريخ نفسه؛ إذ قال الصهاينة "نعم" [لقرارات لجنة التقسيم] ودعوا إلى وضع حد سريع لإنهاء حكم الانتداب. بينما، رفض العرب أي اقتراح لحل وسط، وهددوا بشن حرب شرق أوسطية، إلا إذا أصبحت أرض إسرائيل كلها دولة عربية.[426]

العرب رفضوا التخلص من حكم المستعمِر البريطاني، فيما ظلّ اليهود ملتزمون بتحرّرهم الوطني، وهدّدوا بالحرب، هكذا يتّهم شامير العرب بأنهم أرادوا الإبقاء على حكم الأجنبي في فلسطين.

إن وجود مصطلح "أرض إسرائيل" في وجدان شامير يظهر بشكل جليّ حين يقول مستغربًا إن العرب يريدون أن تصبح "أرض إسرائيل كلها دولة عربية"! ما يعني أنه يتناسى أن "أرض إسرائيل" كلها أرض عربية أساسًا لكنها استعمرت من الحركة الصهيونية الاستعمارية وتحولت في الوجدان اليهودي الاستعماري إلى "أرض إسرائيل"، قبل أن يرفض لاحقًا أن تعود "أرض إسرائيل" إلى أرض عربية. المستعمِر يأتي ليبقى كما يقول باتريك وولف[427] لا لكي يسمح بإعادة "أرض إسرائيل" إلى أرض عربية بعد أن سلبها عروبتها.

يتابع شامير محاولاته التنصل من مسؤولية الأحداث الهامة التي وقعت في فلسطين، قائلًا إن مجازره في دير ياسين وصبرا وشاتيلا، لم تكن إلا دعايات عربية تستهدف النيل من سمعة الحركة الصهيونية. يقاتل شامير بشدة للقول بأنه لم تحدث أية مجازر على يد الصهاينة:

> لم تحدث أبدًا أعمال بربرية [في دير ياسين] أو بشعة بمعنى الكلمة... صحيح أنه كانت هناك جثث كثيرة، كما يحدث في ساحة أية معركة، لكن الساحة كنت تخلو من أية مؤشرات

---

[426] المصدر السابق، ص88.

[427] Wolfe 2006, 388.

> تدل على أن القرية تعرضت لمذبحة مدبرة سلفًا كما بدأت وسائل الإعلام تكتب آنذاك وفيما بعد.[428]

> يبدو لي أنني لن أنسى إلى الأبد الشرعة التي انتهجتها وسائل الإعلام في التنديد بإسرائيل في أعقاب المذبحة [صبرا وشاتيلا]؛ وكأننا نحن الذين ارتكبناها، وكأننا كنا نتعامل في لبنان مع لاجئين محترمين عاديين، وليس مع عصابات وقطّاع طرق مسلّحين تابعين لمنظمة التحرير الفلسطينية.[429]

إنكار حدوث المجزرة في حالة دير ياسين يوحي بالطريقة التي يجري من خلالها التهرب من مسؤولية الأحداث التي وقعت فيها. ورغم أنه في حالة صبرا وشاتيلا لا ينفي أن مجزرة حدثت هناك، إلا أنه ينكر أن إسرائيل هي من ارتكبتها قبل أن يعود ليبرّر فعلته بالقول إن ما حدث كان ضد "عصابات وقطّاع طرق مسلّحين". في الواقع، لقد لعبت إسرائيل دورًا كبيرًا في حصار مخيم صبرا وشاتيلا وتمهيد الطريق أمام المقاتلين اللبنانيين للدخول إلى المخيم وتنفيذ المذبحة به، تحت أنظار الجيش الإسرائيلي، ودون أن تسعى حتّى لمنع حدوث ذلك، وبالتالي، تتحمّل إسرائيل مسؤولية كبيرةً إزاء المذبحة على عكس ما يزعمه شامير من أن المجزرة توقفت بعد تدّخل الجيش الإسرائيلي.[430]

إن "اللاجئ المحترم" بالنسبة لشامير هو اللاجئ الذي لا يطالب بالعودة إلى وطنه، ولا يسعى للنضال من أجل ذلك. ومن يتمتّع بهذه الصفة –من منظور شامير– يحصل على امتيازات كبيرة مقابل "اللاجئ غير المحترم":

> علاوة على ذلك، ظلت إسرائيل منذ عام 1970 فصاعدًا تعمل من أجل تحسين أوضاع اللاجئين الموجودين تحت سيطرتها. بذلنا جهودًا ووضعنا برامج إعمار، نفذنا خلالها مشاريع

---

[428] شامير 1994، ص90.

[429] المصدر السابق، ص156.

[430] المصدر السابق، ص154.

> اسكانية خارج مخيمات اللاجئين لإيواء سكان المخيمات. وقد تم إيصال جميع الخدمات لهذه الأحياء.[431]

> كان هناك مئات الآلاف من الرجال والنساء والأولاد الفلسطينيين [اللاجئين] الذين كان بالإمكان تسكينهم وجعلهم يعيشون حياة كريمة لو اقتطع جزء يسير فقط من عائدات النفط العربي، لهذه الغاية. إن إسرائيل لا تستطيع حل مشكلتهم الأساسية، لكن يوجد غيرها من هو قادر على ذلك. لقد اقترحنا مرارًا وتكرارًا المساعدة في تحسين أوضاع اللاجئين بكل وسيلة متاحة، لكن اقتراحاتنا لم تجد آذانًا صاغية.[432]

إن خطورة هذه النصوص، تأتي من محاولة قلب الأسباب والنتائج، فالنتيجة تصبح سببًا، والسبب يصبح نتيجة في خطاب شامير الاستعماري. يزعم شامير، من خلال ذلك، أنه عمل على تقديم الخدمات للاجئين الفلسطينيين بدل أن يعترف بمسؤوليته عن تهجيرهم من أرضهم، واستعمارها. يتحوّل المستعمِر في هذه الحالة إلى من يحاول التخفيف من أعباء الأصلاني الذي تسبّب له بها، دون أن يعترف بأنه هو من ارتكبها أساسًا. قلب الحقائق هذا من شأنه أن يضلّل الرأي العام العالمي حول من يتسبّب بماذا، وكيف يحاول التستّر عليه.

الأمر ذاته حدث مع سكان الضفة الغربية وقطاع غزة:

> أما بالنسبة للعرب سكان الضفة الغربية وغزة فقد قلت إن الحكومة ترغب في رفع مستوى حياتهم، وأن تضمن لهم حياة محترمة وتعايشًا سلميًا مع جيرانهم اليهود.[433]

في الواقع، لقد ادّعت معظم المشاريع الاستعمارية حول العالم بأنها جاءت لتقدّم المساعدة للأصلانيين، وها هو شامير يكرّر ما فعله الاستعماريون من قبله، لكنه لم يكتفِ بذلك، بل أضاف أن الاستعمار الصهيوني جاء أيضًا ليخلّص الأصلانيين من أعمال بعضهم العدائية:

---

[431] المصدر السابق، ص199.

[432] المصدر السابق، ص199.

[433] المصدر السابق، ص188.

> إن مدبري الانتفاضة [الأولى]، وبضمنهم منظمة التحرير الفلسطينية –التي يطالبنا كثيرون بالتفاوض معها– فرضوا على اللاجئين الفلسطينيين كثيرًا من الألم والخوف والفقر. إذ أن أعمال الشغب والإرهاب شلت النشاط الاقتصادي في المناطق المحتلة. فالإضرابات العامة، كانت تعلن صباح مساء. كما أن الجيش الإسرائيلي كان يضطر لفرض منع التجول لفترات طويلة، الأمر الذي كان يمس قطعًا بمصادر العيش.[434]

إذًا، لقد جاء الاستعمار الصهيوني ليساعد الأصلانيين على تخطّي "الألم" الذي يسببه الفلسطينيون ومدبرو الانتفاضة للاجئين الفلسطينيين في المخيمات. ولذلك، فقد "اضطر" الجيش الإسرائيلي ليتخّذ بعض الإجراءات في سبيل منع هذه "الآلام"، وبالتالي تسبّب بـ"المسّ بمصادر العيش" دون أن يقصد ذلك، وبهدف أسمى هو حماية الأصلانيين من بطش بعضهم!

يعود شامير ليكرّر ما قاله حول قرية دير ياسين بأسلوب جديد، حين يتحدّث عن أحداث الانتفاضة الفلسطينية الأولى التي اندلعت نهاية العام 1987:

> كانت الانتفاضة الفلسطينية [الأولى] مستمرة، وكانت شبكات التلفزة العالمية قد أغرقت العالم بمناظر الجنود الإسرائيليين وهم يطاردون أطفال الحجارة الفلسطينيين. ولم تظهر هذه الشبكات صورًا لقتلانا وجرحانا. كما أن وسائل الإعلام العالمية تجاهلت الجوانب الأخرى للانتفاضة... تجاهلت حقيقة أن الإرهاب الذي ترعاه منظمة التحرير الفلسطينية وحركة حماس لم يكن موّجهًا ضدنا فقط، بل ضد عرب المناطق أيضًا، وأن الشباب الفلسطينيين الملثمين كانوا يرغمون الأولاد الصغار على الخروج إلى الشوارع ليعرّضوا أنفسهم للخطر، واستخدام سيارات الإسعاف والمستشفيات كملجأ للمشاغبين.[435]

لقد كان شامير يتوقّع من وسائل الإعلام أن تنشر صور القتلى والجرحى من جيش الاحتلال الإسرائيلي، وأن تتجاهل صور الضحايا الفلسطينيين الذين "اضطر" الجيش الإسرائيلي لقتلهم. ومع ذلك، فهو يشدّد على أن

---

[434] المصدر السابق، ص198.

[435] المصدر السابق، ص197.

أفعال العرب العدائية لا تستهدف الصهاينة فقط، بل تستهدف الفلسطينيين –الذين يسميهم عرب المناطق– أيضًا، بما يوحي بأن دوره جاء ليخلّص الفلسطينيين من المعتدين الفلسطينيين أنفسهم.

في الواقع، إن التهرّب من المسؤولية الذي يظهره شامير، لا يقتصر على أحداث دير ياسين والانتفاضة الفلسطينية الأولى، بل يمتدّ ليمسّ جميع المراحل الفاصلة في تاريخ الصراع بين المستعمِر الصهيوني والأصلاني الفلسطيني:

> لم تكن إسرائيل هي التي بدأت العدوان على العرب. ولم نكن نحن الذين هزمنا في الحروب التي فرضت علينا وعرضت وجودنا للخطر – وكانت لنا أيضًا شروطنا التي لا بد أن تنفذ حتى يمكن أن نتوصل معهم إلى تسوية.[436]
>
> تطبيق حق العودة، أي إعادة جميع اللاجئين الذين هربوا من المناطق التي كانت تحت سيطرة إسرائيل عام 1948.[437]

هكذا يرى شامير النقاط الفاصلة في التاريخ الفلسطيني، العرب بدأوا "العدوان" وشنوا الحرب التي خسروها، واللاجئون "هربوا".

الفكرة الأساسية في التهرّب من مسؤولية الأحداث التي تقع على يد الاستعمار الصهيوني هي الدفع بها بعيدًا عن الصهيونية، حتى لو لم يكن ذلك موجهًّا بشكل مباشر نحو العرب، أي أنه ليس بالضرورة أن يتّهم الفلسطينيين بالمسؤولية عمّا حدث، وإنما أن يبعده عن الصهيونية.

---

[436] المصدر السابق، ص268.

[437] المصدر السابق، ص271.

في ربط الماضي بالحاضر

يبدو أن ظاهرة ربط الماضي بالحاضر ضمن الخطاب الاستعماري الصهيوني كانت حاضرة لدى معظم قادة الصهيونية، في محاولة لتبرير عملية الاستعمار على أنها "عودة" إلى الماضي من خلال أدوات حالية. وهذه "العودة" تشكّل تلطيفًا لمصطلح الاستعمار الذي قد يضطر بعض الصهاينة لاستخدامه من أجل خلق بيئة أفضل لاحتضان فعل الاستعمار.

لقد حاول شامير –على غرار غيره من الزعماء الصهاينة– أن يربط بين ماضي اليهود العبرانيين في أرض فلسطين، وبين اليهود المستعمرين الذين قدموا إلى فلسطين بهدف استعمارها:

> في نفس السنة انضممت إلى حركة "بيتار"، حركة الشبيبة الصهيونية التي أقامها زئيف جابتونسكي عام 1923 وترأسها. وكنت شأني شأن بقية أعضاء الحركة قد تعلمت فورًا مغزى الاسم – من جهة، حلف يوسف ترمبلدور، ومن جهة أخرى المعقل الأخير لليهود أثناء ثورة باركوخفا ضد الحكم الروماني في عام 135.[438]

إن الهدف من هذا الربط، هو أن يتحوّل اليهودي المستعمِر إلى يهودي أصلاني في المكان، لأنه –وفق هذه الرؤية– يصبح سليل اليهود العبرانيين الذين عاشوا في فلسطين قبل مئات السنوات، وبالتالي يتحوّل اليهودي المستعمِر إلى يهودي ذي حق أصيل وقديم قدم التاريخ في فلسطين.

من ناحية ثانية، يسعى شامير، من خلال ربطه الماضي بالحاضر، إلى تقديم الاستعمار البريطاني باعتباره مثيلًا للرومانيين الذين طردوا اليهود من فلسطين وفق الرواية الصهيونية،[439] وبالتالي يحذّر من أن ممارساتهم في فلسطين ضد اليهود قد تؤدي إلى حدوث شيء مشابه لما حدث قبل مئات الأعوام.

---

[438] المصدر السابق، ص18.

[439] المصدر السابق، ص74.

إن محاولة توظيف التاريخ في السياق الصهيوني، في هذه المناسبة، من شأنها أن تقدم البريطانيين كشياطين، وأن تقدّم اليهود باعتبارهم أصلانيين في مواجهة المستعمِر البريطاني "الظالم".

في توظيف الديني

على غرار صديقه العزيز بيغن، يستمرّ شامير في استجلاب المصطلحات الدينية خدمة لأهداف استعمارية. ومن خلال توظيف الخطاب الديني التوراتي في العملية الاستعمارية، يسعى شامير إلى الحصول على شرعية توراتية للقيام بعملية الاستعمار، ولذا فهو يحاول استخدام الدين في خطابه الاستعماري بشكل مكثّف.

كان شامير، يرى بأن أرض فلسطين هي "أرض الخلاص"،[440] والخلاص هنا، هو خلاص ديني، يسعى شامير من خلال إيراده هنا أن يقدّم الاستعمار باعتباره ضروريًا لاستمرار مسيرة الدين التاريخية التي تنتهي بالخلاص الديني، وبالتالي التعجيل بالقيامة من خلال عمل بشري. ومن هنا، تتحوّل عملية الاستعمار إلى عملية ضرورية من أجل عودة المسيح، كما يتحوّل الصهيوني إلى "المخلّص" الذي يسهم في تيسير مسيرة الدين كما رسمتها التوراة أي في تسريع عملية الخلاص الديني.

كان شامير يؤمن بالتوراة، ولذا كان يرى أن "أرض إسرائيل الكاملة" لا تقف عند الحدود الاستعمارية التي وقفت عندها دولة إسرائيل، وإنما تتجاوزها لتصل من نهر النيل، حتى نهر الفرات:

> لقد وردت خلاصة نظريته [يئير مؤسس ليحي] في المنشور الذي كتبه في مطلع عام 1941 وتضمن "مبادئ النهضة" الثمانية عشرة. ومن ضمن ما جاء في تلك المبادئ ما يلي: "الوطن، هو أرض إسرائيل ضمن حدودها الواردة في التوراة (لذريتك أعطيت هذه

[440] المصدر السابق، ص48.

> الأرض من نهر مصر حتى النهر الكبير، نهر الفرات – براشيت ط"و، يً ح)، هي أرض الحياة، فيها يسكن إلى الأبد الشعب العبري كله. كما ورد في المبادئ المذكورة أيضًا:" لقد احتل إسرائيل، أرض إسرائيل بالسيف. وفيها أصبح شعبًا، وفيها فقط يعود إلى الحياة. لذا فلإسرائيل، وله فقط الحق في ملكية أرض إسرائيل. وهذا الحق مطلق. ولم ولن يذهب هذا الحق إلى الأبد. ولذا فمصير الشعب بأيدينا".[441]

إن الحق في استعمار أرض فلسطين مستمدٌ –لدى شامير– من نص التوراة المذكور، وبما أن الكتاب المقدس قد أعطى أرض فلسطين لليهود، فإن لل"شعب اليهودي" الحق في تملك هذه الأرض بشكل مطلق وإلى الأبد. من هنا، يمكن لشامير أن يجادل بقوة بأن "أرض إسرائيل التوراتية ملكٌ لليهود إلى الأبد"، وبما أن الصهيونية –بنظره– وكيل اليهود الحصري، فلها الحق أن "تعود" إلى فلسطين وتستعمرها. ولها الحق المطلق أيضًا من وجهة نظره في أن تحتلّ فلسطين بالسيف، حتى يعود "الشعب اليهودي" إلى الحياة.

كانت التسميات التي يطلقها شامير على أراضي فلسطين تسميات توراتية، حتى في المناطق التي لم يكن قد استعمرها اليهود، مثل "يهودا والسامرة".[442] لقد كان ذلك مقدمة لتبرير استعمارها من خلال الادعاء بأن ذلك هو في حقيقة الأمر "تحرير"[443] لها من الفلسطينيين.

وهنا، تدخل هضبة الجولان إلى "أرض إسرائيل"، تمامًا كما تفعل صحراء سيناء، وبهذا المعنى تتحول المناطق التي تحتلها إسرائيل إلى أراضي داخل "أرض إسرائيل" الدينية التي يتبنّاها شامير خاصة أن عملية الاستيطان، بالنسبة له، عملية مقدسة، بكلمات أخرى فإن عملية الاستعمار، بالنسبة له، عملية مقدسة:

> يجب علينا فتح مسارات جديدة للاستيطان اليهودي في جميع أجزاء أرض إسرائيل. لقد عملت الحكومات السابقة برئاسة مناحم بيغن الكثير في هذا المجال، وأرست جذور

---

[441] المصدر السابق، ص48.

[442] المصدر السابق، ص32.

[443] المصدر السابق، ص104، 115.

> الاستيطان اليهودي، وأشعلت الأضواء في نقاط جديدة وكثيرة في الجليل والسامرة ويهودا، والعربة، والجولان، لكن هذا العمل المقدس يجب أن لا يتوقف.[444]

في الواقع، إن "العمل المقدّس" الذي يتحدث عنه شامير، هو الذي يحوّل أرضًا ما –بنظر شامير– إلى أرض مقدسة، وإلى جزء من "أرض إسرائيل الكاملة"، إنه الاستيطان.

كان شامير يرى أن الرسالة التي يؤديها المشروع الصهيوني تستمد جذورها من التوراة،[445] ولذلك، فإن القيمة التي تضيفها الصهيونية على "أرض إسرائيل" هي أن تحولها من مجرد كونها "وطن تاريخي لليهود العبرانيين" إلى "أرض مقدسة بأمر إلهي":

> تجدر الإشارة هنا إلى أن انتماء المستوطنين الصهيوني كان مدموجًا بعقيدتهم الدينية. فبالنسبة لهم، لم تكن أرض إسرائيل وطنًا تاريخيًا فحسب، إنما كانت أرضه المقدسة، وأن البقاء فيها أمر إلهي.[446]

"أرض إسرائيل الكاملة"

خطاب شامير المرتبط بالاختلافات عن الحركات اليسارية قبل قيام الدولة كان يرتبط ارتباطًا كبيرًا بمفهوم "أرض إسرائيل الكاملة". لقد كان يرى بأن على اليهود أن يحصلوا على الكعكة بالكامل ومرة واحدة، حتى لو تطلب ذلك عملًا أكثر. لقد كانت الكعكة بالنسبة إليه محدودة بالحدود التي وردت في التوراة –كما ذكرنا سابقًا– من نهر النيل حتى نهر الفرات. وبذلك، كان يرى أن الحصول على "أرض إسرائيل الكاملة" مستقبلًا

---

[444] المصدر السابق، ص169.

[445] المصدر السابق، ص123.

[446] المصدر السابق، ص173.

أفضل من استيطان أجزاء منها والحصول عليها بشكل كامل في الوقت القريب، وهذا كان جوهر خلافه مع بن غوريون:

> احتدم الجدال طويلًا بين أولئك الذين آمنوا بالربح الفوري وكانوا مستعدين للاكتفاء بالقليل، وبين معارضيهم الذين اعتقدوا أنهم يحملون على كاهلهم كامل المسؤولية تجاه الأجيال القادمة، ولهذا يجب عليهم تحقيق أقصى ما يمكن من المكاسب.[447]

> في الثلاثينات والأربعينات، وقبل قيام الدولة، كانت الحركة الوطنية تتخذ موقفًا واضحًا متصلبًا غير قابل للحلول الوسط فيما يتعلق بأرض إسرائيل: لا يحق لليهود أن يتنازلوا ولا بأي ظرف كان، عن أي جزء من وطنهم التاريخي، وأن المستوطنات اليهودية أقيمت لتبقى[448].[449]

لقد كان مفهوم "أرض إسرائيل الكاملة" جوهريًا في فكر شامير السياسي وجزءًا من أفكاره الدينية المتشددة. وقد تقدّم لنا هذه الأفكار فهمًا أوسع للأسلوب الذي يستخدمه شامير أثناء الحديث عن المستوطنين في أراضي الضفة الغربية وقطاع غزة باعتبارها جزءًا أساسيًا من أرض إسرائيل الكاملة التي كانت بالنسبة له "وطنًا تاريخيًا لليهود".[450] لقد أبدى شامير رأيه في مشاريع التقسيم التي زارت فلسطين مرارًا وتكرارًا بهدف التوصل إلى تسوية بين العرب واليهود رافضًا إياها لأنها لا تعطي اليهود كامل وطنهم التاريخي في أرض فلسطين[451]. لقد كانت الدولة الاستعمارية التي يحلم بها شامير تقوم على مناطق شاسعة، وأكبر بكثير من تلك التي أعطيت لليهود في قرار التقسيم الذي صدر نهاية تشرين ثاني 1947:

> صحيح أن شعب إسرائيل حظي بالاستقلال، لكنه لم يبلغ درجة الراحة والطمأنينة، كان بأيدينا جزء فقط من أرض إسرائيل. كنا نشعر بغياب أجزاء أخرى كثيرة من أرضنا، كانت لا

---

[447] المصدر السابق، ص39.

[448] يذكرنا هذا القول بما عبر عنه وولف قائلًا إن المستعمِر يأتي ليبقى، انظر Wolfe 2006, 388.

[449] شامير 1994، ص165.

[450] المصدر السابق، ص75.

[451] المصدر السابق، ص39.

> تزال بأيدي الأجانب. تألمنا كثيرًا لوجود القدس، عاصمة إسرائيل، ومحط أحلام أجيال عديدة، خارج حدود الدولة ونصفها الشرقي مع المدينة القديمة خالية من اليهود. كنا نشاهدها عن بعد، ولا نستطيع الوصول إليها.[452]

لقد استخدم شامير هنا، مصطلح "الاستقلال" في تعبيره عن قيام الدولة الاستعمارية – إسرائيل، لكنه أصرّ أن هذا "الاستقلال" حدث على جزء من "أرض إسرائيل الكاملة".[453]

يمكن العثور على مجموعة من الاقتباسات من أقوال شامير التي يمكن اعتبارها دليلًا واضحًا على تبنيه فكرة "أرض إسرائيل الكاملة" حتى بعد إقامة دولة إسرائيل على أراضي فلسطين، إذ كانت نظرة شامير أبعد من مجرد استعمار فلسطين:

> أما الآن فقد برزت مشكلة أيديولوجية. صحيح أن شبه جزيرة سيناء التي تخلى بيغن عنها لم تكن من ضمن أرض إسرائيل لكنها لم تكن غريبة عليها. وكانت المستوطنات اليهودية التي أقيمت في سيناء بتشجيع من الحكومة الإسرائيلية، تهدف إلى تجسيد هذه الحقيقة. وبشكل عام، بعد حرب الأيام الستة، كنا متفقين على مبدأ "أرض محررة لن تعاد".[454]

كان المقصد الذي يبتغي شامير الوصول إليه هو القول أن سيناء لم تكن جزءًا من الأراضي تحت السيادة الإسرائيلية، لكنها كانت جزءًا من "أرض إسرائيل الكاملة"، فهي "ليست غريبة عنها" كما يقول. ولذلك، يمكن فهم السبب الذي يدفعه للقول إن أرض سيناء تحت الاحتلال الإسرائيلية –وبالنسبة له– "أرضًا محررة". إن إطلاق وصف "أرض محررّة" يوحي بأنها كانت تحت الاحتلال سابقًا فيما قامت دولة إسرائيل بـ"تحريرها" من العرب.

---

[452] المصدر السابق، ص97-98.

[453] المصدر السابق، ص92.

[454] المصدر السابق، ص165.

> على أية حال، كان القرار الإسرائيلي الأساسي والثابت بعدم التنازل عن أجزاء من أرض إسرائيل الغربية مقابل السلام، يمثل موقفنا جميعًا دون استثناء. فمثلًا، أنا شخصيًا، لم أتخيل أنني يمكن أن أتنازل عن جزء من أرض إسرائيل الغربية (غرب نهر الأردن) أبدًا. كنت مقتنعًا بأن إسرائيل بحاجة إلى حكومة قادرة على مواجهة محاولات الانتقاص من سيادتها على كافة أجزاء أرض إسرائيل، وأن تنفّذ المهمة الصهيونية كما نفهمها بدقة.[455]

في فكر شامير، لا يمكن التنازل عن "أراض محرّرة" –من ضمن الأراضي التوراتية– ولذا، لم يقل هنا أرض إسرائيل، بل قال أرض إسرائيل الغربية لأنه كان مقتنعًا أن أرض فلسطين هي جزء من أرضه الكاملة التي وعدته به التوراة. لقد اعتبر أن دولة إسرائيل التي تقوم على أراضي الفلسطينيين هي الجزء الغربي من "الأرض الموعودة" التي نجحت الصهيونية بتنفيذها، لكنها "ليست المهمة الكاملة لها."

من خلال قراءة مذكرات شامير، يظهر تراجع بسيط عن مفهوم "أرض إسرائيل الكاملة"، قائلًا إنه يكتفي بالمنطقة بين نهر الأردن والبحر المتوّسط. إن القراءة الأولى لهذا التراجع يمكن أن تظهر أن شامير غيّر من أفكاره واكتفى بحدوده الاستعمارية التي وقف عندها، لكنّ قراءة متعمّقة لهذا البيان توّضح أن تراجعه هذا كان تراجعًا سياسيًا وليس فكريًا، ويجري ضمن سياق الحديث مع وزير الخارجية الأمريكية في حينه جيمس بيكر الذي قال إن الوقت قد حان لتخلي إسرائيل نهائيًا عن حلمها "غير الواقعي"، بإسرائيل الكبرى. لقد كان رد شامير عليه كالآتي:

> لم يسبق أن تحدّث أي منا عن امبراطورية مترامية الأطراف اسمها "إسرائيل الكبرى". دائمًا كنا نضع نصب أعيننا "أرض إسرائيل" الواقعة بين البحر المتوسّط والأردن، والتي لا نستطيع التخلي عن أي جزء منها. لقد أوضحت عدة مرات لبيكر بأنني عندما أتحدث عن المناطق، أقصد بذلك الأراضي التي نعتقد ونؤمن بأنها عائدة لنا.[456]

---

[455] المصدر السابق، ص166.

[456] المصدر السابق، ص217.

كان الحديث يدور ضمن مفاوضات سياسية مع القيادة الأمريكية، وليس عن تراجعًا ملموسًا في فكر شامير الذي ما انكفأ عن التعبير عن آرائه حول الأراضي التي "يعتقد ويؤمن أنه عائدة له" سواء قبل هذا اللقاء أو بعده.

لقد انتهى شامير من كتابة مذكراته في الوقت الذي أعلنت فيه حكومة إسرائيل عن توقيع اتفاقية أوسلو مع منظمة التحرير الفلسطينية. وقد دفعه هذا الإعلان إلى إضافة فصل جديد تحدّث فيه عن "الكارثة" التي حلّت بدولة إسرائيل بتوقيع هذه الاتفاقية موضّحًا أنها تنازل كبير عن أجزاء من أرض إسرائيل:

> لأول مرة في تاريخ دولة إسرائيل توافق حكومتها على التنازل عن أجزاء من "أرض إسرائيل" وتساعد على فتح الطريق أمام قيام حتمي لدولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة، رغم تأكيدات رئيس الحكومة [رابين] ووزير خارجيته [بيرس] بأن هذا الأمر لن يتحقق. لكنني أقول بأننا سلكنا طريقًا باتجاه واحد ولا أدري كيف يمكننا إرجاع الأمور إلى ما كانت عليه.[457]

لقد كان الانسحاب من أية أراضي يجري احتلالها إسرائيليًا جرمًا بالنسبة لشامير، لأنه يخالف تعاليم الله كما وردت في التوراة، وقد كانت هذه النقطة –الانسحاب– موضع الاختلاف مع أحزاب اليسار بشكل عام:

> إن التنازلات التي قدمتها إسرائيل مباشرة إلى مصر، في إطار معاهدة السلام، وفي طليعتها إعادة 90% من المناطق التي كانت تحتفظ بها منذ حرب 1967، لم تكن كافية. وإذا كانت إسرائيل ترغب في السلام حقًا، فإن عليها أن تتجاهل نهائيًا الادّعاء اليهودي على مر الزمان بحقها في أرض إسرائيل أو حتى التنكّر نهائيًا لهذا الادّعاء.[458]

---

[457] المصدر السابق، ص270.

[458] المصدر السابق، ص125.

> تنازلنا عن مستوطنات يهودية [من سيناء عام 1982]، وعدنا إلى حدود عام 1967 مع مصر. وأدّى انتهاء فصل الآمال الإسرائيلية في سيناء إلى بعث الأسى والحزن في نفسي، كما أثار لدي مخاوف كثيرة.[459]

في "إسرائيلية" اليهود

تظهر الاستمرارية التي يجري من خلالها تطور الخطاب الاستعماري الصهيوني الأصلاني لدى مختلف القادة الصهاينة عبر متابعة التشابهات في مضامين هذا الخطاب. إحدى ركائز هذا الخطاب هو تحوّل الصهيوني الذي قدم إلى فلسطين لاستعمارها إلى "يهودي من أرض إسرائيل". شامير، باعتباره أحد القادة الصهاينة، كان يتماهى مع هذا الخطاب[460] مدّعيًا أن "اليهودي في أرض إسرائيل هو يهودي في بيته":

> لقد شعرت منذ اللحظة الأولى [لهجرتي إلى فلسطين] بأنني هنا في بيتي، فورًا بعد أن رست السفينة "بولونيا" في ميناء يافا. كان على ظهر السفينة شباب كثيرون –بعضهم طلبة جامعيون مثلي– وآخرون كانوا أزواجًا "وهميين": يهود من أرض إسرائيل تزوجوا بفتيات يهوديات من بولندا، لفترة قصيرة، لتمكينهن من الحصول على إذن دخول إلى "أرض إسرائيل".[461]

> من بين 15000 جندي يهودي من أرض إسرائيل كانوا مرابطين في مصر في ذلك الوقت، كان ما لا يزيد عن 12 جنديًا فقط (بينهم ثلاث مجندات) ينتمون لحركة ليحي ...[462]

أما الفلسطينيين، فهم بنظر شامير، عرب "أرض إسرائيل".[463] إن تسمية الفلسطينيين بغير اسمهم ينضوي تحت فكرة عدم إطلاق عليهم اسمهم الحقيقي تهرّبًا من الاعتراف بفلسطينيتهم. إن الهجوم على أصلانية

---

[459] المصدر السابق، ص152.

[460] انظر مثلًا: المصدر السابق، ص21، 75.

[461] المصدر السابق، ص27.

[462] المصدر السابق، ص71.

[463] انظر مثلًا: المصدر السابق، ص41، 187.

الأصلاني وتسميته بالاسم الاستعماري "عرب أرض إسرائيل" هو ادّعاء بالأصلانية من المستعمِر الصهيوني.

"العرب إرهابيون"

لقد عمد شامير إلى تقديم السكان الأصليين في فلسطين باعتبارهم وحوشًا ومجرمين، محبّين للقتل، وهو لا يقتصر في هذه الأوصاف على الفلسطينيين فقط، إنما على العرب[464] بشكل عام، إذ لا يميّز شامير بين الفلسطيني والعربي ويعتبرهما شيئًا واحدًا. إن تجريم الأصلانيين وجعلهم وحوشًا فاشيين يأتي خدمة لأهداف استعمارية تتمثّل في تقديمهم كشياطين فيما يجري تقديم المستعمِر باعتباره أخلاقي، وفي تقديم أفعاله كردود فعل.

يستخدم شامير مجموعة من المصطلحات في حديثه عن الفلسطينيين، فهو يستخدم أحيانًا مصطلح "المخرّبين"[465] أو "الإرهابيين الذين يقومون بالأعمال العدائية"،[466] كما يزعم في أحيان أخرى أنهم "عصابات غير نظامية من العرب المحليين"[467] أو أنهم "يتمتعون بتأييد إيطاليا الفاشية، وألمانيا النازية".[468]

لقد كانت الأفكار التي يطرحها شامير عن العرب تتعمّد وصفهم بأوصاف ذات طابع مختلف، فهو يقدمهم – مثلًا– على أنهم خارج فئة "سكان العالم المتحضّر"،[469] تمهيدًا لموضعة نفسه هذه الفئة.

---

[464] كان شامير يرى أن العرب لا يقدّرون أهمية السلام، وقد قال عنهم ذلك أثناء الحديث عن مؤتمر مدريد للسلام قائلًا إنهم اكتفوا بإرسال وزراء خارجيتهم لأنهم لا يدركون أهمية السلام نفسه، انظر المصدر السابق، ص250.

[465] المصدر السابق، ص261.

[466] المصدر السابق، ص33.

[467] المصدر السابق، ص90.

[468] المصدر السابق، ص38.

لقد شاع في حالات استعمارية كثيرة سابقة، أن يقوم المستعمِر بتحويل الأصلاني إلى شيطان تمهيدًا لاقتلاعه من أرضه، وتقديم المبرر لذلك.

من هذا المنطلق، يحاول شامير أن يموضع نفسه إلى جانب الدول التي تحارب الإرهاب،[470] وبذلك، يموضع الفلسطيني في مكان الإرهابي الذي يهدد مصالح دولة إسرائيل رغبة في "زرع الخوف وزيادة عدد الثكالى فيها"،[471] تمامًا كما يهدّد الإرهاب الدول في جميع أنحاء العالم. إن استخدام مصطلح الإرهاب بحد ذاته، هو تساوق مع المصطلح الغربي الذي عادة ما تستخدمه الدول الغربية في حديثها عن المتطرفين الإسلاميين، ما يسمح بوضع المقاومة الأصلانية الفلسطينية مكان الذي يرغب بترهيب الآخرين دونما سبب إلا للتخريب، وبالتالي الحاجة الملحّة للرد:

> كان التصعيد في الإرهاب العربي وزيادة التوتر بين المستوطنين والسكان العرب في الضفة الغربية قد أدى ببعض أعضاء غوش إيمونيم إلى استنتاج متسرع. إذ شعروا أن الجيش الإسرائيلي لا يوفر الحماية اللازمة لهم، وأنهم أرادوا أن يبرهنوا للعرب بأن دم اليهود في هذه الأرض ليس مباحًا، لذا قرروا الانتقام.[472]

في إرهاب منظمة التحرير

لقد شاع لدى شامير التوجّه إلى شيطنة الأصلاني، وقد ظهر ذلك بشكل واضح حين كان يتحدث –بأي شكل من الأشكال وفي أي مناسبة– عن منظمة التحرير الفلسطينية أو قيادتها. يؤمن شامير، كما يظهر من

---

[469] المصدر السابق، ص241.

[470] المصدر السابق، ص138.

[471] المصدر السابق، ص172–173.

[472] المصدر السابق، ص173–174.

كتاباته، بأن الأصلاني لا يمكن أن يكون شريكًا في السلام لأن الهدف الأساسي له –كما يرى– هو الرغبة في إبادة إسرائيل.[473]

وبذلك تتحول منظمة التحرير الفلسطينية إلى "منظمة إرهابية"[474]، ومنظمة "قتلة"[475] ترغب –فقط– في قتل اليهود. وزعم شامير أن المنظمة "أقامت دولة داخل لبنان"، و"احتلت مناطق واسعة" فيها، و"تعرّضوا للسكان المحليين فيها"، ما تسبّب "بالحرب الأهلية في لبنان"[476]. وبذلك، يبرّر الحرب الإسرائيلية على لبنان عام 1982، واجتياحها، قائلًا إن هذه الحرب كانت حربًا ضد "دولة إرهابية داخل دولة"[477] وتهدف إلى "التخلص من المخربين".[478] وبذلك، ألحق شامير وصف "الإرهاب" لمنظمة التحرير حتى حين تحدّث عن "الدولة التي يزعم أن المنظمة أقامتها داخل لبنان، كما يلاحظ هنا، أنه اقتصر في وصفه على الإرهاب على المنظمة دون أن يذكر لبنان بأي شيء.

بهجومه على القيادة الفلسطينية يستهدف شامير التعرّض لكل الفلسطينيين، لكنه مع ذلك، يحاول الفصل بين الشعب الفلسطيني والقيادة السياسية له، قائلًا "إننا نرحب بكل عربي فلسطيني يسكن في المناطق المحتلة وليست له علاقة بالأعمال الإرهابية"[479]. التعامل مع الفلسطيني هنا يقتصر على من ليس له علاقة بـ"الأعمال الإرهابية"، أما أي شخص ينخرط ضمن المقاومة الفلسطينية فإنه يصبح خارج هذه الدائرة، ومتصلًا بالعمليات الإرهابية، كما يقول شامير.

---

[473] المصدر السابق، ص227.
[474] المصدر السابق، ص143.
[475] المصدر السابق، ص213، 267.
[476] المصدر السابق، ص153.
[477] المصدر السابق، ص142.
[478] المصدر السابق، ص156.
[479] المصدر السابق، ص227.

وشامير، إذ يهاجم القيادة الفلسطينية، يتعمّد التهجّم على شخص الرئيس الراحل ياسر عرفات بشكل خاص، باعتبار أنه على رأس هذه "الحركات الإرهابية"، فتارة يصفه بأنه "لا يسود على شيء"[480] وتارة بأنه مفلس، ومكانته في تدهور في العالم العربي.[481]

"الصهيونية حركة تحرر"

يقدّم اسحق شامير العصابات الصهيونية على أنها مجموعة من الحركات "الوطنية التي تناضل" من أجل مبادئ عظيمة تتمثل في تحرير البلاد من أيدي الأجانب. إن هذه النظرة –على غرار بيغن– هي بالمحصلة أصلنة للمستعمِر الصهيوني الذي يرى في نفسه أصلانيًا في مواجهة المستعمِر الأجنبي:

> عندما أنشأنا حزب المقاتلين في مطلع عام 1949، أعلنا عنه في المؤتمر القطري الأول بصفته "حركة تحرير وطنية تقاتل من أجل الحرية الكاملة للشعب اليهودي في وطنه الكامل"، وضعنا في مقدمة أهدافه هدف "تحرير أرض إسرائيل كلها من أيدي أي نظام حكم أجنبي.[482]

لم يقل البيان أن المقصود هو الحكم البريطاني على وجه الخصوص، لكنه كان يقصد أي نظام حكم غير يهودي، لأنه، وفق نظريته، يرى أن أي حكم غير يهودي هو حكم أجنبي. وبالنظر إلى تاريخ البيان، يمكن الاستنتاج بأن المقصود كان أي حكم عربي يمكن أن ينشأ في أي مكان ضمن ما يسمى "أرض إسرائيل

---

[480] المصدر السابق، ص269

[481] المصدر السابق، ص269.

[482] المصدر السابق، ص39.

التوراتية"، وبالتالي، فإن مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة، اللتين لم تكونا، حينئذ، تحت "السيادة اليهودية" هما منطقتان مستهدفتان من قبل الحركة الصهيونية.

لم يكن الأمر يقتصر على مرحلة ما بعد الاستيلاء على معظم أراضي فلسطين، وإقامة الدولة الإسرائيلية عليها، إذ كان شامير يرى منذ بداياته الاستعمارية في أرض فلسطين أن حركته هي حركة "تناضل" من أجل "الحرية الوطنية لليهود". لقد كان التصوّر الصهيوني يرى في نفسه حركة ثورية عبرية[483] موحدة[484] ضد حكم الانتداب، وحركة "تناضل من أجل الحرية الوطنية".[485]

لقد كان شامير يرى في العصابات الصهيونية حركات تحررية تقف في نفس المكان الذي تقف فيه حركات تحررية أخرى حول العالم، في محاولة لحجب الضوء عن طبيعتها الاستعمارية:

> حاولت استطلاع ما حدث أو يحدث في حركات تحررية **أخرى** في العالم[486]
>
> لم يستطع [أسير فيتنامي معهم في جيبوتي] أن يفهم ترددنا أو خوفنا من سفك الدماء. لم تكن حركة ليحي قاسية في نظره، كما يجب أن تكون عليه حركة ثورية.[487]

في الوقت الذي يدّعي فيه شامير أن الحركة الصهيونية هي حركة تحررية مثلها مثل حركات التحرر حول العالم، ينكر على حركة المقاومة الفلسطينية ذلك، ويضعها في مصافّ المنظمات الإرهابية.[488]

---

[483] المصدر السابق، ص74، 77.

[484] المصدر السابق، ص76.

[485] المصدر السابق، ص58.

[486] المصدر السابق، ص59.

[487] المصدر السابق، ص87.

[488] المصدر السابق، ص262.

نتائج الفصل الخامس

يسير اسحق شامير على درب بيغن قائلًا إن المعركة الأساسية كانت بين المستعمِر البريطاني، والأصلاني الصهيوني، متنكرًا للفلسطينيين ولوجودهم. في المقابل، يقدم اليمين الصهيوني نفسه باعتباره حركة تحرر قومي ووطني لليهود، في مواجهة الاستعمار البريطاني لفلسطين.

من ناحية ثانية، أصر شامير على إقحام المفاهيم الدينية ضمن خطابه الاستعماري رغبة منه في إسقاط بعد ديني على حركة الاستعمار الصهيوني لفلسطين، وتوظيفه في خدمة العملية الاستعمارية، إذ يعتقد شامير أن اعتماد حركته الاستعمارية على الدين يخفي عنها صفاتها الاستعمارية، ويحلّلها من المسؤوليات المترتبة على عملية الاستعمار.

وبالنسبة له، فإنه يحق لليهودي أن "يعود" إلى أرض فلسطين بعد ألفي عام من النفي، فيما لا يحق للفلسطيني الذي هجّر قسريًا على يد الحركة الصهيونية أن يعود إليها بتاتًا.

الفصل السادس: بنيامين نتانياهو

يعد بنيامين نتنياهو أحد أكثر زعماء الصهيونية عداءً وكرهًا للعرب،[489] ويعرف عنه تعصبه الشديد ضد العرب عامة والفلسطينيين خاصة،[490] مستمدًا أفكاره من الخط الأيديولوجي العنصري المتطرف الموروث عن جابوتنسكي.[491] والعلاقة التي تربط بنيامين نتنياهو بفلاديمير جابوتنسكي علاقة وثيقة، فقد سار نتنياهو على خطى والده بنتيسون نتيناهو الذي كان رفيقًا ومقربًا من جابوتنسكي.[492]

سيناقش هذا الفصل خطاب نتنياهو الأصلاني كما ورد في كتابه "مكان تحت الشمس".

---

[489] كامل 2008، ص 381.

[490] المصدر السابق، ص384.

[491] المصدر السابق، ص389.

[492] كامل 2008، ص 71.

في استقلالية الشعب اليهودي، وعروبة الفلسطينيين

إن أهم ما يميز خطاب نتنياهو الأصلاني هو إصراره الدائم على أن اليهودية تمثّل قومية مستقلة، وشعبًا فريدًا[493] يتميز عن باقي الأمم، ولذا فهو يستحق أن تكون له دولة خاصة به تعيش إلى جانب الأمم الأخرى، على عكس الفلسطينيين الذين لا يشكلون قومية فريدة، وبالتالي فهم لا يستحقون دولة لهم.

لقد ركّز خطاب نتنياهو في كثير من المواضع على فرادة التجربة اليهودية، باعتبار أن اليهود ظلوا طيلة ألفي عام "رعايا" داخل الدول التي عاشوا فيها، رغم أنه لم تكن لهم أي دولة تمثّلهم،[494] وبالتالي نجح اليهود في مقاومة الانصهار في الأمم الأخرى وتكوين الشخصية اليهودية الفريدة الخاصة بهم. لقد حاول نتنياهو أن يوضّح، أن اليهودي بالنسبة لفلسطين هو مثل أي مواطن في العالم بالنسبة لدولته، تمامًا كما هي إيرلندا بالنسبة للإيرلنديين، وإيطاليا للإيطاليين، والصين للصينيين، الذين يعيشوا في أمريكا،[495] فحتى لو عاش اليهودي خارجها ألفي عام، تظل له، كما يقول.

من الملاحظ، أن نتنياهو يرى أن "الشعب الإسرائيلي" كان موجودًا طيلة 3500 سنة،[496] رغم أن العمر الفعلي لدولة إسرائيل حوالي 70 سنة فقط.

لذا كان يرى أن هدف الصهيونية هو أن "ينهض الشعب اليهودي"[497] مستعيدًا "قوميته" في "وطنه اليهودي" الذي يضمن حلًّا شاملًا للأزمة اليهودية، ليس على المستوى الجماعي فحسب، بل على مستوى الأفراد

---

[493] نتنياهو، بنيامين. 1995. مكان تحت الشمس ترجمة محمد عودة الدويري، مراجعة وتصويب كلثوم السعدي. شخصيات صهيونية 14. عمّان: دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية. 49

[494] المصدر السابق، ص50.

[495] المصدر السابق، ص51.

[496] المصدر السابق، ص215.

أيضًا.[498] في الواقع، يسير نتنياهو على درب من سبقوه من القادة الصهاينة، قائلًا، بما معناه، إن الاستعمار الصهيوني في فلسطين جاء لحل المسألة اليهودية في العالم. وبأنه لن يكون بمقدار اليهود التمتّع بالمساواة مع أبناء الأمم الأخرى، إلا إذا عاشوا في دولة خاصة بهم.[499]

يحاول نتنياهو أن يرسم طريقًا ممهدًّا لهذه الأفكار، مدّعيًا أن الشعب اليهودي يتميّز عن "الفلسطينيين" وليس الشعب الفلسطيني، بأنه شعب منفرد متميّز من خلال توضيح العلاقة بين الدين اليهودي والشعب اليهودي:

> يعتقد أبناء العالم الغربي، بشكل عام، أن اليهودية، شأنها شأن المسيحية، مجرد دين، لذا فهي لا تشمل وعيًا قوميًا. لكن اليهودية، منذ بدايتها، كانت دينًا وقومية معًا... وفي أرض الشتات، زادت أهمية هذه الازدواجية في اليهودية. فبعد أن فقد اليهود أرضهم، وحكومتهم، ولغتهم، ووزعوا في أنحاء العالم، أصبح الدين الأداة الرئيسة للمحافظة على هويتهم وطموحاتهم القومية. وداخل هذه الأداة، سكب اليهود أحلام العودة إلى صهيون، وتجميع الشتات في أرض إسرائيل.[500]

إن هذا الربط بين الدين اليهودي، وما يسميه نتنياهو "القومية اليهودية" ما هو إلا محاولة استعمارية لتبرير عملية الاستعمار وفق أسس دينية، عبر محاولة خلق رابطة استعمارية بين ديانة وبين تكون وعي قومي حديث للمستعمرين يمكنهم من الاستعمار بأمر من الله، وأن ينشئوا الرابطة الاستعمارية "القومية" مقترنة بالدين:

> إن هذه العلاقة بين الشعب والأرض، تميز اليهودية عن بقية الأديان الأخرى. فالفاتيكان، على سبيل المثال، لا يصلون من أجل أن يكونوا السنة القادمة في الفاتيكان... ولكن عندما ظل اليهود في مختلف البلدان يصلون طيلة مئات السنين من أجل "السنة القادمة في

---

[497] المصدر السابق، ص57.

[498] المصدر السابق، ص51.

[499] المصدر السابق، ص51.

[500] المصدر السابق، ص66.

> القدس"، كانوا يقصدون شيئًا آخر مختلفًا في غايته: لم يكن ذلك هو أمل الفرد في العودة إلى المدينة المقدسة للصلاة فيها، إنما رغبة شعب كامل في العودة لبناء حياته القومية على أرضه، التي تعتبر القدس قلبها.[501]

إن هذا التميز الذي يحصره نتنياهو باليهود فقط، يقوم على ارتباط بالأرض، مع مسيرة تاريخية طويلة ومشتركة، بما يمكن اعتبارها الشروط التي يراها ضرورية لتحقيق الاستقلال القومي، والذي لا يراه متوفرًا في الفلسطينيين:

> أن تكون أمة جديدة، هي عملية معقدة دائمًا. فتطوّر هوية قومية مستقلة يأتي دائمًا كنتيجة لمسيرة تاريخية طويلة، تبرز في نهايتها، علامات مشتركة، في الكيان الجديد مثل: اللغة، الثقافة، الدين، التاريخ، تكون خاصة بهذا الكيان، لتمييزه عن باقي الكيانات الأخرى؟[502]

من وجهة نظر نتنياهو، فإن الفلسطينيين هم فرع صغير[503] يشكل حوالي أربعة أجزاء من عشرة آلاف جزء (0.0004) من العالم العربي،[504] أو 5% من ملايين العرب،[505] وبالتالي لم يسبق لهم "ولو تلميحًا"[506]، ولا يحق لهم،[507] أن يطالبوا أو أن يعبروا عن رغبتهم في تقرير مصيرهم، لأنهم لا يحققون هذه الشروط:

> في إطار محاولاتهم لترسيخ مطالبهم التاريخية "بأرض إسرائيل"، لم يشوه العرب الظروف الديمغرافية والطبيعية لهذه الأرض في القرن التاسع عشر فحسب، إنما حاولوا إقناع العالم، بأن عرب أرض إسرائيل، بلوروا خلال مئات السنين الأخيرة هوية قومية خاصة بهم، متفردة ومختلفة... لذا فهم يدعون أن اليهود الذين غزوا البلاد، استولوا على بلاد مستقلة هي فلسطين، كان يعيش فيها شعب منفصل وخاص – الفلسطينيون.[508]

---

[501] المصدر السابق، ص67.
[502] المصدر السابق، ص178.
[503] المصدر السابق، ص75.
[504] المصدر السابق، ص386.
[505] المصدر السابق، ص78.
[506] المصدر السابق، ص76-77
[507] المصدر السابق، ص380.
[508] المصدر السابق، ص75-76.

ومن خلال ذلك، يسعى نتنياهو، إلى القول بأن "الشعب اليهودي" هو الشعب الوحيد الذي له حقوق مرتبطة بالأرض الفلسطينية، وبالتالي ليس للأصلاني الفلسطيني أية حقوق. وبالتركيز على أن الفلسطينيين هم عرب، يرفض نتنياهو أن يكون للفلسطينيين هوية وطنية مستقلة، وبدلًا من ذلك، يقول إنهم كانوا عربًا بالأساس، في محاولة لخلق التمييز الثنائي عربي ضد يهودي، وبالتالي يصوّر أحد الأطراف على أنه صغير مقابل أمة عربية عملاقة تهدد وجود المستعمِر.[509]

يحاول نتنياهو أن يحوّل الصراع إلى صراع إثني بين أقلية "عربية" وأكثرية يهودية داخل دولة إسرائيل:

> كل الأمم توجد لديها أقليات خاصة. لكن المأساة الحقيقية هي أن تكون أقلية في كل مكان، مثلما وضع اليهود قبل إقامة الدولة اليهودية. لكن العداء العربي يستخدم منطقًا معكوسًا: ففي نظر العرب، الكارثة هي وجود أقلية عربية في أي مكان في الشرق الأوسط. يصعب عليهم مجرد التفكير بوجود عرب يعيشون كأقلية في دولة إسرائيل، مثلما تعيش شعوب أخرى كأقليات بين العرب – رغم أن عرب إسرائيل يتمتعون بحقوق مدنية كاملة وبمساواة أمام القانون.[510]

إن استحضار مفاهيم سياسية كالأقليات في تعبيراته حول الصراع بين المستعمِر الصهيوني، والأصلاني الفلسطيني، إنما تهدف إلى تحويله إلى صراع سياسي بين أقلية وأكثرية، مثل أي دولة طبيعية، تلعب فيها الجماعات الإثنية أدوارًا سياسية في المنافسة على الحكم. ومن شأن هذا أن يسهم في تجريد الأصلاني من حقوقه التي سلبها المستعمِر منه لأنه يقدمها على أنها خلافات سياسية بين جماعتين داخل الدولة، أي أنه يرغب في تحويل الصراع إلى صراع إثني.

---

[509] Jong 2017, p10.

[510] المصدر السابق، ص185.

إن نقل الصراع من صراع على وجود الدولة الاستعمارية نفسه، إلى صراع داخل الدولة الاستعمارية، يتضمن الإشارة إلى أن وجود الدولة الاستعمارية بحد ذاته ليس محل الخلاف، لأنه وجود طبيعي لدولة طبيعية. ولذلك، بالنسبة له، فإن الخلاف هو على وجود القومية الفلسطينية، أو دولة تمثلها، أم لا، وليس وجود الدولة الاستعمارية.

إن إحدى السمات التي تميّز خطاب نتنياهو الأصلاني هي هجومه الدائم على القومية الفلسطينية، وإنكاره حقيقة أن الفلسطينيين يشكلون قومية خاصة بهم، زاعمًا أن الفلسطينيين اختلقوا قومية خاصة بهم لمواجهة اليهود:

> العرب أوجدوا هوية فلسطينية جديدة، وخلقوا، بالأكاذيب، شعبًا جديدًا مختلفًا هو "الفلسطينيون في الضفة الغربية وقطاع غزة". ليس المقصود هنا أقلية تنتمي لشعب كبير حقق استقلاله في إطار 21 دولة، بما فيها شرق الأردن، بل شعب جديد تمامًا، يطالب بنيل حقوقه القومية.[511]

يدّعي نتنياهو أن الفلسطينيين لم يكن لهم مطالب قومية يومًا عبر التاريخ،[512] لكنهم في وقت من الأوقات، خاصة بعد حرب العام 1967 ابتكروا هوية قومية لهم "من العدم" دعمها العرب بشكل كبير.[513] وبالنسبة له فإن إعطاء حق تقرير المصير "لهذه الأقلية" يتضمن خطرًا كبيرًا يهدد الاستقرار العالمي لأنه يفتح المجال أمام مطالبات كثيرة من أقليات العالم بالاستقلال.[514] وبهذا يقدّم نتنياهو الفلسطينيين على أنهم مجرد أقلية يمكن أن يسهم إعطاؤها بعض الحقوق في تهديد الاستقرار العالمي، وليس المحلي فقط.

---

[511] المصدر السابق، ص186.

[512] المصدر السابق، ص79.

[513] المصدر السابق، ص177.

[514] المصدر السابق، ص184.

وبناء عليه، يدّعي نتنياهو أن مطالب العرب جاءت "تقليدًا" لليهود بالاستقلال القومي، وبالتالي لم يكن للفلسطينيين من الأساس هذه المطالب إلا باعتبارها جاءت محاكاة لما أسماه "حلم اليهود" الذي يشكّل الأساس:

> إن هدف "حق العودة"، على أية حال، تقليد حلم اليهود، وأن يكون وزنًا مضادًا لهذا الحلم وإلغائه من خلال تجانس كاذب: اليهود، عادوا إلى أرضهم – والآن يجب أن يعود العرب الفلسطينيون إليها أيضًا.[515]

كما يشدّد نتنياهو على أن "أرض إسرائيل" هي المكان الوحيد، الذي يصلح مكانًا لتحقيق "الحلم اليهودي" بالاستقلال القومي، تمهيدًا للقبول بطرد الفلسطيني الأصلاني من أرضه، بحجة وجوده على الأرض التاريخية "للشعب اليهودي"، دون أن يشكّل قومية خاصة:

> فإسرائيل هي المكان الوحيد على وجه البسيطة، الذي يستطيع اليهود أن يعيشوا فيه كقومية مستقلة، وليس كأقلية تعيش تحت رحمة أغلبية. كان هذا المبدأ، في نظر الجماهير اليهودية في العالم، قوة إيجابية، وجذابة، أكثر من الحاجة إلى الفرار من اللاسامية أو لتحسين مستوى الحياة.[516]
>
> الشعب اليهودي هو من أقدم الشعوب في العالم. ويمتاز عن بقية الشعوب بقوة ذاكرته. والصهيونية، هي عبارة عن تجربة معروضة لنسج مستقبل جديد، لشعب عريق، بخيوط الإرادة القومية التي غزلت في فجر التاريخ اليهودي ولا تزال مستمرة حتى يومنا هذا.[517]

بهذا المعنى، يصبح وجود دولة إسرائيل منطقيًا، وعادلًا، أكثر من المطالب الفلسطينية بالقومية، لأنها –أي دولة إسرائيل– جاءت تحقيقًا للمطلب اليهودي القومي، الذي لا يصلح له مكان إلا في هذه الأرض. ووفق

---

[515] المصدر السابق، ص257.

[516] المصدر السابق، ص349.

[517] المصدر السابق، ص404-405.

هذه السردية، يخرج الأصلاني الفلسطيني من الحيز الجغرافي، لأن وجوده يصبح عائقًا في وجه تحقيق العدالة التاريخية.

في "أردنية" الفلسطينيين

كما أسلفنا، فإن أحد السمات العامة لخطاب نتنياهو الأصلاني هو الهجوم على الأصلاني الفلسطيني، وإنكار حقيقة أنه يمثّل شعبًا قوميًا مستقلًا، لذا عمد إلى الربط الكبير بين الفلسطيني والأردني، قائلًا إن الفلسطينيين هم نفسهم الأردنيون، وبالتالي لا وجود لقومية فلسطينية مستقلة.

الغريب في الأمر، أن نتنياهو يتوصّل إلى نتيجته تلك، بالاعتماد على أقوال لقادة النضال الفلسطيني في منظمة التحرير الفلسطينية، وزعماء أردنيين، تتحدّث عن وحدة المطالب الفلسطينية والأردنية في مواجهة الاستعمار الصهيوني، ويجردّها من سياقها، فمثلًا يقتبس مجموعة من تصريحات الزعماء الفلسطينيين والأردنيين الذين يقولون إن النضال الفلسطيني لا يمكن فصله عن النضال الأردني،[518] مدعيًا أن ذلك يعني أن الفلسطينيين يريدون دولة لهم في الأردن أيضًا،[519] في محاولة لنزع السياق الذي ترد فيه مثل تلك التصريحات التي تؤكد دعم الأردنيين لنضال الفلسطينيين ضد الاستعمار الصهيوني.

لكنه يعود بعد ذلك، ليؤكد أن الأردن هي دولة الفلسطينيين:

---

[518] المصدر السابق، ص178–179.

[519] المصدر السابق، ص179.

> لا داعي لتحويل الأردن إلى "دولة فلسطينية". فقد كانت هكذا منذ يوم ولادتها. وما يدعى بالقضية الفلسطينية، يمكن حله في إطار الدولتين المستقلتين، إسرائيل والأردن، دون أن تقام بينهما دولة ثالثة مصطنعة وغير مستقرة.[520]

لا يميّز نتنياهو بين الفلسطيني والأردني، ويراهما شعبًا واحدًا، ما يعني إلغاء للمطالب القومية التي ينادي بها الفلسطينيون، فوجود الأردن –أرض الفلسطينيين بالنسبة له– يقوّض حقهم في المطالبة بأرض فلسطين كأرض للدولة الفلسطينية، كما يمنعهم من أحقية المطالبة بإقامة "دولة ثانية لهم"[521] بين الأردن وإسرائيل:

> لا شك أن هناك في فلسطين الانتدابية جماعتين قوميتين فقط: يهود وعرب. وبنفس الدرجة من الواضح أنه توجد في نفس المنطقة دولتان فقط – إسرائيل والأردن... إن مطالب العرب الفلسطينيين "بتقرير المصير"، مطالب كاذبة، فسكان الأردن جميعهم عرب فلسطينيون (إذ أن الملك عبد الله، جد الحسين، أراد في البداية أن يسمي الأردن "المملكة الفلسطينية الهاشمية"). ويشكل الأردنيون من أصل فلسطيني (من غرب النهر) أغلبية مطلقة من السكان الأردنيين. وحقيقة إن قسمًا من عرب فلسطين هاجروا عام 1948، إلى جزء آخر من فلسطين، لا تسمح لأي كان بالقول إن العرب الفلسطينيين ليست لهم دولة خاصة بهم، وسُلبوا حق تقرير المصير.[522]

ويعتبر نتنياهو أن الأردن هي جزء من أرض إسرائيل الانتدابية، ويرى فيها حلًا للمشكلة الفلسطينية، بما يوحي بتنازل ضمني عنها صالح "حلّ القضية الفلسطينية"، رغم أنه يشير إلى أنها تظل أرض إسرائيل التي يسيطر عليه العرب:

> كما أن هذه المطالبة [قيام دولة فلسطينية] تتجاهل حقيقة وجود دولة فلسطينية قائمة حاليًا. فأرض إسرائيل الانتدابية كبيرة لدرجة تجعلها قادرة على استيعاب دولة يهودية صغيرة، إسرائيل، ودولة أكبر لعرب فلسطين، تلك التي تدعى الأردن. هنالك حل للنزاع بين الشعبين، يتمثل بإقامة دولتين: دولة يهودية للشعب اليهودي المقيم غرب نهر الأردن، ودولة عربية

---

[520] المصدر السابق، ص180–181.

[521] المصدر السابق، ص184.

[522] المصدر السابق، ص180.

> للشعب العربي الذي يقيم معظمه شرقي نهر الأردن... يمكن تحقيق الطموحات الوطنية للعرب الفلسطينيين في أرض إسرائيل الانتدابية الموجودة حاليًا تحت سيطرة العرب – في دولة الأردن التي يحكمها الهاشميون. إن القول بأن الأردن، هي الدولة الفلسطينية، هو تعريف لوضع قائم وموجود.[523]

ولذلك، كان نتنياهو، يرى في الفلسطينيين الذين يحاولون العودة إلى فلسطين "متسللين"[524] بما يوحي بالاغتراب الذي يريده نتنياهو للفلسطيني، فالمتسلّل شخص غريب يحاول الانتقال إلى ملكية آخر، وغير الغريب لا يمكن أن يتسلّل إلى أرضه، الأمر الذي يشكّل قضاءً على أصلانية الفلسطينيين.

في فلسطينية اليهود

استتباعًا لآراء نتنياهو حول القوميات، يدّعي أن تسمية "الفلسطيني" كانت تطلق بالأساس على اليهودي وليس على العربي في فلسطين، فيما "اختطفها" العربي لنفسه حديثًا:

> لم تكن فلسطين العربية قائمة أبدًا، كما لم تكن هنالك منطقة عربية تحاذي منطقة أرض إسرائيل. حتى أن اسم فلسطين نفسه لم يعد مستعملًا بين العرب. البريطانيون هم الذين أحيوه، ومنهم صادره العرب لأنفسهم، في القرن الحالي.[525]
>
> أما التناقض فهو أن الذين كانوا يلقبون أنفسهم "بفلسطينيين" في عهد الانتداب البريطاني، هم يهود فلسطين، بالذات: الـjerusalem post، والموسيقى الفلهرمونية الفلسطينية، كانتا يهوديتين. كما أن الجنود الذين خدموا في إطار اللواء اليهودي في الجيش البريطاني، كانوا يدعون من قبل البريطانيين "فلسطينيين"، وكان هذا المصطلح خاصًا، آنذاك، باليهود. صحيح أنه كان آنذاك إلى جانب "اليهود الفلسطينيين" "عرب فلسطينيين" أيضًا، بيد أنه في تلك الأيام لم يكن عرب "أرض إسرائيل" يرفعون شعارات قومية خاصة منفردة، وكانوا

---

[523] المصدر السابق، ص380.

[524] المصدر السابق، ص248.

[525] المصدر السابق، ص76.

> يؤكدون دائمًا على "انتمائهم للأمة العربية". إن انتماء العرب الفلسطينيين للأمة العربية، لم يضعف مع مرور الوقت أبدًا.[526]

إن إحدى الشروط الواجب توفّرها في القومية، حسب نتنياهو، هو التاريخ الطويل المشترك. لذلك، يصرّ على أن الانتماء الفلسطيني للأمة العربية كان قويًا دائمًا، دون وجود مطالبات قومية خاصة للفلسطينيين، ما يعني عدم أحقية مطالباتهم "الحديثة" تلك، كما يعني –بالنسبة له– تناقضًا كبيرًا مع أقوال العرب بأن اليهود غزاة غرباء.[527] في الواقع يرى نتنياهو أن العرب هم الذين "احتلوا أرض إسرائيل"[528] وليس العكس.

في إهمال الأصلاني للأرض

يكمن هدف الصهيونية، من وجهة نظر نتنياهو، في تحقيق الاستقلال القومي للشعب اليهودي، وبما أن مشروعه الاستعماري يحتاج إلى الكثير من المبررات ليقدّم نفسه كمشروع أخلاقي، لا استعماري، فقد حاول نتنياهو –على غرار غيره من القادة الصهاينة– أن يقدّم أرض فلسطين على أنها أرض "مهملة وفقيرة"[529] تمهيدًا لسحب الثقة من الأصلاني الفلسطيني الذي يعيش فيها.

لقد حاول نتنياهو، في كثير من المواضع، أن يوحي لقارئه أن "الوطن التاريخي اليهودي" هو وطن مهجور[530] يخلو من السكان بشكل شبه كامل. إن هاتين النقطتين، أي أن السكان قليلون وأن الأرض مهملة، يمكن أن تقدّم للقارئ صورة مغلوطة عن أرض فلسطين قبل الاستيطان الصهيوني فيها، بما يقدّم المستعمِر كمخلّص للأرض من أيدي الأصلانيين.

---

[526] المصدر السابق، ص177.
[527] المصدر السابق، ص206.
[528] المصدر السابق، ص405.
[529] المصدر السابق، ص58.
[530] المصدر السابق، ص47.

إن الأرض، تحت سلطة الأصلانيين، هي أرض "حزينة وقذرة وخربة كبيرة"،[531] وواسعة وخالية[532] من وجهة نظره، لأن "الأفندية" العرب ملاك الأراضي، أهملوها وعاشوا حياة الرفاهية خارج فلسطين.[533] أما المستوطنون الذين "عادوا" إليها لاحقًا، فقد وجدوها مهملة، من وجهة نظره، وأعادوا الحياة إليها، وحولوها إلى أراضٍ خصبة،[534] وإلى جنة خضراء[535] الأمر الذي يراه نتنياهو مبرّرًا لعملية الاستيطان، ومعززًا للمطالبات القومية اليهودية:

> على أية حال، إن المطالبة اليهودية في السنوات المائة الأخيرة بحق اليهود على "أرض إسرائيل"، تعززت بفضل الجهود التي لا تعرف الكلل لاستيطان الأرض وإعادة إخصابها من جديد. وعلى الرغم من أن مطالبة اليهود كانت شديدة، ربما كانت ستضعف قليلًا، لو أظهر العرب درجة مماثلة من الإصرار والإخلاص للأرض خلال الأجيال التي سبقت ظهور الصهيونية.[536]

في الواقع، يعتبر نتنياهو "عدم الإخلاص العربي للأرض"، دليلًا على عدم أحقية الأصلانيين بالسيطرة على الأرض، ولذلك فهو يسوقه كلما سنح الأمر، مستشهدًا بأقوال كثير من الصهاينة أو المؤيدين لأفكاره.[537]

لا يقول نتنياهو إن الأرض كانت خاليةً بالمطلق من السكان العرب،[538] لكنه يزعم أن الهجرة اليهودية هي التي حوّلت هذه الأرض القاحلة إلى دولة إسرائيل. لكن في الوقت الذي بدأت فيه الهجرة اليهودية المنظّمة إلى فلسطين، كان عدد العرب يزيد على عشرة أضعاف السكان اليهود، لكنهم رغم عددهم هذا، لم يتمكنوا من استصلاح الأرض:

---

[531] المصدر السابق، ص73.
[532] المصدر السابق، ص82.
[533] المصدر السابق، ص69.
[534] المصدر السابق، ص69.
[535] المصدر السابق، ص70.
[536] المصدر السابق، ص71.
[537] المصدر السابق، ص73-81.
[538] المصدر السابق، ص203-204.

لقد حولت الهجرة اليهودية أرضًا قاحلة، سكانها العرب قليلون، لكنهم يبلغون عشرة أضعاف الجالية اليهودية الصغيرة التي كانت فيها، إلى دولة إسرائيل الحالية.[539]

في خلق رابطة بين الماضي والحاضر

إن إحدى المميزات التي تميز المشروع الصهيوني عن غيره من المشاريع الاستعمارية بشكل عام، هو الإصرار على ربط الماضي بالحاضر، والذي عادةً ما يأتي استجابة للادعاءات الدينية والتاريخية التي يحاول المشروع الصهيوني التركيز عليها في سبيل إقناع كلٍ من المستعمِر، والأصلاني، والبيئة المحيطة، بأحقية ادعاءاته التي تبرّر له عملية الاستعمار.

إن الادعاء الأساسي لهذه الفكرة، يقوم على أن إقامة دولة اليهود هو إحياء لمبدأ قديم يقوم على حلم قديم لليهود بالعودة إلى أرض فلسطين،[540] بما يقدّم أساسًا أيديولوجيًا يضمن بقاء هذه الدولة الاستعمارية حتى الأبد. وهذا معناه، أن ربط الماضي بالحاضر، يهدف أساسًا إلى وضع أسس أيديولوجية تضمن مستقبل هذه الفكرة الاستعمارية، وتحافظ عليها.

ولهذا الربط بين الماضي والحاضر، عدة أشكال، من بينها تبنّي الصهيونية لتاريخ اليهود، والحفاظ على صلة مستمرّة منذ القدم بين اليهود وأرض فلسطين، إضافة إلى الزعم بأن الأرض الفلسطينية هي معقل التاريخ اليهودي،[541] وحاضنة "ماضيه العبري"[542] طيلة فترات طويلة:

---

[539] المصدر السابق، ص338.

[540] المصدر السابق، ص47.

[541] المصدر السابق، ص208.

[542] المصدر السابق، ص210.

> وفور أن وطئت أقدامهم "أرض إسرائيل" انضموا إلى الجاليات القديمة في الخليل، طبريا، صفد، أو القدس، الذين ظلوا يحافظون على وجود يهودي طيلة أجيال، على هذه الأرض المهجورة. ونتيجة لهذا لم تكن هنالك فترة من تاريخ شعب إسرائيل كانت فيها البلاد خالية تمامًا من اليهود.[543]

إن الزعم بالتواجد اليهودي الدائم في فلسطين هو زعم كاذب، ولكن حتى لو افترضنا أنه غير ذلك، لا يمكن أن يكون ذلك حجة تستخدمها الصهيونية في إثبات أحقيتها في المكان، لأن الوجود اليهودي لا يعني وجود الصهيونية. في الواقع، يحاول نتنياهو عبر هذا الزعم، بناء تاريخ قديم للصهيونية، يساعدها في تحقيق أهدافها الاستعمارية في فلسطين اليوم:

> لم تكن هذه المرة الأولى في تاريخ إسرائيل، التي يعود فيها يهود إلى أجزاء من وطنهم، طردوا منها بالقوة. إذ قبل 2100 سنة، فعل هكذا المكابيون بعد حرب تحرير دامت حوالي 30 سنة... ادعى أنطوخيوس أن أرض إسرائيل هي جزء لا يتجزأ من الامبراطورية الهيلانية التابعة له، تمامًا مثلما يدعي العرب اليوم بأنها جزء لا يتجزأ من مجال سلطتهم. وهكذا قال الملك: "... الآن عليكم إعادة المدن التي احتللتموها ... وإلا، سنأتي لمحاربتكم". وكان رد شمعون عليه، والذي يجب أن نكرره اليوم، على النحو التالي: "لم نأخذ أرضًا أجنبية، ولم نسيطر على أجانب، بل على تركة آبائنا التي احتلها أعداؤنا ظلمًا في أحد الأوقات. وعندما أصبحت لدينا قوة، أعدنا لأنفسنا تركة آبائنا".[544]

من خلال هذه الأقوال، يسعى نتنياهو للقول إن ما حدث قبل ألفي عام، لليهود الذين ورثتهم الصهيونية، يحدث على يد العرب، أحفاد أعداء اليهود، وبما أن اليهود كانوا على حق قبل ألفي عام، فهم كذلك اليوم في مواجهة العرب.

---

[543] المصدر السابق، ص68.

[544] المصدر السابق، ص209–210.

يحاول نتنياهو أن يعمل على تدويل الفكرة الاستعمارية الخاصة بشعبه، وتقديمها على أنها مثال يحتذى به في الطريقة التي جرى من خلالها استيقاظ أمة بأكملها، بعد أن شتتها التاريخ. ويرى نتنياهو أن اليهود يمثلون ظاهرة مختلفة عن باقي الأمم التي تحيا وتموت، قائلًا إن اليهودية رفضت أن تموت رغم أنها تلقت الضربات أكثر من كل الأمم الأخرى.[545]

ولذلك، فقد اتسم خطاب نتنياهو في حديثه عن نجاح الصهيونية باستعمار فلسطين باستخدام مصطلحات تفاؤلية ومليئة بالأمل، مثل: "الأمل لكل الشعوب"، و"النهضة"، و"رموز الإنسانية"، و"روح الإنسان التي ترفض الاستسلام للتاريخ"،[546] بما يشير إلى ما تقدّمه الصهيونية من ثقافة الانتصار ورفض الخنوع لأحكام التاريخ، متناسيًا أن ما حصل كان على حساب الأصلانيين الفلسطينيين.

إسرائيل الغربية في الشرق

يعتبر نتنياهو دولته الاستعمارية – إسرائيل دولة غربية، تقع في الشرق،[547] ويرى أن السبب الرئيسي لمحاربتها من العرب تأتي بسبب كونها غربية لا أكثر،[548] وهو ما يعني أن العداء لها ينبع من عداء العرب للغرب، وليس لرفض وجودها الاستعماري في المنطقة. وبذلك يحاول نتنياهو أن يأخذ الصراع بين المستعمِر

[545] المصدر السابق، ص437.
[546] المصدر السابق، ص438.
[547] المصدر السابق، ص53، 368، 370.
[548] المصدر السابق، ص156.

والأصلاني إلى منحى آخر، باعتباره جزءًا من الحرب الغربية الشرقية،[549] لا باعتبارها صراعًا بين أصلاني ومستعمِر.

في الواقع، تتضمن المزاعم الصهيونية بغربية الفكرة الصهيونية داخل الشرق تناقضات كبيرة، فهي من جهة تدّعي أنها صاحبة الأرض –الشرقية– منذ سنوات طويلة عبر تاريخ، في الوقت الذي تأتي فيه من الغرب، وهذا يعني أن الخطاب الأصلاني الصهيوني ينضوي على تناقض في ادعائه أنه كيان غربي في أرض شرقية، وفي الوقت ذاته هو أصلاني غربي يقوم على أرض شرقية. فالغربي لا يمكن أن يكون أصلانيًا في الشرق، وهذا هو جوهر المزاعم الصهيونية. في الواقع لقد استخدم نتنياهو مصطلح "حضارة أجنبية في قلب المنطقة العربية،"[550] دون أن يدرك أن ذلك يناقض خطابه الأصلاني بشكل مطلق.

استتباعًا لفكرة "العودة إلى التاريخ" التي ذكرناها سابقًا، يقول كروتسكين إن الفكر الصهيوني امتلأ بفكرة ضرورة تحقيق "العودة" عن طريق صناعة قومية خارج أوروبا، بل وضرورة أن تكون في الشرق، حتى يتمّكن من الانضمام إلى الغرب عن طريق إنشاء حالة مماثلة له في الشرق.[551] ما يعني أن الصهيونية سعت إلى صناعة الغرب في الشرق حتى تكون مشابهة لهذا الغرب في مكان آخر.

---

[549] المصدر السابق، ص152.

[550] المصدر السابق، ص147.

[551] كركوتسكين 2014، ص82.

في استخدام الدين اليهودي خدمة للاستعمار

يتضمّن الخطاب الاستعماري الأصلاني عند نتنياهو تأثرًا كبيرًا بالديانة اليهودية. في الواقع، إن الدين اليهودي، بالنسبة له، مصدر من مصادر الحق التاريخي للمطالبات الصهيونية بأرض فلسطين، وأحقية إقامة الكيان الصهيوني عليها. وقد كان نتنياهو يرى في الصهيونية تجسيدًا للنبوءة القديمة:

> ويحمل معجزة للغرباء، ويجمع إسرائيل الشتات، ويجتمع اليهود من كافة أقطار الأرض". هكذا قال يشعياهو. كما تنبأ يحزقيل: "وخلصتكم من الغرباء وجمعتكم من كل الأقطار، وأحضرتكم إلى أرضكم.[552]

كما يرى أن الصهيونية تمثّل تحقيقًا لمقولة "النبي عموس" الذي قال: "في ذلك اليوم سأبني عريشة داوود الساقطة"[553] وبالتالي فإن مطالب الصهيونية بـ"إعادة إعمار فلسطين المهملة والخربة" قد تحققت على يد الاستعمار الصهيوني في فلسطين.

ويستخدم نتنياهو لوصف أرض فلسطين، إضافة إلى "أرض إسرائيل"، مصطلحات مثل "فلسطين التناخية"[554] و"فلسطين المكرائية"[555] بما يدل دلالة واضحة على سيطرة الخطاب الديني على خطاب نتنياهو الأصلاني.

ويحاول نتنياهو اسقاط المفاهيم الدينية على الصراع بين المستعمِر الصهيوني والأصلاني الفلسطيني بشكل متكرّر، مدّعيًا أن الفلسطينيين والعرب يمثّلون جالوت في مواجهة داوود[556] وزاعمًا في الوقت نفسه، أن الدعاية العربية حولت "جالوت العربي إلى داود الفلسطيني، وداود الإسرائيلي إلى جالوت الصهيوني".[557] في

---

[552] نتنياهو 1995، ص، 53.
[553] المصدر السابق، ص438.
[554] المصدر السابق، ص97.
[555] المصدر السابق، ص97.
[556] المصدر السابق، ص304.
[557] المصدر السابق، ص163.

الواقع، يرغب نتنياهو بالاحتفاظ بدور الضعيف الذي يهزم القوي، ويريد للصهيونية أن تكون داوود الضعيف الذي هزم جالوت الفلسطيني الجبّار خدمةً لأهداف دعائية يروّج من خلالها للعالم بأنه الضحية.

يفرد خطاب نتنياهو الأصلاني مساحةً كبيرة للحديث عن الأبحاث التي أجريت على يد صندوق استعمار فلسطين[558] والتي يراها تقدّم أدلة تاريخية على أحقية الصهيونية بمطالباتها بالسيطرة على أرض فلسطين التي تستند إلى التناخ. لقد تناسى نتنياهو أن أبحاث هذا الصندوق، بدءًا من القرن التاسع عشر، جاءت خدمةً لأهداف استعمارية، وبالتالي فهي أبحاث غير موضوعية تهدف إلى البحث عن أسس دينية وتاريخية تكون مقدمة لاستعمار فلسطين:

> برز الاهتمام العلمي بالتناخ والتراث اليهودي. فقد استخدم الباحثون، على مختلف أنواعهم، طيلة القرن التاسع عشر، الأساليب الجديدة في التنقيب عن الآثار، وتحليل رموز اللغات، والكشف عن المضمون التاريخي للآثار المكتشفة في آرام نهرايم، وفي أماكن أخرى في الشرق الأوسط. غير أن أرض التناخ، جذبتهم أكثر من أية أرض أخرى.[559]

لقد اقترن الخطاب الديني لدى نتنياهو بعلم الآثار، مستفيدًا من محاولات صندوق استعمار فلسطين البحثية، التي ادّعت –على عكس ما تقوله ناديا أبو الحاج– أنها وجدت الأدلة العلمية الأثرية على وجود الممالك التي وردت في التوراة في فلسطين، الأمر الذي يستحضره نتنياهو ليعطي دليلًا على صحة أقواله:

> كان للدراسة العلمية التي أجريت على أرض إسرائيل دور هام في تبديد الضباب، الذي كان يغطي هذه الأرض، في الرأي العام الدولي. إذ أنه، قبل هذه الدراسة، كانت الفكرة عن هذه الأرض، أنها مجرد مملكة "المكراه" الخيالية، لكن خلال إجراء هذه الدراسة أصبحت هذه

---

[558] انظر مثلًا المصدر السابق، ص56–58.

[559] المصدر السابق، ص54–55.

> المملكة حقيقة متجسدة إذ لم تعد القدس منطقة مهجورة، بل مدينة، وكذلك الأمر بشأن بيت لحم، الناصرة، الخليل، ويافا.[560]

يزعم نتنياهو من خلال النص السابق، أن الرأي العام الدولي كان يعتبر الأرض "مجرد مملكة المكراه الخيالية"، فارضًا عليه وجهة نظره، ومحاولًا أن يحوّل هذا الخيال إلى حقيقة يؤمن بها العالم.

يحاول نتنياهو أن يفرض على القارئ آراءه، بدلًا من تقديم حجج علمية، فهو مثلًا يزعم أن "معظم الأشخاص يعرفون"، وليس من الواضح من هؤلاء الأشخاص، وما عددهم:

> معظم الأشخاص يعرفون، بدرجات مختلفة، تاريخ اليهود خلال السنوات الألف الأولى من هذا التاريخ، وهو ما يعرف بعهد التناخ: إنهم يعرفون أن اليهود، أبناء إسرائيل كانوا عبيدًا في مصر، وأصبحوا شعبًا بعدما تحرروا من العبودية، ونالوا حريتهم، وتلقوا توراة موسى. كما يعرفون بأنهم استوطنوا أرض آبائهم وبعد أن احتلوها بقيادة يهوشع بن نون.[561]

إن التفسير الوحيد لذلك، هو أن نتنياهو يحاول –من خلال سلطته الخطابية– تحويل معلومات موضوعية إلى منطق تاريخي.

من وجهة نظر نتنياهو، إن المجتمع الحديث الذي أنشأته الصهيونية ينبغي له أن يظل "متأثرًا بالقيم التناخية"،[562] حتى يستمرّ في اكتساب الشرعية، لأنه بدون هذه القيم سيفقد المجتمع الإسرائيلي أحد أهم مكوّناته. ولذلك ليس من الغريب، أن يطلق الأسماء التوراتية على الأماكن الجغرافية. يستعين نتنياهو بعدد كبير من الأسماء التوراتية، التي أطلقت لاحقًا على مناطق فلسطينية، من أجل تثبيت مقولاته حول أهميتها بالنسبة لليهود، وتثبيتها كمناطق يهودية تدلّل على أصلانية اليهود فيها:

---

[560] المصدر السابق، ص56.

[561] المصدر السابق، ص59–60.

[562] المصدر السابق، ص437.

> ألون موريه، التي تلقى فيها إبراهيم وعدًا بالأرض؛ والخليل التي دفن فيها أجداد الأمة؛ وبيت إيل، التي رأى فيها يعقوب نفسه على سلم ورأسه في السماء؛ وبيت لحم مكان قبر راحيل؛ وأريحا التي دخل عن طريقها يهوشع إلى البلاد...[563]
>
> سلوان، هي "شيلوح" المكرائية... وحول هذا الموقع الوارد ذكره في التناخ، والذي لا زال قائمًا حتى هذا اليوم، بنى الملك داوود عاصمته وحصّنها. "كتيف هشلوح" هي بالذات مدينة داوود.[564]
>
> الخليل، هي أقدم مستوطنة يهودية في أرض إسرائيل وتاريخ الشعب اليهودي عامة، حيث اختارها أبونا إبراهيم للإقامة فيها، وفيها اشترى قطعة الأرض المخصصة لمقبرة زوجته وأسرته. وكل آباء وأمهات الشعب اليهودي، باستثناء أمنا راحيل، مدفونون في قلب هذه المدينة. وفي الخليل أقام الملك داوود مملكته، وحكم فيها سبع سنوات، قبل أن ينتقل إلى القدس. ومنذ خراب الهيكل الثاني، تقيم جالية يهودية في الخليل باستمرار، حتى وقعت مذبحة (1929) حيث قتل فيها عشرات اليهود، وطرد الباقون من المدينة.[565]

إن وجود أحد الأنبياء التي يؤمن بهم اليهود في منطقة ما، أو شرائه قطعة أرض فيها، يحولها إلى إرث صهيوني بالنسبة لنتنياهو، وبالتالي تتحوّل إلى ملكية حصرية للصهيونية عبر الزمان، لأن نبيًا يهوديًا أقام فيها.

من الملاحظ، أن نتنياهو حاول الاستعانة بأقوال وتصريحات لقساوسة من الديانة المسيحية[566] تدعم آراؤه، ليقول إن الديانتين اليهودية والمسيحية تتقاربان في وجهة نظرهما حول هذه المواضيع، تمهيدًا لاستقطاب المسيحيين إلى جانب المواقف الصهيونية.

---

[563] المصدر السابق، ص201.

[564] المصدر السابق، ص206.

[565] المصدر السابق، ص206.

[566] المصدر السابق، ص53-54.

في كتابة التاريخ استعماريًا

يمتاز خطاب نتنياهو الأصلاني بالمحاولات الكثيرة لإعادة كتابة التاريخ من المنظور الصهيوني، فهو يزوّر الحقائق، ويقلبها خدمةً لأهدافه الاستعمارية وإثباتًا لحقوقه الأصلانية. يقول نتنياهو إن العرب الذين وصلوا إلى أرض فلسطين عام 626 كانوا قد دمروا بشكل كامل، "الاستيطان اليهودي الكبير والمزدهر في شبه الجزيرة العربية".[567] لم يكن اليهود في شبه الجزيرة العربية، مستوطنون، بل كانوا سكانًا طبيعيين للمنطقة، ولم يقضِ العرب على وجودهم، بل عاشوا جنبًا إلى جنب معهم.

من ناحية ثانية، يصف الفتح/الدخول الإسلامي إلى أرض فلسطين بـ"الاحتلال الإسماعيلي"[568] ويعتبره احتلالًا نجح في "اقتلاع الفلّاح اليهودي من أرضه"[569] عبر "الاستيطان العربي المسلّح"[570] بما يشير إلى سلب اليهود أراضيهم من قبل الفاتحين العرب، وهي رواية استخدمها من قبل دافيد بن غوريون. إن استخدامه مصطلح "الاستيطان العربي" فيه إشارة واضحة إلى أن العرب هم من اقتلعوا اليهود من بلادهم أولًا، ما يعني أن السكان الأصلانيين لهذه الأرض هم اليهود، وأن العرب استعمروا فلسطين. لذلك، لم يشر بشكل واضح إلى أن المهاجرين إلى المنطقة في تلك الفترة كانوا عربًا ليكون ذلك مقدمة للقول إن العرب لم يسكنوا المنطقة إلا في وقت قريب جدًا:

> غمر العرب [عند دخول الإسلام] البلاد بموجات كبيرة من المهاجرين الذين كانوا في أغلب الحالات أبناء عائلات الجنود الذين وصلوا مع الكتائب التي رابطت في البلاد.[571]

---

[567] المصدر السابق، ص61.

[568] المصدر السابق، ص61.

[569] المصدر السابق، ص62.

[570] المصدر السابق، ص61.

[571] المصدر السابق، ص61.

لقد تجنب أن يستخدم كلمة "مهاجرين عرب"، بل قال إنهم كانوا أبناء الجنود، دون أن يشير إلى أنهم جنود عرب. يتابع نتنياهو محاولاته إعادة كتابة التاريخ قائلًا إن العرب دخلوا إلى البلاد بشكل جماعي بفضل مستوى الحياة الأفضل الذي توفّر في المنطقة بفضل الاستيطان اليهودي،[572] إذ تبعت الهجرات اليهودية هذه الهجرات بعد العام 1880،[573] ما يعني أن اليهود بدأوا الهجرة إلى أرض فلسطين قبل العرب الذين تبعوا اليهود لاحقًا، وهي فكرة استخدمتها غولدا مائير من قبل.

إن محاولات نتنياهو تلك، لا تقتصر على فترة زمنية معينة، بل تمتد من عمق التاريخ، ولا تنتهي عند بدايات القرن الماضي، التي ادعى من خلالها "تقلص مساحة الوطن القومي اليهودي إلى ثلث مساحة فلسطين المكرائية"[574] من خلال قيام بريطانيا، عام 1922، بـ"انتزاع شرق الأردن من هذه المساحة" وإغلاق باب الاستيطان اليهودي فيها.[575]

ومن هنا، يقدم نتنياهو نفسه ككاشف الحقائق الذي يسعى إلى كتابة التاريخ كما حصل فعلًا، لا "كما زوّره العرب المحتلّين":

> إن المعركة حول إنكار حق اليهود في العيش في قلب أرض إسرائيل وعاصمتها، تنبع من فكرة أن الضفة الغربية وشرق القدس هي أرض ليست يهودية، غزاها اليهود وسلبوها من أصحابها القدامى، وهذا تشويه مطلق للحقيقة التاريخية. إذ أن العرب لم يعمروا الأرض بعد أن احتلوها، علاوة على بقاء يهود لمدة آلاف السنين في أماكن مثل الخليل والقدس. وقبل حرب الاستقلال بعشرات السنين، كان يعيش يهود في قرى عديدة في الضفة الغربية.[576]

---

[572] المصدر السابق، ص71.

[573] المصدر السابق، ص70.

[574] المصدر السابق، ص97.

[575] المصدر السابق، ص85.

[576] المصدر السابق، ص207–208.

من الملاحظ هنا، أن الحجة التي استخدمها نتنياهو هي أن العرب لم يعمّروا المنطقة التي "احتلّوها"، الأمر الذي يعتبره حجة مقنعة، لإنكار حق الفلسطينيين في الأرض، وبالتالي انتزاعها منهم لصالح الصهيونية صاحبة تلك الأرض "المحتلّة".

في مصادر الحقوق الاستعمارية

إن إحدى الطرق لكشف هشاشة الخطاب الأصلاني عند بنيامين نتنياهو، هو متابعة الأسس التي يعتمد عليها في تحديده مصادر الحق التاريخي. يقول نتنياهو إن القوة ليست مصدرًا للحق،[577] فاليهود، كما يقول، يسكنون في فلسطين بمقتضى حقهم، لا بمقتضى قوتهم. يضيف على ذلك، قوله إن الزمن –مهما طال أو قصر– لا يلغي حق شعب ما في أرضه، إلا إذا اختفى هذا الشعب.[578]

لاحقًا، يقول:

> لا توجد سابقة أبدًا لمثل هذه الظاهرة التي يطالب فيها معتد مهزوم باستعادة ما فقد في الحرب، ناهيك عن كون العرب يطالبون بنفس الأراضي التي كانت منطلقًا للعدوان.[579]
>
> في مثل هذه الظروف فإن استخدام القوة لاحتلال هذه الأراضي، يشبه العمل ضد شخص مسلح بمسدس، أطلق عليك طلقتين، ويجب أن تأخذ المسدس من يده قبل أن يطلق عليك النار في المرة الثالثة، فالدول التي كانت هدفًا للعدوان، لها مصلحة عادلة في حماية نفسها من خطر هجوم آخر جديد.[580]

---

[577] المصدر السابق، ص59.

[578] المصدر السابق، ص64.

[579] المصدر السابق، ص171.

[580] المصدر السابق، ص172.

من خلال هذين الاقتباسين، يظهر مدى التناقض الذي يعتري خطابه، فهو هنا، يعتبر أن الأرض أصبحت ملكًا له لأنه انتصر في الحرب، واستولى عليها. إن القوة هنا، على عكس ما يقول، أصبحت مصدرًا للحق. من ناحية ثانية، ومن خلال الاستيطان في المناطق التي استولى عليها من حرب عام 1967، أي من خلال فرض الأمر الواقع مع الزمن، يصبح من حق اليهود تملّك هذه الأراضي، في تناقض واضح مع ما قاله من قبل وسبقت الإشارة إليه.

يمكن فهم الاستثناء الذي وضعه نتنياهو، فيما يتعلق بالزمن، حين قال، "إلا إذا اختفى هذا الشعب" من خلال محاولاته الكثيرة –كما ذكرنا سابقًا– لطمس القومية الفلسطينية، ففي هذه الحالة، أي اختفاء الفلسطينيين، يصبح الأمر الواقع، والقوة، والزمن، من العوامل التي تؤدي إلى إهدار حق الفلسطينيين في أرض فلسطين، من وجهة نظر نتنياهو.

من ناحية ثانية، يعتبر نتنياهو أن حق اليهود بالاستيطان في فلسطين يأتي نتيجة لإعلان بلفور، وقرارات مؤتمر فرساي، وقرار الانتداب الذي أقرته عصبة الأمم،[581] إضافة إلى "الحقائق"[582] التي قام بها الاستعمار الصهيوني على الأرض، ما يعدّ تناقضًا آخر مع تصريحه الأول بأن القوة ليست من مصادر القوة.

ويبدو من خلال تتبّع تصريحاته، أن المبدأ الوحيد الذي يؤمن به كمصدر للحق هو –في حقيقة الأمر– فرض الأمر الواقع:

> إن من شأن موجات هجرة جماعية، أن تضع نهاية للحلم العربي برؤية دولة اليهود تنهار كدولة الصليبيين التي ظلت تصغر وتتقزم، حتى تلاشت نهائيًا. ستكون مثل هذه الهجرة اليهودية، خطوة حاسمة نحو تحقيق السلام: وجود ديمغرافي يهودي قوي، إلى جانب السيطرة

[581] المصدر السابق، ص200.

[582] المصدر السابق، ص382.

على المنطقة الجغرافية المطلوبة لضمان أمننا، سيقنعان العالم العربي بأن وجود إسرائيل أصبح حقيقة تاريخية ثابتة، وأن محاولات القضاء عليها لن تنجح.[583]

من ناحية ثانية، يسوق، في سبيل دعم ادعاءاته، أمثلة من أماكن أخرى حول العالم، التي قامت فيها دول بالاحتفاظ بمناطق تابعة لدول أخرى، في سبيل حماية أمنها، مثل الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي،[584] الأمر الذي يقدّمه كمبرّر للاحتفاظ بالمناطق التي تستعمرها إسرائيل.

في التهرّب والتملّص

على غرار غيره من القادة الصهاينة، يتّبع نتنياهو سبيل التهرّب من مسؤولية الأحداث التي يقوم بها المستعمِر، وتحميلها للأصلاني، من أجل سوق الادعاء بأخلاقية الاستعمار.

عادة ما يصرّح نتنياهو بشكل مباشر، أن العرب كانوا هم من بدأوا العدوان ضد اليهود، قبل 1948،[585] وأثناء حرب تلك العام، وحتى حرب عام 1967.[586]

وتظهر سمة التهرّب في خطاب نتنياهو بشكل خاص، حين يتحدث عن اللاجئين الفلسطينيين. بدايةً، يزعم أن قضية اللاجئين الفلسطينيين لم تكن موجودة عام 1948، ومع دخول الجيوش العربية[587] بما يشير إلى تهرّبه الكامل من المسؤولية عن تهجير مئات الآلاف من الفلسطينيين أثناء الحرب. بعد ذلك، يلاحق

---

[583] المصدر السابق، ص348.

[584] المصدر السابق، ص172.

[585] المصدر السابق، ص98.

[586] المصدر السابق، ص164.

[587] المصدر السابق، ص173.

الفلسطينيين الذين أجبروا على الخروج، قائلًا إن الحكومات العربية طلبت منهم الخروج من أرضهم[588] فيما هرب قسم كبير منهم خوفًا من الحرب.[589] ولم يكتفِ نتنياهو بذلك، بل أضاف أن اليهود، أثناء الحرب، توسّلوا "جيرانهم العرب" في بعض المدن، البقاء في أماكنهم.[590] في الواقع، يكذّب الصهيوني بيني موريس كل هذه المزاعم موّضحًا أن معظم المناطق الفلسطينية هجّرت إما بسبب الهجوم العسكري عليها أو على المناطق المحيطة بها، أو بسبب الدعاية الصهيونية ونشر الإشاعات.[591]

ويلاحق نتنياهو اللاجئين في البلدان التي طردوا إليها، زاعمًا أن منظمة التحرير الفلسطينية تتعمّد، بالقوة، عدم حل مشكلة اللاجئين،[592] باعتبارها ضرورة للدعاية، وتجنيد الرأي العام الدولي في صالحها،[593] فيما أحبطت المنظمة المحاولات الإسرائيلية لـ"تفكيك المخيمات وإعادة تسكين اللاجئين"،[594] متناسيًا أنها قامت بذلك منعًا لتوطينهم، وإسقاط حق العودة من مطالبهم.

في قضية ثانية، يصف نتنياهو عملية طرد حوالي 300 ألف فلسطيني من الكويت عام 1991، في أعقاب الحرب، بأنها "أكبر عملية ترحيل إجبارية في تاريخ الفلسطينيين"[595] محاولاً التملص من إثم 750 ألف فلسطيني هجرتهم إسرائيل في حرب 1948، وناكرًا أن عملية طرد قسرية قد حدثت للفلسطينيين على يد الصهيونية شملت أكثر من ضعف الرقم الذي يقدّمه كأكبر عملية طرد إجبارية.

---

[588] المصدر السابق، ص174.
[589] المصدر السابق، ص257.
[590] المصدر السابق، ص173.
[591] موريس 2013، ص346–361.
[592] نتنياهو 1995، ص174.
[593] المصدر السابق، ص174.
[594] المصدر السابق، ص176.
[595] المصدر السابق، ص176.

كما شمل هذا الخطاب، قسمًا كبيرًا يتعلق بالانتفاضة الفلسطينية الأولى، التي يصفها بأنها أعمال شغب[596] حدثت بسبب الغضب من قادة منظمة التحرير، وبداية تقرّب الفلسطينيين من حماس،[597] كما يزعم أنها بدأت بعد أن وقع "حادث سير، انتشرت إشاعة أنه كان متعمّدًا."[598] وكأي "دولة ديمقراطية" كان على الدولة إسرائيل أن تتعامل مع أحداث الشغب تلك.[599]

وخلال هذه الانتفاضة "التي أكلت أبناءها، بعد أن قتل الفلسطينيون 750 شخصًا من إخوانهم،"[600] والتي حملت الكثير من "العنف الموجّه تجاه المسيحيين بقصد دفعهم إلى الهجرة من فلسطين،"[601] حاول الجيش الإسرائيلي "حماية العرب واليهود عن طريق اعتقال المحرّضين على العنف"،[602] هكذا يقدّم نتنياهو نفسه باعتباره الحامي للعرب من العرب أنفسهم.

من ناحية ثانية، يحاول نتنياهو تقديم عمليات التوسّع الاستعماري باعتبارها عمليات توسّع ذات شأن مدني يتعلق بالبلديات، وليس على أنها عمليات توسّع استعمارية. ويشبّه، في سبيل توضيح فكرته، المستوطنات الإسرائيلية بضواحي نيويورك التي تبدأ بالتوسّع خارج المدينة لضرورات الاكتظاظ والقرب من مراكز المدينة،[603] كما يشبّه مستقبل هذه المستوطنات بمستقبل نيويورك إذا لم تتطوّر المناطق المحيطة بها.[604] في الواقع، إن هذه الأقوال محاولة تضليل للرأي العام العالمي من خلال تقريب الصورة لهم عن طريق تشبيه الوضع بوضع نيويورك.

---

[596] المصدر السابق، ص195.
[597] المصدر السابق، ص194.
[598] المصدر السابق، ص194.
[599] المصدر السابق، ص198–199.
[600] المصدر السابق، ص197.
[601] المصدر السابق، ص197.
[602] المصدر السابق، ص196.
[603] المصدر السابق، ص207.
[604] المصدر السابق، ص207.

سمة أخرى تظهر لدى نتنياهو حين يقدم على وصف إحدى العمليات الفدائية التي نفذّتها فتح بأنها مذبحة،[605] دون أي إشارة أخرى، فيما يقوم بوصف مجزرة الحرم الإبراهيمي عام 1994 بأنها مذبحة نفذّها "إسرائيلي وحيد."[606] من هنا، يظهر أنه أطلق على كلا العمليتين وصف المذبحة، لكنه أضاف إلى المذبحة الإسرائيلية بأن منفذّها "وحيد،" وهو ما يعني أن العملية التي يقوم بها الأصلاني هي عملية جماعية، تتحمّل مسؤوليتها الجماعة الأصلانية كلها، لكنّ العملية التي يقوم بها المستعمِر هي عملية فردية يتحمّل مسؤوليتها "فرد وحيد"، تهربًا من المسؤولية الصهيونية عنها.

وقد نالت الحرب الإسرائيلية على لبنان عام 1982 نصيبًا آخر من هذا الخطاب، إذ حاول نتنياهو التهرّب من مسؤولية مذبحة صبرا وشاتيلا، قائلًا إن "العرب المسيحيين" هم من نفذّوها دون علم إسرائيل بها.[607]

كما يزعم أن صورة لفتاة مبتورة اليدين انتشرت عبر وسائل الإعلام لم تكن –كما روّجت لها وسائل الإعلام– بسبب القصف الإسرائيلي، إذ تبيّن لاحقًا –كما يقول– أنها كانت مبتورة اليدين بسبب الحرب الأهلية اللبنانية، وأن الفتاة قد فقدت يديها على أيدي العرب.[608]

في إرهاب الأصلانيين

إن إحدى أهم الخصائص التي يمتاز بها خطاب نتنياهو الأصلاني، هي مهاجمة زعماء وقادة وممثلي الأصلانيين الفلسطينيين، بشكل شخصي، وشيطنتهم، في محاولة –ربما– لوصم الأصلانيين –ككل وليس "كأفراد"– بالأعمال الشريرة أمام الرأي العام العالمي.

---

[605] المصدر السابق، ص268.

[606] المصدر السابق، ص269.

[607] المصدر السابق، ص424.

[608] المصدر السابق، ص425.

يهاجم نتنياهو مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني، ومنظمة التحرير وقادتها، بشكل كبير، ومستمّر، كما يدّعي ارتباطهم بالحركات الديكتاتورية حول العالم ضمن شبكة عالمية للإرهاب. لقد حاول نتنياهو من خلال هذه الفكرة القول إن العرب لا يريدون السلام، بينما يحتاجه الصهاينة ويريدونه، إضافة إلى القول بأن مشكلة العرب المتجذّرة هي لاساميتهم منذ عهد النبي محمد حتى اليوم.

يبدأ نتنياهو بالهجوم على الحسيني، ثم ينتقل إلى منظمة التحرير باعتبارها وريثه الطبيعي، في إشارة إلى اعتبارها امتدادًا له[609] واعتبار أن المفتي هو "الأب الشرعي للمنظمة"[610] ليظهر استمرارية في "الإرهاب" الأصلاني عبر القول إن إرهابهم هو امتداد لإرهابه واستمرارًا له. ومن هنا يصبح الهجوم على المفتي هو المقدمة لشيطنة منظمة التحرير.

إن الهجوم على المفتي هو هجوم على الأصلاني الفلسطيني الذي يرفض الاستعمار الصهيوني.

يزعم نتنياهو أن أمين الحسيني كان "كبير المحرّضين ضد اليهود، وأعنف عنصر عربي،"[611] وأنه كان يهدف إلى منع إقامة دولة عبرية حتى يتسنّى له ضم فلسطين إلى سوريا تحت حكم الملك فيصل.[612] كما يدّعي أن أحداث عام 1936 جاءت نتيجة "ما فرضته عصابات عربية يراعاها المفتي،" واصفًا إياها بأنها نشرت الإرهاب في فلسطين كاملة.[613]

ولا يكتفي نتنياهو بذلك، بل يضيف أن المفتي كان يستهدف العرب "بهجماته:"

---

[609] المصدر السابق، ص218–222

[610] المصدر السابق، ص216.

[611] المصدر السابق، ص93–94.

[612] المصدر السابق، ص91.

[613] المصدر السابق، ص102.

> كان العرب أنفسهم أهدافًا للهجمات الرئيسة التي شنها المفتي [أمين الحسيني]. بمساعدة صنيعه، أميل الخوري، وبتمويل من النازيين والفاشيين الإيطاليين، عذّب المفتي وقتل زعماء عربًا معتدلين، وأصحاب أراض كانوا على استعداد لبيعها لليهود، وكل من بدا في نظره خائنًا... قتل آلاف الفلسطينيين، وأرغم حوالي 40 ألفًا على الفرار من البلاد. وفي أواخر الثلاثينات كانت سلطة الإرهاب المتواصل، قد أدت إلى إسكات صوت العرب المعتدلين في البلاد، نهائيًا.[614]

يسمّي نتنياهو، الفلسطينيين الذين باعوا أراضيهم للمستعمِر، أو الذين كانوا على استعداد لذلك، المعتدلين، ثم يزعم أن المفتي، بتمويل من القوى الديكتاتورية في العالم، قام بتعذيبهم. لقد كان نتنياهو مصرًّا على علاقات الحسيني مع الديكتاتوريين في العالم، حين "وجد الحسيني فيهم القوة التي يبحث عنها"[615] خاصة ألمانيا النازية،[616] وعندما "اكتشف المفتي التشابه الكبير بين نظريتي القومية النازية والعربية."[617] إن هذا الادعاء خطير جدًا لأنه يقوم على مساواة العرب بالنازية، عبر شخصية المفتي الذي كان يرى فيه "شخصًا يرغب بإبادة اليهود جميعًا."[618]

بعد ذلك، يتابع نتنياهو هجومه قائلًا إن "الإرهاب السياسي الذي طوره المفتي وتلامذته، لا يزال يلقي بظله وتهديده على دول كاملة في الشرق الأوسط، حتى يومنا هذا"[619] تمهيدًا لوضع منظمة التحرير على نفس الطريق. ولذلك، يزعم نتنياهو أن المنظمة "واصلت طريق المفتي،" وتعاونت مع من أسماهم "النازيين الجدد."[620]

---

[614] المصدر السابق، ص217.
[615] المصدر السابق، ص217.
[616] المصدر السابق، ص218-221.
[617] المصدر السابق، ص217.
[618] المصدر السابق، ص220.
[619] المصدر السابق، ص221.
[620] المصدر السابق، ص220.

وبناء على ذلك، ليس من الغريب أن يكرّر نتنياهو مجموعة من المصطلحات ذات الطابع الإجرامي حول منظمة التحرير، مثل "مخرّبين"[621] أو "إرهابيين"[622] أو "أن أساليبهم الابتزاز السياسي والعنف"[623] أو "قتل اليهود في أي مكان في العالم،"[624] أو حتى "محاولة احتلال مناطق عربية في لبنان[625] أو إقامة دولة "بحكم الواقع" داخل لبنان[626] أو "دولة داخل دولة" في الأردن[627] أو حول الفلسطينيين بشكل عام مثل "عصابات القتلة،"[628] أو "العرب الفوضويين"[629] أو أنهم "نجحوا في تحقيق ما لم ينجح به أعتى اللاساميين في التاريخ"،[630] في مساواة مع النازيين ومع القوى المضطهدة لليهود.

إن إحدى السمات الغالبة على خطاب نتنياهو الأصلاني هي الإكثار من ذكر أحداث سياسية وقعت في العالم، يطيل في شرحها، ليتوصّل في النهاية إلى ما يدعم أفكاره حول "شرّانيّة" الفلسطينيين. فمثلًا يذكر قصة حدثت بين ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا[631] ليتوصل إلى أن الفلسطينيين يشبهون هتلر، وأن إسرائيل الديمقراطية تشبه تشيكوسلوفاكيا الديمقراطية في هذا الصراع.[632]

وفي مكان آخر يربط بين "أعمال المنظمة في لبنان" وبين نتائج الحرب الأهلية:

---

[621] المصدر السابق، ص192.
[622] المصدر السابق، ص157.
[623] المصدر السابق، ص183.
[624] المصدر السابق، ص184.
[625] المصدر السابق، ص225.
[626] المصدر السابق، ص226.
[627] المصدر السابق، ص225.
[628] المصدر السابق، ص216.
[629] المصدر السابق، ص349.
[630] المصدر السابق، ص118.
[631] المصدر السابق، ص186–191.
[632] المصدر السابق، ص191.

> لقد أدت أعمال المنظمة في لبنان والحرب الأهلية التي اشتعلت نيرانها هناك إلى قتل ما يزيد عن (100) ألف شخص.[633]

لم يقل نتنياهو بشكل مباشر إن الفلسطينيين كانوا السبب في اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية أو أنهم ساهموا فيها، لكنه ربط بين نتائج "أعمال المنظمة" وبين نتائج الحرب، ذاكرًا رقمًا ضخمًا عن القتلى في الحرب على أنها نتائج للحدثين، في الوقت الذي يسهب فيه في الحديث عن فساد المنظمة في لبنان و"إجرامها" فيها، وقتلها للبنانيين،[634] بما يظهر كمحاولة للربط بين الفلسطيني والمجازر التي حدثت في لبنان.

كان نتنياهو يرى أن المنظمة تمثّل المرشد للحركات الإرهابية حول العالم، فهي الأساس لهذه الأفكار:

> وكانت هي [م ت ف] هي التي أوجدت فن تخويف بني البشر في العالم كله، وكانت أول من اختطف الطائرات ونسفها في الجو، واحتجاز الرهائن... وأعمال وحشية أخرى. لقد حاكت منظمات عديدة أخرى في العالم، أساليب منظمة التحرير الفلسطينية، لأن نجاح إرهاب في مكان ما، يخلق إرهابًا مماثلًا في أماكن أخرى.[635]
>
> من "عش الدبور" هذا، التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية [في لبنان]، انتشر "فيروس" الإرهاب إلى جميع أنحاء العالم الغربي.[636]

وقد كان يرى نتنياهو، أن دور دولة إسرائيل، باعتبارها دولة ديمقراطية، يلزمها بمحاربة "الإرهاب"، جنبًا إلى جنب مع دول العالم[637] ما يعني أنه يضع نفسه إلى جانب دول العالم أمام عدو مشترك، يراه هو منظمة التحرير والفلسطينيين بشكل عام، ويراه العالم حركات إجرامية تبتغي إرهاب الناس. إن هذا التقريب بين الإرهاب والأصلاني الفلسطيني هو مبرّر للهجوم عليه، والاستيلاء على مزيد من أراضيه.

---

[633] المصدر السابق، ص227.

[634] المصدر السابق، ص226.

[635] المصدر السابق، ص229.

[636] المصدر السابق، ص230.

[637] المصدر السابق، ص234–240.

في أخلاقية الاستعمار

يرى نتنياهو في استعمار أرض فلسطين أمرًا أخلاقيًا، لأن الصهيونية –حسب وجهة نظره– جاءت من أجل هدف "نبيل" هو خلاص اليهود من الظلم. لكن، ومع الرفض العربي المطلق لوجود الاستعمار الصهيوني، يحاول نتنياهو أن يقلب الحقائق من خلال المزاعم بأن العالم الغربي يدعم الصهيونية، إضافة إلى تراجع حدّة الكراهية العربية بسبب "أخلاق" دولة إسرائيل:

> ففي العقدين الأولين لحياتها [دولة إسرائيل]، خفّت حدة الكراهية العربية بسبب التضامن الأخلاقي، من قبل ملايين الناس في العالم، مع الشعب اليهودي، الذي عانى من الكارثة، ومع البطولة التي أبدتها إسرائيل في "حرب الاستقلال".[638]

في الواقع، إن "الكارثة" التي حلّت باليهود، لا تقدّم أي مبرر لاستعمار أرض فلسطين من قبل اليهود، لأن الضحية لا يمكن أن تتحول إلى جلّاد لمجرد وقوعها كضحية. ومع ذلك، يبقى المشروع الصهيوني بالنسبة لنتنياهو مشروعًا أخلاقيًا بالكامل، فالصهيونية هي مشروع "نضالي للإنسانية جمعاء".[639]

ويعود نتنياهو إلى أفكار مؤسس الصهيونية هيرتسل، ليكرّر الفكرة القائلة بأن الصهاينة هم الوحيدون الذين أخرجوا "السود" من أفريقيا، "لتحريرهم وليس لاستعبادهم."[640] لقد اعتبر نتنياهو أن استعمار أرض فلسطين من قبل اليهود الإثيوبيين عن طريق الصهيونية هو تحرير لهم، لكنه تناسى أنه في الواقع استعبادًا للأصلانيين الفلسطينيين.

---

[638] المصدر السابق، ص113.

[639] المصدر السابق، ص438.

[640] المصدر السابق، ص119.

كما يرى أن هذا الاستعمار سيجلب للمنطقة بأسرها الحداثة،[641] وأنه استطاع أن "يحل مشكلة 800 ألف لاجئ يهودي"[642] بما يوحي أن الصهيونية جاءت لحل المشاكل، لا لاختلاقها.

في مصير الأصلانيين

بالنسبة لنتنياهو، لم يكن استعمار فلسطين ظلمًا لحق بالعرب الفلسطينيين، لأن الإسبان، بعد أن استعادوا الأندلس، لم يظلموا العرب الذين سيطروا عليها، وهو ما يعني أن اليهود الذين "عادوا بعد 1200 عام،" لم يلحقوا الظلم بالعرب الفلسطينيين، لأن الأرض ظلت لهم.[643] من خلال هذا التصريح، يظهر أن نتنياهو يرى في الفلسطينيين محتلين لأرض اليهود لسنوات طويلة.

ولذلك، فإن المشروع الصهيوني، من وجهة نظره، هو شيء مختلف، عن باقي الصراعات التي تدور في العالم:

> إن استيلاء إسرائيل على أراضي الضفة الغربية وغزة، كان مختلفًا، من حيث الهدف، عن كل النماذج التاريخية لاحتلال الأراضي بما فيها الصراعات التي خاضها الأمريكيون ضد الهنود الحمر، وضد المكسيك والتي حددت حدود الولايات المتحدة الأمريكية. لم تخرج إسرائيل لاحتلال أراضي، إنما أرغمت على خوض حروب دفاعية.[644]

---

[641] المصدر السابق، ص369.

[642] المصدر السابق، ص175.

[643] المصدر السابق، ص63.

[644] المصدر السابق، ص171.

يبدو أن نتنياهو تعمّد ذكر الهنود الحمر في أمريكا، ليقول إن الصراع مع الفلسطينيين ليس صراعًا استعماريًا، أي بين أصلاني ومستعمِر، كما هو الحال في أمريكا، بل شيئًا مختلفًا، لأنها –أي إسرائيل– أرغمت على خوض الحروب مع الأصلانيين. وبالتالي، كانت السيطرة على الأراضي سيطرة لحماية أمنها.

ومن هذا المنطلق، يرى نتنياهو أن المشاكل الناجمة عن الاستعمار هي صراعات سياسية يمكن حلها من خلال "التعايش":

> وهذا يعني أن على الدول العربية قبول مبدأ التعايش المتبادل، تقوم على أساسه علاقات هذه الدول مع دولة إسرائيل. إن أسلوب التعايش، هو أسلوب واقعي، إذ أنه يمكّن المجتمعات المتصارعة مع بعضها البعض، من العيش والتطور، حتى من خلال استمرار النزاعات، وربما مع مرور الوقت، تستطيع هذه المجتمعات حل الخلافات العميقة بينها.[645]

من خلال هذا التصريح، يحاول نتنياهو تحويل الصراع بين المستعمِر والأصلاني إلى صراع بين دولة ودول محيطة ترغب بإبادتها، وهو ما يعني تجاهلًا واضحًا، وإنكارًا لحقوق الفلسطينيين في استعادة أرضهم، وإخفاءً لثنائية المستعمِر الصهيوني والأصلاني الفلسطيني.

نتائج الفصل السادس

يمكن إجمال مجموعة الأساليب التي استخدمها نتنياهو في خطابه الأصلاني، بأنه انتقائي في الاستشهاد بآراء المفكّرين والكتّاب حولأرض فلسطين، فهو ينتقي من بين آلاف الكتّاب مجموعة تدعم آراءه، وتتفق معها، فهو مثلًا لا يورد أي شخص غير صهيوني، بينما يستشهد بعدد كبير من الباحثين الاستعماريين، الذين حاولوا إيجاد روابط تاريخية بين فلسطين واليهود.

---

[645] المصدر السابق، ص362.

كما يقوم نتنياهو بعمل مقارنات مع حالات سياسية أخرى في العالم ليدعم آراءه، فيقوم بإسهاب الحديث عن حدث سياسي معيّن، ليتوصّل بالنهاية، إلى أن مطالب الفلسطينيين بالقومية تشبه مطالب النازيين، أو أنهم يسعون إلى إبادة اليهود كما فعل هتلر. كما يقوم بالإسهاب بالحديث عن نيويورك وضرورة توسع الضواحي من حولها ليبرر عملية الاستيطان الصهيوني. إن هذا من شأنه أن يقرب الصورة للقارئ الغربي من خلال طرح أمثلة واقعية عليه، في سبيل الوصول إلى دعم كامل من القارئ لآرائه.

يحاول نتنياهو أن يورد الأمثلة التي توضّح أفكاره عبر استعراض قصص واقعية من نماذج أخرى لحالات احتلال الأراضي، والصراعات العالمية، ليتوصل من خلال ذلك، إلى أن اليهود هم السكان الأصلانيين في أرض فلسطين.

لا يختلف نتنياهو كثيرًا عن أسلافه في أسلوبه المباشر الذي يدعي "عودة" إلى "أرض إسرائيل" وليس هجرة أو استعمارًا أو استيلاءً. ولكنه يضيف إلى ذلك نظريته المتعلقة بإنكار قومية الفلسطينيين كشعب، وتجريدهم من استقلالهم القومي، تمهيدًا لجعلهم مجرد أقلية داخل كيانات سياسية كثيرة. وبهذا يقضي نتنياهو على ثنائية المستعمِر الصهيوني والأصلاني الفلسطيني، ويحوّلها إلى صراع سياسي داخل دولة طبيعية هي إسرائيل، تلك "الدولة الغربية التي تقع في الشرق".

نتائج الدراسة:

إن الصهيونية هي حركة استعمار استيطاني، تماثل حالات الاستعمار الاستيطاني الأخرى في العالم، وبشكل خاص أمريكا الشمالية وأستراليا وجنوب أفريقيا والجزائر. والخطاب الأصلاني هو أحد اللوازم الاستعمارية في

كل حالات الاستعمار الاستيطاني، وبذلك فإن الخطاب الأصلاني الصهيوني هو خطاب مماثل لمعظم حالات الاستعمار الاستيطاني الأخرى حول العالم، مع وجود خصوصية له.

إن فهم وتحليل الخطاب الأصلاني الصهيوني يسهم بشكل كبير في معرفة الطريقة التي تنظر الصهيونية من خلالها إلى نفسها، وإلى الأصلاني الفلسطيني. إن العملية التي تحاول الصهيونية اقناع اليهود من خلالها بأحقيتهم التاريخية في فلسطين تبعها محاولات لإقناع الفلسطينيين بهذه الأفكار، في محاولة لفرض سلطة خطابية على الأصلانيين الفلسطينيين تدفع بهم إلى القبول بالصهيونية كدولة طبيعية لا استعمارية في سحق لهويتهم الثقافية، وقتل للذاكرة الجماعية الخاصة بهم.

لم يبدأ الخطاب الأصلاني الصهيوني مع قيام دولة إسرائيل عام 1948، بل كان عنصرًا بنيويًا في الفكر الصهيوني منذ تشكّل بدايات الحركة الصهيونية قبل ذلك التاريخ بوقت طويل. ومع ذلك، يمكن القول إن الخطاب الأصلاني الصهيوني تكثّف وتبلور بشكل أكبر بعد سبعينات القرن الماضي حين سيطر اليمين على الحكم في إسرائيل. ولكن هذا لا يعني على أية حال، أن الفرق في جوهر هذا الخطاب بين اليمين واليسار كان كبيرًا، لكن تكثيف هذا الخطاب ضمن منظومة القيم الصهيونية، وتشبعّه باللغة الدينية/المسيانية ظهر بشكل أكبر مع سيطرة اليمين واستعمار أراضي الضفة الغربية وقطاع غزة بدءًا من عام 1967.

إن الخطاب الصهيوني الأصلاني يسعى إلى إنشاء رابطة متخيلة بين اليهودي وأرض فلسطين، تحقيقًا لأهداف استعمارية. ويجري بناء هذه الرابطة من خلال محاولة إنشاء سردية يهودية جماعية تقوم على تفتيت الوعي اليهودي خارج فلسطين، وإنشاء علاقة حصرية لليهودي بالمكان في فلسطين. في هذا المجال، يعمل الخطاب الصهيوني على اختلاق مجموعة من الأساطير حول الماضي اليهودي في فلسطين، وربطها بالحاضر الصهيوني الاستعماري، الذي يجري تقديمه على أنه امتداد لهذا الوجود العبراني، بهدف تقديم

الحجج التي تضمن بقاءه مستقبلًا. ورغم أن الاكتشافات الأثرية تاريخيًا لم تعترف بوجود يهودي ذي سيادة على كامل فلسطين أو على أجزاء منها، بالطريقة التي تقدّمها الصهيونية، إلا أن الخطاب الصهيوني الأصلاني يعمل على تهويل هذا الوجود اليهودي، واقتطاعه من سياقاته التي تظهر أن اليهود لم يكونوا سوى مجموعة صغيرة من ضمن المجموعات الكثيرة التي عاشت في فلسطين. إن التركيز على التاريخ اليهودي في فلسطين دون غيره هو بالأساس خطاب استعماري أصلاني يهدف إلى إنكار الصلة بين الفلسطينيين وأرضهم.

إن خطاب الأصلانية في الفكر الصهيوني يشتمل على مجموعة من التناقضات والمغالطات التاريخية التي تستند إليها الحركة الصهيونية. ومن بين هذه التناقضات أن الصهيونية تدّعي أنها ثقافة أوروبية غربية لكن في منطقة الشرق، في الوقت الذي تتنصّل فيه من شرقيتها وتتنكّر لها. ومن هنا، فقد ظلت الحركة الصهيونية تتبنى ادعاءً بالانتماء للبيئة الغربية، لكن في عالم الشرق. لقد تبنى القادة الصهاينة منذ هيرتسل وحتى نتنياهو هذا المبدأ دون أن يدركوا أن ذلك يعد تناقضًا مع فكرة مفادها أن الشخص لا يكون أصلانيًا إلا في منطقته. وفي الآن ذاته، تحاول الصهيونية قمع المركب الشرقي فيها (اليهود الشرقيون الصهاينة) بحجة اغترابهم المركب الأشكنازي الغربي، وبالتالي عن طبيعة الدولة الصهيونية.

من ناحية ثانية، عمدت الحركة الصهيونية إلى استخدام مكثّف لمصطلحات "العودة" إلى أرض فلسطين، بدل استخدام مصطلحات مثل "استعمار" أو "الهجرة" أو "الغزو". وقد كانت الصهيونية تهدف من وراء ذلك إلى أن توحي بأن اليهود "يعودون" إلى فلسطين، تهرّبًا من وصفها بأنها حركة استعمارية، وبطريقة توحي بوجود أصول تاريخية قديمة لليهود في فلسطين، عبر الادعاء أن الحركة الصهيونية هي وريثة اليهود الذين عاشوا في فلسطين قبل ألفي عام. هنا، يعود تناقض الشرق–الغرب مرة أخرى، ليظهر أن الحركة الصهيونية الغربية

لا يمكن أن تكون من أسلاف اليهود الذين عاشوا في الشرق (فلسطين) قبل ألفي عام. كما يرتبط مفهوم "العودة" بمحاولات ربط الماضي بالحاضر، تمهيدًا لتقديم الماضي باعتباره حجةً للحاضر وللمستقبل.

من ناحية أخرى، عمدت الحركة الصهيونية على استخدام اسم "أرض إسرائيل" للمنطقة المستعمَرة بدلًا من فلسطين، بشكل مكثّف، حتى يتسنى لها إسكات التاريخ الفلسطيني والقضاء عليه، تمهيدًا لاستبداله بشكل كامل، والقضاء على كل تفاصيله. إن إيراد اسم فلسطين في الخطاب الأصلاني الصهيوني جاء بوصفه اسمًا مؤقتًا للمكان، أو بوصفه مكانًا بريطانيًا، أو بوصفه يهوديًا أصلانيًا قبل إقامة دولة إسرائيل.

إن الاتفاق بين القادة الصهاينة على استخدام نفس المصطلحات في خطابهم الأصلاني يعني اتفاقًا صهيونيًا على بناء مفاهيم وروايات تاريخية، بما يمكن أن يمثل إجماعًا على بناء الرواية الجماعية وترسيخها.

إن تتبّع الخطاب الأصلاني الصهيوني، بدءًا من هيرتسل حتى نتنياهو، يظهر استمرارية في فحوى هذا الخطاب، لكن بأشكال مختلفة. فهذا الخطاب، يقوم بإعادة إنتاج بناه الاستعمارية من خلال أساليب مختلفة، باختلاف الظروف المحيطة. وقد بدأ الخطاب الأصلاني بالظهور في الفكر الصهيوني قبل اختيار فلسطين لتكون الأرض المستعمَرة بشكل نهائي، وركّز على أنها تشكّل الوطن التاريخي لليهود وأنها أرض اليهود الحصرية.

كما عمد الخطاب الأصلاني الصهيوني إلى مهاجمة الفلسطينيين بكل الطرق الممكنة، وفي مختلف المناسبات، وقد كان من بين هذه الطرق الزعم الدائم بأنه لا يوجد شعب مستقل يسمى فلسطيني. لقد عمد الخطاب إلى تسميتهم عربًا في محاولة لانتقاص أصلانيتهم من أرض فلسطين، من خلال تحويلهم إلى عرب، بما يشكّل محاولة للقضاء على استقلال الفلسطينيين وهويتهم الفريدة. وهم أيضًا، كما ورد في الخطاب

الصهيوني، عرب مهملون لا يجيدون فن التعامل مع الأرض، ولا يحتاجونها، ولا يرتبطون فيها بأي بشكل من الأشكال، لذا فهي أرض بكر لما تمسها يد الأصلاني الفلسطيني.

والخطاب الأصلاني يعمل بخطين متوازيين: مرة يعلن أنه لا وجود للأصلاني الفلسطيني في المكان، ومرة يعلن أنه موجود لكنه يحاول التحايل على وجوده، ويصمه بأوصاف التخلف والرجعية والضعف.

إن تتبع الخطاب الأصلاني في الفكر الصهيوني أظهر تماثلًا كبيرًا بين كل من القادة اليمينيين واليساريين، إذ لم تكن الاختلافات فيما بينهم اختلافات جوهرية، كما تكرّرت مجموعة من الأفكار عند عدد منهم، وتبنى بعضهم أفكار بعضهم الآخر، كما حدث مع نتنياهو الذي استعان بأفكار من كل من هيرتسل وبن غوريون ومائير. من شأن هذه النقطة أن توضح أنه لا يوجد اختلاف جوهري في الخطاب الأصلاني اليميني أو اليساري، وبذا لا يمكن التعويل على المفاوضات التي تجرى مع اليساريين باعتبارهم متمايزين عن اليمين الصهيوني.

وقد تبيّن أن أهداف خطاب الأصلانية جاءت كالآتي:

1) الإنكار والتملص: أي أن ما حدث منذ بدء الهجرات الصهيونية إلى فلسطين بحق السكان الأصلانيين لم يكن بسبب الحركة الصهيونية ولا تتحمل مسؤوليته، لأن اليهود "عادوا إلى بلادهم" التي كان يحتلها شعب غريب غير أصلاني.
2) للدعاية: أي أن هذا الخطاب كان يهدف إلى إنشاء أساطير مقنعة لليهود وللعالم، لتبرير ممارسات الحركة الصهيونية وجلب التأييد لها، بالتزامن مع تهميش الجرائم التي حصلت بحق الفلسطينيين.

3) تشويه الذاكرة الأصلانية: أي أن هذا الخطاب موجه أيضًا للفلسطينيين بهدف تشويه ذاكرتهم عبر قبولهم بوجود الفكرة الصهيونية وممارساتها على الأرض، ما يوصلهم إلى الشك في أحقيتهم بالسيادة على أرض فلسطين، وبالتالي التنازل عن حقوقهم التاريخية، وعن حقهم في التصدي للمشروع الصهيوني.

أما أبرز سمات هذا الخطاب فقد كانت كالآتي:

1) إن الهدفين الرئيسيين للخطاب الأصلاني الصهيوني هما الإنكار والتملّص، وتتضمّن الأولى إنكارًا لكل ما يتعلق بالأصلاني، أما الثانية فتتضمّن تهربًا من أية مسؤولية نجمت عن الاستعمار. ويسعى الهدفان إلى تبرير الفعل الاستعماري، وتقديم الحجج التي تفنّد مزاعم الأصلانيين فيما يتعلق بتعرّضهم للظلم على يد المستعمِر.
2) يقوم الخطاب الأصلاني الصهيوني على الإنكار، ويأخذ هذا الإنكار عدّة أشكال، منها إنكاره أي فلسطينية للفلسطينيين، فيكتفي بالإشارة عند الحديث عنهم على أنهم عرب. كما يزعم الخطاب الصهيوني باستمرار أنهم بدو رحّل لا تربطهم بالمكان أي رابطة، وبالتالي ينكر الخطاب الصهيوني الوجود الفلسطيني في فلسطين، كما ينكر تاريخ وجودهم في المكان بما يهدف إلى تمزيق صلة الأصلاني بأرضه وتبرير عملية الاستعمار. وفق هذا المعنى، يتحوّل الفلسطيني الذي ظل في أرضه إلى جسد فقط، وليس جسمًا سياسيًا يعبّر عن آمال الفلسطينيين أصحاب الأرض الأصليين. إضافة إلى ذلك، لعب إنكار أصلانية الأصلانيين الفلسطينيين دورًا كبيرًا في بناء السردية الصهيونية حول

أصلانيتها في فلسطين باعتبارهم النقيض للصهيونية، فكل طعن في أصلانية الفلسطينيين هو انتصار لأصلانية المستعمِرين.

3) يحاول الخطاب الصهيوني الأصلاني التهرّب من المسؤوليات الناجمة عن الاستعمار، كما ينكر أنه كان السبب وراء المآسي التي لحقت بالفلسطينيين من بدء الهجرات الصهيونية إلى فلسطين. ويأخذ هذا التملّص أشكالًا كثيرة أهمها الزعم بأن الفلسطينيين خرجوا من فلسطين عام 1948 بقرار ذاتي، أو بقرار من الجيوش العربية، إضافة إلى إنكار مسؤولية التسبب بالكثير من المذابح التي نفذّتها الحركة الصهيونية بحق الفلسطينيين.

4) إن الإنكار والتملّص اللّذان يمارسهما الخطاب الأصلاني الصهيوني لا يقتصران على أحداث الماضي، وإنما أيضًا، على المستقبل، بكلمات أخرى، يقول الخطاب الأصلاني إن الاستعمار الاستيطاني الصهيوني لن يستسلم أبدًا، ولن يتراجع عن أهدافه، كما لن يسمح بإقامة أي دولة للنقيض الأصلاني مهما كان حجم تلك الدولة.

5) ارتكز الخطاب الأصلاني الصهيوني على مهاجمة الأصلاني الفلسطيني بكل الطرق المتاحة، فتارةً ينكر أي صلة للفلسطيني بالأرض، في الوقت الذي يدّعي فيه صلة مباشرة لليهود بها، وتارة يتهمهم بأنهم "متوحشون" و"متخلّفون" و"خارج التاريخ" وبأنهم "لا يجيدون التعامل مع الأرض". كما يزعم الخطاب الصهيوني الأصلاني أن الأرض قبل بدء الاستعمار الصهيوني كانت أرضًا عذراء، لم تمسّها يد الفلسطينيين، ولم يسكن بها إلا مجموعة من الرّحل. من المهم هنا الإشارة إلى أن هذه السمة ظهرت في معظم المشاريع الاستعمارية الأخرى، واستخدمت لتبرير استعمار مناطق شاسعة فيها.

6) ارتكز الخطاب الصهيوني على محاولة إنشاء علاقة أزلية بين اليهودي وأرض فلسطين، مع الزعم بوجود توق دائم يكنّه اليهودي لأرض فلسطين عبر التاريخ.

7) يظهر الخطاب الأصلاني الصهيوني تأثرًا بالخطاب التوراتي منذ هيرتسل وحتى نتنياهو، لكن ظهور ومأسسة هذا الخطاب لم يظهران بشكل واضح إلا مع بعد نقطة التحوّل التي شهدتها إسرائيل عام 1977 مع استلام اليمين الصهيوني بزعامة مناحيم بيغن للحكم. ومع ذلك، لا يمكن القول إن الزعماء الصهاينة قبل بيغن لم يتأثروا بالخطاب التوراتي، لكن السمة البارزة التي طغت على خطابهم الأصلاني كانت الحذر في استخدام المصطلحات الدينية، على عكس اليمين الذي جذّر الخطاب الديني في قلب الصهيونية، وأسهم في تحوّلها إلى عنصر أساسي من مركباته.

8) يدّعي الخطاب الاستعماري أن دولة إسرائيل تشكّل "استقلال القومية اليهودية" عن الاستعمار البريطاني، وبذلك تنفي عن نفسها صفة الاستعمار، وتقدّم نفسها على أنها حركة تحرّر قومي، في الوقت الذي تنعت الأصلانيين فيه بصفات الغزو والاستعمار والاغتراب عن المكان.

9) الصهيونية حركة أوروبية في أصولها وأيديولوجياتها، ولإنشاء رابطة مع فلسطين كان لا بدّ لها أن تبني خطابًا يقوم على اختلاق أسس تاريخية متخيلة مع المكان الموجود في الشرق – فلسطين، وربطه باليهود، بالتزامن مع العمل على قطع صلة اليهود مع أوروبا نهائيًا.

10) كل هذه الأمور توصلنا إلى نتيجة مفادها أنه يستحيل للاستعمار الاستيطاني الصهيوني الذي يواصل استخدام خطابه الأصلاني بهذا الشكل أن يسمح بالمساواة بين الفلسطينيين والإسرائيليين، أو السلام، أو حتى إقامة دولة فلسطينية مستقلة، وبالتالي فإن المفاوضات التي تجري بين الأصلاني والمستعمِر لا يمكن أن تأتي بأية نتيجة لصالح الفلسطينيين. كما يمكن القول إن

انتظار الدعم الحقيقي للفلسطينيين من الدول الأوروبية –منبت الصهيونية وداعمها– هو مضيعة للوقت.

التوصيات:

يوصي الباحث باستخدام مقاربة الاستعمار الاستيطاني من قبل وزارة الخارجية الفلسطينية في سبيل صنع بروباجندا إعلامية تعمل على دعم حقوق الشعب الفلسطيني ودعم نضاله أمام دول العالم باعتبار إسرائيل دولة استعمارية مصيرها الوحيد هو الزوال.

كما يوصي الباحث بضرورة عقد تحالفات فلسطينية مع جماعات أصلانية أخرى حول العالم، بهدف الاستفادة من تجاربها الذاتية في مقاومة الاستعمار، والاستنارة بتجاربها في سبيل التحرر من الاستعمار.

كما يوصي الباحث بضرورة عدم اتخاذ المفاوضات طريقة لاستجلاب الحقوق المنهوبة من الشعب الفلسطينية، واتبّاع طرق أخرى، إضافة إلى محاولة اقناع العالم الأوروبي بضرورة التخلي عن دعم الحركة الصهيونية كجزء من إصلاح الأضرار التي تسبّب بها عالمها الاستعماري.

كما يوصي الباحث بعدم استخدام مصطلح الصراع العربي أو الفلسطيني الإسرائيلي من قبل الفضاء العام الفلسطيني، لأن الصراع في حقيقة الأمر هو ثورة فلسطينية أصلانية ضد الصهاينة المستعمرين.

من ناحية ثانية، يوصي الباحث بالعمل على فضح ممارسات الاستعمار الصهيوني من خلال كشف ميزاته الاستعمارية عبر خطاب يوجه إلى العالم. وليس المطلوب من هذا الخطاب أن يقع في فخ الصهيونية عبر

الدخول في نقاشات حول أصلانية الفلسطينيين بالطريقة التي تفعلها الصهيونية أو أن يحاول أن يبرهن على أقدميته التاريخية في المكان، وإنما يكفي أن يثبت أنه لم يستعمِر هذه الأرض من أحد وأنه تعرض للاستعمار على يد الحركة الصهيونية.

المراجع والمصادر

المراجع الأجنبية:

Abdo, N. & Yuval-Davis, N. 1995. "Palestine, Israel, and the Zionist settler project" In D. Stasiulus & N. Yuval-Davis (Eds.), *Unsettling settler societies: Articulations of gender, race, ethnicity, and class* (pp. 291-322). London, England: SAGE.

Abu el-Haj, Nadia. 2001. *Facts on the ground: archaeological practice and territorial self-fashioning in Israeli society*. Chicago: The University of Chicago Press.

Charles, Asselin. 1995. "Colonial Discourse Since Christopher Columbus." *Journal of Black Studies* 26, 2: 134-152.

Cobo, Jose R. Martinez. 1987. *Study of the Problem of Discrimination Against Indigenous Populations*, UN Doc. E/CN.4/Sub.2/1987/7/Add.4.

Collins, John. 2011. *Global Palestine*. London: C Hurst & Co Publishers Ltd.

Davis, Megan. 2016. "Data and the United Nations Declaration on the Rights of Indigenous Peoples" in Kukutai, Tahu & John Taylor. *Indigenous Data Sovereignty*. Canberra: ANU Press.

Fieldhouse, D. K. 1967. *The colonial empires from eighteenth century*. New York: Delacorte Press.

Finkelstein, Norman G. 2000. *The Holocaust industry: reflections on the exploitation of Jewish suffering*. London: Verso.

Gottheil, Fred M. 1973. "Arab Immigration into Pre-State Israel: 1922-1931." *Middle Eastern Studies* 9 (3): 315-324.

Gramsci, Antonio. 1971. *Selections from the prison notebooks of Antonio Gramsci*. edited and translated by Quintin Hoare and Geoffrey Nowell Smith. London: Lawrence & Wishart.

Hall, Stuart. 1992. "The West and the Rest: Discourse and Power" in Hall, Stuart and Bram Gieben (eds.) *The Formations of Modernity: Understanding Modern Societies an Introduction Book 1* (pp185-225). Oxford: Polity in association with Open University:

Hickman, John. 2012. "Why and How States Open Frontiers." *The Journal of Slavic Military Studies* 25,1: 1-16, DOI: 10.1080/13518046.2011.624821.

Jong, Anne de. 2017. "Zionist hegemony, the settler colonial conquest of Palestine and the problem with conflict: a critical genealogy of the notion of binary conflict,' *Settler Colonial Studies*, DOI: 10.1080/2201473X.2017.1321171

Kauanui, j. Kehaulani. 2014. "Indigenous" in Burgett, Bruce & Glenn Hendler (eds.), *Keywords for American Cultural Studies*. 2nd edition. pp133-137. New York and London: NYU Press.

Masalha, Nur. 2012. *The Palestine Nakba: Decolonizing History, Narrating the Subaltern, Reclaiming Memory*. London: Zed Books.

Peters, Joan. 1985. *From time immemorial: the origins of the Arab – Jewish conflict over Palestine*. London: Michael Joseph.

Salaita, Steven. 2014. "Inter/Nationalism from the Holy Land to the New World: Encountering Palestine in American Indian Studies." *Native American and Indigenous Studies* Vol. 1, No. 2.

Salamanca, Omar Jabary, Mezna Qato, Kareem Rabie & Sobhi Samour. 2012. "Past is Present: Settler Colonialism in Palestine," *Settler Colonial Studies*, 2:1, 1-8, DOI: 10.1080/2201473X.2012.10648823

Samara, Adel and Masad Arbid. 2003. The Israeli—Arab Conflict: Towards a Socialist Solution, A conference paper: "Karl Marx in the 21 Century" – Havana, Cuba http://www.nodo50.org/cubasigloXXI/congreso/samara_10abr03.pdf (last accessed 29/7/2017).

Segev, Tom. 2000. *One Palestine complete: Jews and Arabs under British Mandate*, translated by Watzman, Haim. New York: Metropolitan Books.

Shihade, Magid. 2015. "The place of Israel in Asia: settler colonialism, mobility, memory, and identity among Palestinians in Israel." *Settler Colonial Studies*, DOI: 10.1080/2201473X.2015.1024379

Todorova, Teodora. 2015. “Reframing Bi-nationalism in Palestine-Israel as a Process of Settler Decolonisation.” *Antipode* Vol. 47 No. 5 doi: 10.1111/anti.12153

Veracini, Lorenzo. 2008. “Settler Collective, Founding Violence and Disavowal: The Settler Colonial Situation,” *Journal of Intercultural Studies*, 29:4, 363-379, DOI: 10.1080/07256860802372246

Veracini, Lorenzo. 2010. *Settler Colonialism: A Theoretical Overview*. London: Palgrave Macmillan.

Veracini, Lorenzo. 2011. “Introducing.” *Settler Colonial Studies* 1:1, 1-12.

Wolfe, Patrick. 1999. “Settler colonialism and the transformation of anthropology: the politics and poetics of an ethnographic event”. London: Cassell.

Wolfe, Patrick. 2006. “Settler Colonialism and the Elimination of the Native.” *Journal of Genocide Research* 8,4: 386-409.

المراجع العربية:

الأمم المتحدة. 2007. **إعلان الأمم المتحدة بشأن حقوق الشعوب الأصلية**. (295/61)، نيويورك: الأمم المتحدة.

أوسترهامل، يورغن. 1998. **الاستعمار: مراجعة نظرية عامة** ترجمة أبو بكر أحمد باقادر. الرياض: مؤسسة اليمامة الصحفية.

بيتربيرغ، غابرييل. 2009. **المفاهيم الصهيونية للعودة: أساطير ودراسات إسرائيلية**. رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية مدار.

توما، إميل. 1976. **جذور القضية الفلسطينية**. ط3. القدس: [د.ن.].

الحميري، عبد الواسع. 2008. **الخطاب والنص: المفهوم، العلاقة، السلطة**. بيروت: مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

ساند، شلومو. 2010. **اختراع الشعب اليهودي** ترجمة سعيد عياش. رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية مدار.

ساند، شلومو. 2013. **اختراع أرض إسرائيل** ترجمة أنطون شلحت وأسعد زعبي. رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية مدار.

سعيد، إدوارد. 1995. **الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء** ترجمة كمال أبو ديب. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.

شاحاك، إسرائيل. 1997. **الديانة اليهودية وتاريخ اليهود: وطأة 3000 عام**. ترجمة: رضى سلمان. ط2. بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.

شافير، غيرشون. 2009. الأرض، العمل والسكان في الاستيطان الصهيوني (جوانب عامة وخصوصية)، في كتاب: شلحت، أنطون (إعداد وترجمة). **ذاكرة دولة وهوية، دراسات انتقادية حول الصهيونية وإسرائيل**. رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية. ص143-174.

شلايم، آفي. 2004. إسرائيل والائتلاف العربي في سنة 1948 في روغان، يوجين وآفي شلايم. **الحرب من أجل فلسطين: إعادة كتابة تاريخ 1948** ترجمة أسعد كامل إلياس. الرياض: مكتبة العبيكان. ص139-176.

صايغ، فايز. 1965. **الاستعمار الصهيوني في فلسطين**. بيروت: مركز البحوث بمنظمة التحرير الفلسطينية.

عبدالحميد، مهنّد. 2015. **اختراع شعب وتفكيك آخر: عوامل القوة والمقاومة – والضعف والخضوع**. رام الله: مركز مسارات.

العكش، منير. 2015. **دولة فلسطينية للهنود الحمر**. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر.

غطاس، باسل. 2017. قراءة في واقع فلسطينيي الداخل وضرورة تجديد المشروع الوطني، **موقع عرب 48**، https://goo.gl/jUd2kX آخر دخول: 2017/7/21.

فانون، فرانز. 2014. **معذبو الأرض** ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي. القاهرة: مركز مدارات للأبحاث والنشر.

فوكو، ميشيل. 1984. **نظام الخطاب**. ترجمة محمد سبيلا. بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر.

كامل، مجدي. 2008. **زعماء صهيون وثائق صور واعترافات**. دمشق – القاهرة: دار الكتاب العربي.

كركوتسكين، أمنون راز. 2014. المنفى، التاريخ، وقومنة الذاكرة اليهودية: تأملات في "العودة إلى التاريخ" كفكرة صهيونية. **مجلة قضايا إسرائيلية** عدد 54.

مسعد، جوزيف. 2009. **ديمومة المسألة الفلسطينية: حول الصهيونية والحركة الوطنية الفلسطينية.** بيروت: دار الآداب.

المسيري، عبد الوهاب. 2000. **الصهيونية: نحو تعريف أكثر تفسيرية 2- استعمار استيطاني إحلالي.** *مجلة شؤون عربية*، 103.

المسيري، عبد الوهاب. 2003. **في الخطاب والمصطلح الصهيوني دراسة نظرية وتطبيقية.** القاهرة: دار الشروق.

موريس، بيني. 2013. **مولد مشكلة اللاجئين: الجزء الثاني** ترجمة عماد عواد. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

هلسه، تهاني. 1968. **دافيد بن جوريون.** سلسلة دراسات فلسطينية 44. بيروت: مركز الأبحاث بمنظمة التحرير الفلسطينية.

وايتلام، كيث. 1999. **اختلاق إسرائيل القديمة: إسكات للتاريخ الفلسطيني** سلسلة عالم المعرفة ترجمة سحر الهنيدي مراجعة فؤاد زكريا. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

يفتحائيل، أورن. 2012. **الإثنوقراطية: سياسات الأرض والهوية في إسرائيل/فلسطين.** رام الله: مدار، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية.

المصادر:

آساف، ميخائيل (مقدمة). 1968. هيرصل، بنيامين زئيب ثيودور. **رواية أرض قديمة جديدة ألطنويلاند**. ترجمة مئير حداد. تل أبيب: دار النشر العربي.

بن غوريون، دافيد. 1989. **رسائل بن غوريون** ترجمة دينا عبد الحميد. عمان: دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية.

بيغن، مناحم. 1988. **التمرد: قصة الأرجون** تقديم اللواء حسن البدري. ط2. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

تيبت، شبتاي. 1987. **بن غوريون والعرب** ترجمة غازي السعدي. عمان: دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية.

شامير، اسحق. 1994. **مذكرات اسحق شامير** ترجمة دار الجليل. سلسلة شخصيات صهيونية 13. عمّان: دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية.

مائير، جولدا. 1978. **اعترافات جولدا مائير** ترجمة عزيز عزمي. القاهرة: مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر.

نتنياهو، بنيامين. 1995. **مكان تحت الشمس** ترجمة محمد عودة الدويري، مراجعة وتصويب كلثوم السعدي. شخصيات صهيونية 14. عمّان: دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية.

هيرتزل، تيودور. 1997. **دولة اليهود: محاولة لإيجاد حل حديث للمسألة اليهودية** ترجمة مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.

هيرصل، بنيامين زئيب ثيودور. 1968. **أرض قديمة جديدة ألطنويلاند**. ترجمة مئير حداد. تل أبيب: دار النشر العربي.